رواية
خليل
ياسمينة خضرا
عندما
يعيد القلب
النظر في
القناعات
نوفل

رواية

خليل

ياسمينة خضرا

نقلتها من الفرنسيّة ديمة علي فقيه

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2020
بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© Lyn Randle / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **سابين طاوقجيان**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-486-2
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-487-9

Original title:
Khalil
© Yasmina Khadra, 2018

لبلوغ الأجيال المقبلة، لا داعي لأن نكون أبطالًا أو عباقرة، بل يكفي أن نزرع شجرةً.

I. طيور الأبابيل

فَأَنَا أَيْضًا أَرْفَعُ ذَيْلَيْكِ عَلَى وَجْهِكِ فَيُرَى خِزْيُكِ.

(سفر إرميا 13: 26)

1

باريس، مدينة النور.
يكفي أن ينطفئ واحد من مصابيحها ليغرق العالم بأسره في الظلام.

كنّا أربعة انتحاريين؛ مهمّتنا تحويل الاحتفال في ملعب «ستاد دو فرانس» إلى مأساة يلبس العالم بأسره الأسود حدادًا عليها.

كنّا نجلس بصمت، محشورين في السيّارة التي تنقلنا على جناح السرعة على الطريق السريع، يرافقنا أخوان لا أعرفهما. أحدهما جالس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق علي، والثاني في المقعد الخلفي، إلى جانبي أنا وإدريس.

أدخل الأخ الجالس في الأمام قرص «سي دي» في مشغّل لوحة القيادة، ورحنا نصغي إلى الشيخ سعد الغامدي يتلو آيات من الذكر الحكيم، بصوتٍ كان يتغلغل في أعماقنا كالسحر. لم أستمع في حياتي إلى أحدٍ يرتّل القرآن الكريم ترتيلًا أفضل من هذا العلّامة في الدين الإسلامي. لم تكن أوتارًا صوتية تلك التي يقتنيها في حنجرته، بل قوس قزح مغرّدًا. وأعتقد أنّنا تأثّرنا بعذوبة صوته الشجيّ لدرجة البكاء، باستثناء علي ربّما، الذي بدا متوتّرًا خلف عجلة القيادة.

حاولت إلهاء نفسي بالتحديق في المناظر الريفية، فلم يلبث صوت الياس أن أعادني إلى الواقع بسؤاله: «أتريد أن تلقى مصير موكا؟»

كان موكا نوعًا ما أحمق مولنبيك. فعلى الرغم من بلوغه الستّين من العمر، كان لا يزال فتى الأحياء نفسه حيث يسارع الليل في الهبوط. كان مقتنعًا بأنّ لا حقّ للعمر عليه، لذا، لم يكن يفارق سترته الجلدية المزيّنة بالدبابيس، ولا سروال الجينز الممزّق عند ركبتيه. أمّا هوايته فكانت لقاءه يوميًّا بفتية أشقياء في متنزّه «بارك دي موز» ليقصّ عليهم، ونزولًا عند رغبتهم، مغامراته المبالغ بها، مرّةً تلوَ أخرى، من دون أن يتنبّه لحظة واحدة إلى أنّ سبب وجودهم الوحيد كان الاستهزاء به.

ما من أحد يرغب في أن يلقى مصير موكا، ويتحوّل إلى ذلك السكّير المحطّم، بنظرته الضبابيّة وعقله الهائم.

«انظر خلفك وأخبرني بما ترى.» كنّا في مطعم كباب نقضم سندويشاتنا. فاستدرتُ بعض الشيء وألقيت نظرةً خلفي. غضب الياس مؤنّبًا والصلصة تسيل من فمه: «أيّها المعتوه، أنا أُريك القمر وأنت تنظر إلى إصبعي. إنّني أتكلّم عن ماضيك. ماذا فعلت في حياتك الحقيرة حتّى اليوم؟ لا شيء، فلم يخلفك سوى العدم. في الخامسة من عمرك، كنت تتسكّع في الشوارع. وها أنت بعد عشر سنوات تتخبّط في المياه العكرة ذاتها. لم تجرؤ يومًا على الإقدام على خطوة واحدة خارج خانة البداية... أتدري مصير من ينتظر ولا يسعى إلى نيل مراده؟ مصيره ألّا يعيش. مصيره أن يتعفن في مكانه.»

في فترة المراهقة، ما كان الياس يعرف ربّا ولا رسولًا. كان غريبًا عن الدين تمامًا مثل تلك الصيغ الحسابية التي تضرب خلايا دماغك قبل أن تنتهي حتى من نقلها على الدفتر. لم يكن سوى شابّ في السابعة عشرة من عمره، سيّئ المزاج وعديم الفائدة، لا يصلح لشيء سوى للتهجّم ضربًا على شابّ آخر من المدينة المقابلة، أو رفع إصبعه الوسطى في وجه حارس أمن مفرط الحشرية.

كان يلومنا نحن متسكّعي الحيّ على لامبالاتنا الزائدة بالغدّ. وكان هو نفسه يجهل ما يتوقّعه منّا بالضبط، إلّا أنّ رؤيتنا نحوم حول المغفّل موكا طوال اليوم كانت تفقده صوابه.

لا شكّ في أنّني وإدريس وضعنا حدًّا لمعاشرة وجه الشؤم العجوز بالسترة الجلدية ذاك، لنتخلّص من تأنيب الياس الذي كان يزعجنا. وكانت هذه الخطوة تهدف إلى إثبات نضجنا لكليهما. من جانبه، بقي موكا كما عهدناه، فيما شغل مكاننا فتية متسكّعون آخرون. وعلى الرغم من حسن نوايانا، لم يفارق شعور الغضب الياس. فكبيرنا الذي لا يعجبه العجب لم يفوّت فرصةً لتوجيه اللوم إلينا. لم يكن طبيعيًّا تمامًا، لدرجة أنّ والده فكّر مرّات عدّة بإدخاله مصحًّا عقليًّا.

تلك صفحة طُويت، إذ اهتدى الياس، الذي بات يرتدي عباءة بيضاء ويحنّي ذقنه، إلى الصراط المستقيم، وبلغ مرتبة الأمير، قائد الحرب المقدام. وقد تمرّس في التعبير عن الأمور المنطقية بحنكة، وعدم مطالبة الغير إلّا بما يستطيع هو فعله، وفي المرّات التي كانت ترتفع نبرة صوته، كنت أستقي بلا رويّة من نبع شفتيه. لقد أيقظ فيّ جمالًا داخليًّا يعجز اللسان عن وصفه، وحوّلني إلى كائن بصير. أمّا حياتي الحقيرة، فقد لففتها بخرقة ورميتها في مجاري الصرف الصحّي. ما عاد لما تركته خلفي قيمة، فالجانب الأفضل من شخصيّتي كان يقف آخر هذا الطريق المستقيم، الذي يجلب الابتهاج الغامر تمامًا كما يجلبه الجلوس على بساط الريح.

كان علي يقود السيّارة غيبًا، من دون أيّ خريطة أو نظام «جي بي إس». لا شكّ في أنّه عمل سائق تاكسي في حياة سابقة.

لم يكن علي، وهو ملك استباق الأمور، يخاطر بتاتًا بالإقدام على خطوة واحدة قبل التأكّد من سلامتها. بغرض التمويه، كان قد نشر إعلانًا لمشاركة سيّارته مع ركّاب آخرين في شبكة الإنترنت، وانتظر أن يتّصل به أربعة أشخاص مهتمّين بالأمر، قبل أن يُطفئ هاتفه. في حال وقوع أيّ مشكلة، سوف تثبت رسائل هاتفه الجوّال للمحقّقين المحتملين أنّ سائقنا غالبًا ما كان يتشارك السيّارة مع سائقين آخرين بهدف دفع كلفة الوقود، وأنّه ليس مخوّلًا تفتيش حقائب الركّاب.

لم تكن تربطني علاقة صداقة بعلي، وقد نفّذت ثلاث «مهمّات» معه

ليس إلّا. نظرًا إلى طبعه المتكتّم، كنت أجهل مكان إقامته واسمه الحقيقي. ولولا إفصاح رمضان طيشًا عمّا لا يجدر به الإفصاح عنه، لما علمت حتى أنّه كان يعمل في السرّ منذ أن خسر رخصة قيادة سيّارة الأجرة، وأنّه ينظّم أحيانًا من أجل المجهود الحربي رحلات على خطّ بروكسل-أليكانتي، ذهابًا وإيابًا، مخبّئًا بضعة كيلوغرامات من الحشيش في إطار الاحتياط. وكان الياس يأتمنه أحيانًا على أخ أو اثنين في طريقهما إلى الجهاد، أو يطلب منه إيصال عائد أو اثنين من سوريا ينتظرانه في هذه المنطقة المنسيّة أو تلك في فرنسا أو هولندا...

لم يكن علي يكرّس نفسه للقضية، بل يتقاضى المال مقابل خدماته. وإن عاد الأمر لي وحدي، لبصقت سبع مرّات على ظهر يدي اليسرى كي لا أُضطرّ إلى سلك الرصيف نفسه الذي يمشي عليه، إلّا أنّ المنحطّ كان يتميّز بخاصّة مُهمّة: كان كتومًا، ومنتظمًا، وفعّالًا، ويملك سجلًّا نظيفًا.

لم يسبق لي أن زرت باريس، على الرغم من أنّ خالتي تعيش فيها. فعائلتانا لم تكونا مقرّبتين. كنّا نلتقي في عطلة الصيف أحيانًا، في المغرب ليس أكثر. كانت أمّي تعتقد أنّ أختها تعتبرنا قرويين نتنين؛ وفي الحقيقة كانت تغار منها. فخالتي أمّنت حياتها بشكل جيّد؛ كانت تقطن حيًّا جميلًا يطلّ على نهر السين، وعلى الرغم من ترمّلها في سنّ مبكرة، إلّا أنّها تمكّنت من تعليم ابنتيها لتصبحا الأولى طبيبة والثانية مهندسة، وتعليم ابنها ليصبح مصرفيًّا، في حين تطلّقت أختي التوأم زهرة من دون شفقة بعد أشهر معدودة من زواجها، فيما كانت أختي الكبرى يزّة تشقى في مشغل خياطة غير شرعي يقع على بعد 7 كيلومترًا من المنزل. أمّا أنا الصبي، الذكر، الذي كان يفترض أن يكون فخر والده، فعجزت حتى عن إكمال عامين على التوالي في الثانوية.

في هذا اليوم، 13 نوفمبر 2015، كانت المرّة الأولى في حياتي التي أدخل الأراضي الفرنسية. وباستثناء الرحلات المدرسية التي اكتشفت بفضلها روتردام وإشبيلية، منذ ثماني سنوات أو تسع، ما غادرت الحيّ الذي أسكنه إلّا للتوجّه إلى دوّار في جبال كبدانة المغربية، الواقعة في

إقليم الناظور، مسقط رأس والدَيّ، حيث كنّا نمضي عطلة الصيف كلّ سنتين حين يتمكّن والدي من ادّخار مبلغ من المال. أمّا ضمن بلجيكا، فكنت أعرف ليج، حيث أتممت منذ سنتين تدريبًا مهنيًّا فترة تسعة أشهر، إضافة إلى شارلروا وأنتويرب ومونس حيث كانت أختي الكبرى تتلف أناملها وعينيها في العمل على ماكينات خياطة، إلى جانب بعض المزارع المنفية عند الحدود الشرقية للبلاد، لغايات تتعلّق بالجمعية.

غادرت بلجيكا إذًا مشتّت الذهن، عارفًا تمامًا أنّ رحلتي لم تكن مدرسية أو ترفيهية. وما كان يراودني إلّا شعور طفيف بالدوّار، قُل إنّه بين الثمالة وضربة الشمس.

عادت بي الذاكرة إلى صديق قديم لأبي كان يزورنا أحيانًا في المنزل ليشاركنا العشاء. كان أرملًا لا أولاد له. ولطالما أكّد لنا تحت تأثير الخمر، أنّ الروح خالدة تحتل أجسادنا كجسم غريب، ما يدفع كياناتنا إلى إدمان كلّ ما قد يدمّره، وذلك من أجل التخلّص منه.

في الحقيقة، لم يكن صديق أبي على خطأ تمامًا.

وأنا في طريقي نحو مصيري، انتابني شعور بأنّ روحي وجسدي كانا على خصام.

تنحّى علي إلى منطقة الاستراحة الأولى لخلع سترته السميكة، متذرّعًا بأنّ العرق كان يتصبّب منه.

كان الغريبان يتجاهلاننا.

كان إدريس يبتسم طول الوقت. حين يبتسم إدريس من دون سبب وجيه، فمعنى ذلك أنه مشتّت الذهن.

كنّا أنا وإدريس نعرف بعضنا بعضًا منذ نعومة أظفارنا، إذ كنّا نسكن المبنى ذاته في شارع ميلبومين في مولنبيك، وقد ارتدنا المدرسة نفسها، وجلسنا جنبًا إلى جنب في آخر الصفّ، مسرورين بالمشاغبة خلال حصص الدراسة، ومعًا افتخرنا باستدعائنا إلى مكتب مدام بيري حين يضيق الأستاذ بمشاكساتنا ذرعًا. لم يكن إدريس من النوع الذي يستفزّ المجتهدين أو يضايق الفتيات. فكان يعتبر الدراسة مضيعة للوقت،

ويحلم أن يكبر بسرعة كي يساعد أمّه، موظّفة صندوق في سوبرماركت، على تدبير معيشتهم ليس إلّا... وفي يوم من الأيّام، خلال الفرصة، حاصرني برونو ليستن، الصبي المرعب البالغ من العمر 12 سنة، والذي كان يهيمن من دون منافس على صفوف المرحلة المتوسّطة الثانية، مستوليًا في طريقه على ما في جيوبنا، ومنقضًّا على ما لم يكن له في الأساس. لا أذكر كيف نجح برونو في تطويقي، أنا الذي كنت أخشاه لدرجة أنّني كنت أبذل المستحيل من أجل تفاديه. حين أمسك بعنقي ودفعني إلى الحائط، كدت أفقد الوعي. حاول إدريس أوّلًا، الذي لم يسبق له قطّ أن تشاجر مع تلميذ آخر، أن يعيد المتنمّر إلى رشده. لكنّ سرعان ما تدهورت الأمور، وحصلت واحدة من أكبر المشاحنات التي شهدتها المدرسة. ومنذ ذلك اليوم، أصبح صديقي إدريس بطلي المخلّص، وما عدت أتخيّل الحياة من دونه. عندما انتقلت عائلتي للعيش في شارع هيركوليرز في كيوكيلبيرغ، من أجل إبعاد شقيقتيّ عن أصحاب اللحى في مولنبيك، الذين يعتبرون الفتيات غير المحجّبات عاهرات، ويهدّدونهنّ بتشويههنّ بمادّة الأسيد، كنت أعود كلّ ليلة وكلّ نهاية أسبوع إلى الحيّ القديم الذي عشت فيه من أجل لقاء إدريس، لدرجة أنّني وبكلّ بساطة تخلّيت عن دراستي الثانوية عندما فعل هو، إسوةً به.

كنت سعيدًا بالموت إلى جانبه.

– لا تزعج نفسك أبدًا، تأفّف الأخ الجالس في المقعد الأمامي راميًا السائق علي بنظراته. إذا رغبت في المشي أو أخذ قيلولة صغيرة، فلا مشكلة على الإطلاق. لدينا كلّ الوقت.

– سنصل في الوقت المحدّد، أكّد له علي محاولًا طمأنته.

– ومن تكون أنت لمعرفة ما تخبّئ الساعة المقبلة؟ تابع سيرك فورًا. ولا تتوقّف قبل أن نصل إلى وجهتنا.

لم يضف علي أيّ كلمة. وضع سترته السميكة في الصندوق، وسارع في التوجّه إلى الطريق السريع. وما برح يعانق عجلة القيادة بقوّة لإخفاء

ارتجاف يديه، إلّا أنّ تشنّج حنكه الواضح كان يخون الغضب الذي يصدر منه.

تجاوزنا خطًّا من شبه المقطورات قبل أن ينجلي المشهد الريفي أمامنا من جديد. في وسط حقل مخضوضر، كانت أبقار ترعى. وعلى مسافة أبعد، كانت إحدى القرى تحاول الهروب من السديم، فبدا جرس كنيستها يقف وحيدًا على شفير الهاوية.

كنت أحاول ألّا أفكّر بشيء. كيف أصفّي ذهني وهو ليس سوى عبارة عن مقتطفات من مشاهد قديمة لم تُعَدّ يومًا: مشاهد لأختي التوأم الراكضة حافية القدمين في بساتين كبدانة، ويزّة الغاضبة من العالم بأسره، وأبي المثير للشفقة بمئزر بائع الخضار، وأمّي الأشبه بظلّ خيال على شاشة رمادية... هل سيشتاقون إليّ؟ أختي التوأم بلا شكّ، وأمّي أيضًا ربّما. ليس يزّة، وليس أبي. بالكاد كنت وأبي نعرف بعضنا بعضًا... فعائلتي أصدقائي، وبيتي الشارع، ونادي الخاصّ الجامع. قد تذرف أمّي دمعات في الأيّام الأولى، ويخبر أبي الجيران وكلّ من سيتنازل ويصغي إليه أنّني لست ابنه، لتأخذ الحياة بعد ذلك مجراها الطبيعي ولن يبقى منّي سوى صور نادرة منسية في زوايا أحد الأدراج.

ما النفع منهم؟ ماذا فعلوا بحياتهم؟ كانوا يشبهون موكا إلى حدّ ما، يمضون أيّامهم كطفيليات مقاومة، محوّلين العالم إلى مكان يفقد جاذبيته يومًا بعد يوم.

لا أذكر أنّني رأيت أمّي يومًا تجازف بالإقدام على خطوة واحدة خارج خانة البداية. ولم تكن، هي الغارقة في الروتين، تأمل بالكثير من الغد. فبقيت الإنسانة نفسها التي عرفتها عندما كنت في الثالثة من عمري: كتلة النحس والخضوع ذاتها، المبرمجة كالآلة، وقد نخر الغسيل يديها، صارخةً في وجه أولادها، ومنبطحةً كجلة البقر أمام زوجها. لقد وقف الزمن عند أمّي، فأمست بلا عمر ولا مرجع: مجرّد امرأة بربرية أتت إلى الغرب لتتحسّر على الحياة في مسقط رأسها في جبال الريف، تمامًا

مثل حالة ندم تبحث عن إثم لتبرير وجودها، فتكتشف أنّ الألم بألمين عندما تكون التهمة بأنّنا الضحية.

أمّا بالنسبة إلى والدي، فمنذ أن فتحت عينيّ على الدنيا وهو يقدّم لي المشهد عينه لرجل يقف أمام حبل المشنقة ويؤجّل لفّه حول رقبته مرّة واحدة وإلى الأبد. وسبق لي أن تساءلت مرّات عدّة لماذا غادر المغرب ودفن نفسه في محلّ بقالة في بلجيكا، في حين كان يستطيع بيع ثماره وخضاره في الناظور من دون تغيير أيّ تفصيل من عاداته كمقامر منحطّ. كان يعود إلى البيت كلّ ليلة ثملًا، بمزاج كريه، من دون قبلة يهديها لزوجته، ولا كلمة حنون يسمعها لأولاده.

«مصيرهم أن يتعفّنوا كالأعشاب البرّية، بائسة ولا جدوى منها»، كما أكّد داعية أتى من لندن ليعطي وجودَنا معنًى.

– سوف أشغّل المذياع للاطّلاع على الأوضاع في ملعب «ستاد دو فرانس»، اقترح علي الذي سئم على الأرجح من الاستماع إلى الشيخ يتلو آيات قرآنية على مدار الساعة.

– لم يحن موعد المباراة بعد، ردّ إدريس.

– نعم، ولكن ثمّة أمور تُرَتَّب. في الأمس، أُجلِيَ الفريق الألماني من الفندق الذي كان يشغله جرّاء إنذار بوجود قنبلة. لن تتجاهل السلطات الأمنية الأمر كأنّ شيئًا لم يكن.

– ماذا إذًا؟ ردّ الأخ الجالس في الأمام.

– إذًا، بإمكان الأخبار أن توضّح لنا التدابير الأمنية المتّخذة في منطقة سان دونيس.

– وما مشكلتك أنت؟

– لقد تعهّدت إيصالكم إلى وجهتكم بأمان، ذكّره علي بنبرة أعلى من المعتاد، بعد أن استفزّه الرجل الذي كان جالسًا إلى جانبه بعدائيته المحتقرة.

– لم يعيّنك أحد لإيصالنا بل استأجرناك لهذا الغرض. أمّا بالنسبة إلى وجهتنا الآمنة، فهي ليست من اختصاصك. هناك من يحرسنا من فوق.

أفهمت؟

لم يردّ علي.

– هل فهمت؟ تابع الأخ بازدراء أكبر. لا تلمس «السي دي»، ولا أيّ شيء آخر، واحتفظ باحتياطاتك لنفسك.

–لا داعي للصراخ. لست أصمّ، أجابه علي معترضًا.

–أصمّ أم أعمى، آخر همّي. تابع القيادة واصمت.

لم يضف علي أيّ كلمة، مكرهًا على الالتزام بالصمت.

أمعن إدريس النظر مطوّلًا في الرقبة البادية أمامه، قبل أن يهزّ رأسه ويغضّ النظر عن الموضوع.

أمّا الراكب الآخر، الذي لم يبدِ أيّ تفاعل حتى اللحظة، فاستمرّ في تجاهلنا. من كان هذا الرجل؟ من أين أتى؟ لم يبد أيّ ردّ فعل، إذ بقي مجرّد كتلة لحم ودم ملبّسة بالمتفجّرات ليس إلّا، ذلك المتعصّب الذي يمكن تركه في مكان ما والعودة إليه بعد عام لنجده من دون أدنى شكّ حيث فارقناه.

كانت نظراتي تتأرجح بين الرجلين، وقد أذهلني غموضهما. كنّا على وشك التضحية بأنفسنا معًا، ولم يكترثا لنا أنا وإدريس على الإطلاق، قل أننا ممثليْ كومبارس بالنسبة إليهما. تُرى، من الذي سمح لهما باحتقارنا؟ أعزمهما؟ أنا أيضًا كنت أملك العزيمة. وأكثر من أيّ وقت مضى، على الرغم من الأسئلة السيّئة التي راودتني أحيانًا. وعلى قول الإمام صادق: «لا بدّ من الشكّ. إنّه يمثّل المعركة الضروس التي يتبارز فيها الملاك والشيطان في دواخلنا، المعركة الحاسمة بامتياز، تلك التي تضيّق الخناق حول رقابنا. ويبقى لنا وحدنا خيار اتّباع الملاك أو الشيطان. إنّ الإيمان يتمّم أكثر قناعاتنا الدفينة، وتنبثق عنه مهمّاتنا الحقيقية: إمّا الانتماء إلى الله أو تجاهله لمواجهة اللعنة.»

كانت الحرب في داخلي ضروسًا، فالشيطان التأم بكياني وبات يشدّني كالمغنطيس. وكنت أقيس الإيجابيات إلى السلبيات ليلًا ونهارًا، أينما ذهبت. أمسيت حلبة صراع متنقّلة. كان رأسي يضجّ بالهتافات،

المؤيّدة تارةً والمحبطة طورًا. كان الشيطان يرفض الاستسلام، مفترسًا وعنيفًا. كنت على وشك العودة، آلاف المرّات، إلى منزلي والتوجّه إلى مطعم الكباب والحانة اللذين كنت أرتادهما، وملاقاة الفتيات اللواتي كان أحبّ على قلبي إغاظتهنّ عند الخروج من المدرسة الثانوية، وشلّة أصدقائي الذين كانوا يفضّلون الاستماع إلى الأغنيات الضاربة في الصيف بدلًا من الخطب الدينية المثيرة، والعودة لتسجيلات «الدي في دي» التي أملكها. إلّا أن الربّ تغلّب على آلاف الجيوش من الشياطين. ولم يتطلّب الأمر أكثر من لحظة استدراك لاستئصال ذلك الخبيث الذي كان يستولي على روحي. «لن تصبح أبدًا مواطنًا بلجيكيًّا بكلّ معنى الكلمة»، أكّد لي الياس. «لن تملك سيّارة وسائقًا خاصًّا. في حال أراد القدر أن ترتدي بدلة رسمية وربطة عنق، فنظرات الآخرين ستذكّرك حتمًا بأصلك. ومهما فعلت، وأنجزت، أكان في مختبر أو على عشب أحد ملاعب الكرة، فيكفي أن تضرب جبانًا بالرأس حتى تسقط من مرتبة المثال الأعلى وتعود مجدّدًا إلى لقبك القديم المعروف بالمستوطن الدنيء. لطالما كان الأمر كذلك. وسوف يظلّ على ما هو عليه.»

أرفض أن تكون نهايتي شبيهة بنهاية موكا. أعتقد أنّني حكتُ ما فيه الكفاية من المؤامرات ضمن محيطي الخاصّ قبل أن أكتشف أنّ السلطات جرّدتني من صفة المواطن واستبدلتها بصفة الحالة الاجتماعية، وأنّني وحدي من يقرّر مصيري، لا محرّكو الدمى هؤلاء الذين كانوا يريدون إقناعي بأنّ روحي ستذهب طيّ النسيان، وأنّني كنت مصنوعًا من خرقة وخيوط، وأنّني سأنتهي يومًا ما في خزانة وسط المكانس والمماسح.

وعندما وصلت إلى مفترق الطرق الأخير هذا، كنت مركّزًا على هدفي: لقد حلفت اليمين بكامل إرادتي على تكريس نفسي لخدمة الله والانتقام ممن حقّرني إلى صفة الشيء ليس إلّا.

وفي يوم الجمعة هذا، في 13 نوفمبر 2015، كنت سأحقّق الغايتين معًا.

2

ترك علي الأخوين على مقربةٍ من ملعب «ستاد دو فرانس»، وسط أفواج المشجّعين الذين كانوا يتوافدون من كلّ حدبٍ وصوب: الوجوه ملطّخة بالطلاء، والأعلام كالأوشحة حول الرقبة، والصغار على الأكتاف. كانت مجموعات من المتحمّسين هنا وهناك، يردّدون الأغاني الحماسية بأعلى أصواتهم وبكلّ جرأة وهم يعتمرون خُوَذًا ذوات قرنين. في المقابل، كان آخرون يترنّحون ملوّحين برايات وأعلام ثلاثية الألوان، وقد أثملتهم الحماسة والبيرة. كانت الحشود تعجّ بنساء يضاهين الرجال سخافةً، إذ ترتدي كلٌّ منهنّ قميص المنتخب الأزرق الضيّق الذي يبرز نهودهنّ بشكل صارخ، وقد لوّنَ وجناتهنّ بأحمر الشفاه. استمرّت طوابير الباصات تفرغ ركّابها في الساحات إلى ما لا نهاية، فيما انتشر جهاز أمني مهيب حرصًا على سلامة الجميع.

كانت دوريات الشرطة تمشّط المكان، إلّا أنّ هذا التدبير لم يمنع اختلاط راكبينا وبكلّ هدوء في المدّ البشري.

لم يتكبّد الأخوان عناء إلقاء التحيّة علينا.

حتى أنّهما لم يسمعا في ما يبدو إدريس يودّعهما قائلًا: «إلى اللقاء.»

وما إن ابتعدا حتى أخرج علي قرص «السي دي» من المشغّل، وأدار المذياع.

– أعد تشغيل القرآن، أمره إدريس.

– لا شكّ في أنّ ثمّة أخبارًا قد تفيدنا، قال علي بإصرار.

– شغّل «السي دي» لو سمحت، وأوصلنا إلى النقطة 3.

– تقصد النقطة 2، لا؟

– 3. لا يعرف خليل المكان، وعليّ أن أريه المحطّة، قبل أن ألتحق بالنقطة 2.

– لكنّ خريطة الطريق لا تدلّ على ذلك، لفت السائق.

– لا تبالِ، واترك الأمر لي، أنا أهتمّ بالموضوع.

وضع علي الغيار الخلفي، ولفّ عجلة القيادة وسط الطريق لكي يعود أدراجه، وهو يرمقنا بازدراء عبر مرآة الرؤية الخلفية. رفع إدريس إبهامه تأييدًا قبل أن يتجاهله.

حاولنا قدر المستطاع تفادي ازدحام السير الممتدّ من مدخل سان دونيس وحتى النقطة 3. أنزلنا علي من السيّارة في حيّ مهجور، وانصرف بسرعة كمن ارتاح من عبء وجودنا معه. ومن البدهي أنّه كان سيعود مباشرةً ومن دون أيّ مضيعة للوقت إلى بروكسل. وعندما يصل إلى منزله، سيباشر حتمًا وعلى الفور بتنظيف سيّارته تنظيفًا جذريًّا، من أجل إخفاء أيّ دليل على حمضنا النووي الذي قد يشي بركوبنا فيها.

– لا تلمه، قال إدريس كأنّه يقرأ أفكاري.

– أرأيت كيف سارع في المغادرة؟

– الحرب سوقٌ مثلها مثل غيرها يا خليل. ثمّة من يقوم بالأعمال الشاقّة والرتيبة، وثمّة من يتولّى الإدارة عن بعد، وثمّة من يتعهّد إتمام العمليات. علي واحد من هؤلاء المتعهّدين. فهو لا يخوض حربًا، بل يبرم الصفقات.

لم يضف كلام إدريس شيئًا إلى معلوماتي، والحقّ أنّني ما كنت أكترث لمخطّطات الغير ومكائده. إنّ الله سيحكم في النهاية، وأنا لم أكن أغشّ. لقد ودّعت الجشع والطيش وبريق الحياة الدنيا لأكون جنديّ الرحمن، وبتّ أحمل على صدري وسام شهامة لا مثيل له.

كان كلام إدريس يشوّه هيبة اللحظة. فما كان ينبغي أن يتململ من أيّ شيء. ما من موضوع كان جديرًا باهتمامنا غير مهمّتنا. ومن ثمّ، ماذا

كان يقصد بالأعمال الشاقّة والرتيبة. إنّ الموت في سبيل القضية الأسمى هو شرف لا يُكرَّم بنيله أيّ كان.

– ما الذي دهاك لتغيّر خططنا في الدقيقة الأخيرة؟ سألته.

– لم تبدأ العملية بعد.

– لست مضطرًّا إلى مرافقتي إلى موقعي، فأنا لا أحتاج إلى من يمسك بيدي.

– أردت فقط أن أمضي لحظة أخيرة معك. أيزعجك الأمر؟

– كلّا، ولكن ما الذي سيظنّه علي؟ أنّني أجهل تدبير أموري بنفسي؟

– فليظنّ ما يشاء. أفكاره لا تهمّ أحدًا.

مشينا بصمت، حتى وصلنا إلى إحدى الساحات. كان الناس يأتون ويذهبون من حولنا. بعضهم يحمل أكياس المؤن الغذائية، في حين غرق البعض الآخر في همومه. وكانت واجهات المحال المضاءة، ولافتات النيون، وأجهزة التلفاز الشغّالة من وراء الواجهات، إضافة إلى السيّارات المنزلقة على الإسفلت، وكلّ ما يدور حولي، ينتمي إلى بعد ما عاد يعنيني الآن.

جلسنا على أحد المقاعد. وعادت البسمة إلى مُحيّا إدريس هكذا من دون سبب يُذكر. أمامنا، فتاة تنادي سيّارة أجرة، وصاحب محلّ يحاول إقناع زبون واقف على عتبة بابه، وزوجان يسارعان للذهاب إلى منزلهما. وتناهى إلى مسامعنا صوت سيّدة كبيرة في السنّ تسأل أحد الفتية: «أصحيح أنّك ستدخل الإصلاحية؟ فاتحتني شانتال بالموضوع...» كانت أمسية شبيهة بغيرها من الأمسيات، إلّا أنّها كانت وبعد ساعات معدودة ليس إلّا، ستتحوّل إلى أمسية فريدة لا مثيل لها، لا في الماضي ولا في المستقبل.

– لِمَ تنظر إليّ هكذا؟ استفسر إدريس.

فاجأني سؤاله، إذ كنت غارقًا في تفكيري.

– وكيف أنظر إليك؟

– تبدو حزينًا.

– وكيف تريدني أن أبدو؟ ربّت معصمي.

– لا تعلم كم أنا فخور بك.
لم أنطق كلمة.
انغلقت أنامله حول يدي.
– هل أنت بخير؟
– ولِمَ لا أكون بخير؟
– خائف؟
– ممّ؟
لمس أرنبة أنفه، ثمّ قال بصوت مرتجف:
– ألوم نفسي أحيانًا لأنّني ورّطك في هذا.
– لا داعي لذلك.
– وأتساءل أحيانًا عمّا إذا كنت لم تلحق بالياس فقط لتجنّب إغضابي.
– ليس خطأ.
– حقًّا؟
– طبعًا. كنت سأشعر بالحزن لو أبعدتني.
– أنادم أنت؟
– بتاتًا. في البداية، لحقت بك أنت. لكنّني اقتنعت في النهاية بأنني اتّخذت القرار الصائب. في الماضي، كنت أحوم تائهًا. كنت بحاجة إلى أن أجد طريقي، وقد أهداني الإخوان إليه.
– كلامك يطمئنني.
– تكون مخطئًا لو شككت بكلامي. إنّها المرّة الأولى في حياتي التي أشعر بأهمّية نفسي.
ظهرت علامة توتّر لاإرادي عند طرف فمه، وقال متنهّدًا:
– لا خير لنا على هذه الأرض.
– صحيح.
تغيّرت نبرته من دون سابق إنذار وسألني:
– أتذكر شملة؟...
– لا أذكر شيئًا أو أحدًا، قاطعته. لقد محوت كلّ ما لا يتعلّق باللحظة

الراهنة عن بكرة أبيه، وطمرته تحت الإسفلت. الليلة، نحن من المحبّبين إلى الله، ولا كلمة تكفي للتعبير عن شعوري بالإطراء.

وافقني الرأي. كانت أنامله تمرّ الآن وبسرعة على فخذه. لا شكّ في أنّ الكثير من الأسئلة السلبية كانت تجول الآن في بال إدريس، وقد بدا أقلّ استرخاءً من قبل.

– من كان هذان الرجلان؟ سألته.

– أعتقد أنّهما من الشرق الأوسط.

– لم يعيرانا أيّ اهتمام.

– ربّما لم يعتادا ذلك. في أيّ حال، قدرنا واحد في نعمة الله.

– حبّذا لو لا ألتقيهما في الجنّة.

ضحك. ضحكته الطفولية تلك. تمامًا مثل ما اعتاد الضحك في الماضي عند سماع نكتة طريفة. لطالما كان إدريس جذّابًا، لكنّ الليلة بدا وسيمًا؛ كانت عيناه تنضحان بنعومة ملائكية.

– هيّا، انسَ أمرهما، قال لي. لطيفان أم مزعجان، اليوم هما الأقرب إلينا من إخواننا.

ثمّ ألقى نظرة إلى ساعته.

– سرعان ما ستلهب المباراة الجمهور في الملعب. تقع المحطّة في آخر الساحة التي تراها هناك. مستحيل أن تفوّتها. أمتأكّد من أنّك تحمل بطاقة قطار الضواحي السريع؟

– محال أن تضيع منّي، فهي طريقي المباشر إلى الفردوس.

وقف وانتظر أن أقف بدوري، ثمّ وضع يده حول كتفي ودفعني لأسير أمامه.

– لا تختر القطار عشوائيًّا، بل انتقِ الأكثر اكتظاظًا بالركّاب.

– لو سمحت، لم أعد طفلًا.

استأذن وسارع إلى المغادرة.

وصلنا إلى جادّة، بالقرب من كشك مغلق. خلا المكان إلّا من امرأتين عجوزين شاحبتي اللون، بدتا أنّهما أضاعتا شيئًا ما، ومن مشرّد مهلوس

كان يتعفّن وسط خرقه، عند أسفل لوحة إعلانية مخرّبة.

– أتركك هنا خليل. حان الوقت لكي ألتحق بموقعي.

– صحيح، ينبغي أن تسير الأمور على ما يرام.

أخذني في حضنه.

– أنا فخور جدًّا جدًّا بك يا خليل.

ضممته بقوّة إلى صدري، واستنشقت رائحته. بقينا هكذا لثوانٍ. وعندما ابتعد، بدت عيناه ضبابيّتين، وابتسامته غايةً في الحزن.

– إلى اللقاء إذًا؟

– إلى اللقاء يا إدريس.

– انتبه إلى نفسك، مازحني بصوت يكاد يختنق.

– وكيف لا.

اقترب منّي وهمس في أذني قائلًا:

– أراهن أنّني سأوقع ضحايا أكثر منك.

– الرهان حرام في الإسلام يا إدريس.

– إنّما تُغفر للشهيد كلّ المحرّمات.

ضمّني مرّة أخيرة إلى صدره قبل أن يسارع في الاختفاء.

تلقيّت وإدريس التدريب على إتمام المهمّة خلال الأسابيع الخمسة الأخيرة. وفي كلّ ليلة، كان الشيخ المسؤول عن تنسيق تدريبنا ينضمّ إلينا بعد الصلاة، في منزل الياس لكي يتأكّد أنّنا فعلًا ملتزميْن بالمضي قدمًا في العملية. وقبل المغادرة، كان يمسك بكتفيْنا، ويقرأ أعماق أفكارنا، ويذكّرنا بأنّ الله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها. فيقول: «مهمّتكما رئيسية. إن لم تشعرا بأنّكما مستعدّيْن لإتمامها، فلا حياء في الانسحاب. لن يلومكما أحد على قراركما. إنّ الشهادة قناعة وليست إكراهًا. ثمّة إخوة يتمنّون أن يأخذوا مكانيكما.» كان إدريس يطمئنه بصوت واضح مؤكّدًا له: «لن نتخلّى لأحد عن دورنا وندعه ينفّذ ما ينتظره الله منّا يا مولانا.» وكان الإمام يهزّ رأسه تأييدًا من دون أن يحوّل نظره عنّي. ويقدم إدريس

على طمأنته مؤكّدًا: «إنّ خليل خجول الطبع، إنّما حين يلتزم بقضية، لا يمكن حتى جرافة أن تردعه. لقد كبرنا معًا، وسوف نموت معًا.»

– ومعًا ستكونان في بركة الرحمن، اختتم الإمام وهو يضمّنا إليه.

في اليوم التالي، كان الشيخ يحضر من جديد ليخضعنا للامتحان نفسه. كان مهووسًا بالمسألة، ويرغب في التأكّد أنّنا «قنبلتان يعوّل عليهما»، وأنّ الياس، الذي كان يدّعي معرفة رجاله عن ظهر قلب، لم يخطئ في ما يتعلّق بترسانة الحرب في الوقت الذي تستدعي الأوضاع أسلحة دمار شامل أصلية.

عاد في الليلة التالية، وكلّ الليالي بعدها، كي لا يترك للمصادفة مكانًا.

بعد ظهر ذلك اليوم، حضر الإمام إلى المكان مرّة أخرى، ملفوفًا بعباءته المقدّسة، محاطًا بالياس إلى يمينه، وبالإمام الآخر الشيخ صادق الموقّر، إلى يساره. خطب قائلًا: «بعد ساعات معدودة، سيغدو العالم بأسره ملتصقًا بشاشات التلفزة. وسيتوالى رؤساء الدول على المنصّات كي يستنكروا ويشجبوا، لكنّ صوتكم أنتم هو الذي سيدوّي في أرجاء المعمورة. لن يشوب رسالتنا أيّ التباس. فسوف نثبت، مرّة أخرى، لهؤلاء الكفرة أنّنا قادرون على توجيه ضربة لأيّ كان، أينما كان.»

أتت سيّارة لاصطحابنا أنا وإدريس، في المكان والزمان المحدّدين. كان فيها راكبان. وقد أثار وجودهما فضولنا، إذ لم يحطنا الياس علمًا بخصوصهما. بل اكتفى بالتلميح لنا بوقوع تفجيرات في ملعب «ستاد دو فرانس»، وبأنّ مهمّة إدريس كانت تنطوي على استهداف المشجّعين عند مخرج الملعب، في حين كانت مهمّتي التنفيذ داخل قطار الضواحي السريع بعد المباراة.

بالتالي، استنتجنا أنّ مهمّة الراكبين المجهولين كانت تنفيذ «التفجيرات» المخطّط لها داخل الملعب.

كنت أجهل أنّنا سنسافر معًا. كان إدريس أوّل مَن ركب في السيّارة، وقد فسح لي المجال على المقعد الخلفي كي أجلس بالقرب منه.

– لا داعي للتعارف الآن، قال السائق علي. سوف تفعلون لاحقًا، في جنّات الخلد.

لم يرقني الغريبان منذ اللحظة الأولى، فهما لم يتكبّدا حتى عناء النظر إلينا. وكانت غطرستهما وبرودتهما مثيرتين للاشمئزاز. لكنّ إدريس، وبنظرة من طرف عينه، ألزمني بضبط أعصابي. لا شكّ في أنّ الأخوين كانا يصبّان كلّ التركيز على المهمّة الموكلة إليهما، بالتالي، لم يأبها بالتعامل بلطف معنا...

– ألديك سيجارة؟

اقتلعني المشرّد الذي رأيته منذ قليل من أفكاري. كان مائلًا صوبي، مترّنحًا وقذرًا، رافعًا إصبعيْن مسودّتيْن إلى شفتيه كإشارة على معاناته من حاجته الملحّة إلى النيكوتين.

– لا أملك فلسًا، ولم أذق الطعام منذ يوم أمس. ألديك مالًا أو بطاقة وجبة مدفوعة في أحد المطاعم؟

– هيّا ابتعد! طردته متذمّرًا.

– اهدأ يا صاح! لم أطلب منك القمر.

– أنصحك بالعودة إلى خرقك.

لا شكّ في أنّ ما قرأه في عينيّ ردعه عن الإلحاح.

عاد أدراجه إلى زاويته، واكتفى بالنظر إليّ نظرة ازدراء عن بعد، بفمه الملتوي.

أمضيت ساعة أحوم حول المربّعات السكنية، ممتنعًا عن الابتعاد مسافة طويلة عن المحطّة. كنت أحدّد المعالم عند زاوية كلّ حيّ، وأعود أدراجي لأتأكّد أنّني لم أتُه.

غصّت الحانات بالناس. كانت المباراة قد بدأت توًّا. وكان المشجّعون إمّا يتمايلون على مقاعدهم أو يقفون بكلّ بساطة، ملتصقين بالشاشة، وحاملين أكواب الجعّة كمن يرفع جائزةً في يده. وقد انتشر صخبهم في الجوار كالعاصفة العاتية.

صدر دويّ انفجار عن بعد. بالكاد كان مسموعًا. سارعت إلى أقرب

حانة كي أتأكّد من بدء العملية. تحرّك الزبائن وسط ضجّة وصراخ كما لو كانوا أطفالًا. من ناحية المنضدة، كان البارمان والنُدُل يعلّقون على المباراة، وهم يحدّقون في الشاشة المعلّقة فوق رؤوسهم. أمّا في الملعب، فكانت المدرّجات تعجّ بالمشجّعين المتحمّسين؛ وكانت الأغاني تعلو زعيق الصفّارات، فاستنتجت أنّ الدويّ المذكور لم يصدر إلّا عن انفجار أنبوبة غاز، إن لم يكن نسجًا من خيالي.

بعد دقائق قليلة، سُمع دويّ انفجار ثانٍ، لكن كان مستحيلًا معرفة مصدره. كنت أراقب التلفاز، من وراء واجهة الحانة. لم يعكّر شيء صفو أجواء البهجة في ملعب «ستاد دو فرانس». وكانت المباراة تُجرَى في أجواء احتفالية، مؤجّجةً هتافات حماسية في كلّ مرّة كان هجوم معاكس من الفريق الفرنسي الأزرق يهدّد مرمى الخصم.

فجأةً وعلى حين غرّة، دوّت صفّارات الإنذار من كلّ حدبٍ وصوب، مغرقةً مدينة سان دونيس بكورس مروّع.

أمّا في الحانة، فلم يدرك أحد ما كان يحصل. كان الجميع يتابع المباراة ويرفع الأنخاب، وسط أصوات تضاهي بحدّتها صفّارات الإنذار التي كانت تنغّم نبض الليل. كنت مشدوهًا. لم أفهم. كانت البهجة تعمّ منصّات الملعب، والرايات تلوح في الهواء، في حين تعالت الأغاني والأبواق على بعضها بعضًا. في تلك الساعة، من المفترض أن يكون الانتحاريان قد ضغطا حزاميهما الناسفين، إلّا أنّ المدرّجات لم تستول عليها حالة الذعر. توقّعت رؤية اندلاع لهبتي نار تفتكان بعشرات المشجّعين عنقوديًّا، وتتسبّبان في تدافع تعجز الكلمات عن وصفه أمام مخارج الملعب؛ ولكن لا شيء. كانت الكاميرات تمشّط العشب بهدوء، تقرّب الصورة لتنقل هجومًا لأخذ الكرة، وتعود لتصوّر لاعبًا يدحرجها، أو تتوقّف عند آخر وقع على أرض الملعب، في حين استمرّ ضجيج الشرفات بالاختناق في حماسة متزايدة.

لم أكن أملك أيّ وسيلة اتّصال بإدريس كي أعرف ما كان يحصل. كنت أراقب الملعب عبر شاشة التلفاز. واستمرّت المباراة إلى حين أطلق

الحكم الصفّارة النهائية، التي اجتاح المشجّعون من بعدها عشب الملعب. وقع أمرٌ ما. حلّ سكوت مخيف مكان الأناشيد. على الوجوه المبرقشة، حلّ الذهول مكان الصخب الذي كان يزعزع المنصّات قبل لحظات قليلة. رأيت أطفالًا مذعورين، وفتيات مذهولات، ورجالًا مندهشين. أمّا في الحانة، فبدأ الزبائن يتبادلون نظرات غريبة. وسمعت رجليْن يتحدّثان عن هجمات.

سارعت الخطى إلى المحطّة.

3

كانت قافلات قطار الضواحي السريع مكتظّة إلى أقصى درجة. وكان معظم الركّاب في طريق العودة من ملعب «ستاد دو فرانس»، وقد شوّه الرعب وجوههم وملأ اليأس أعينهم. والغريب أنّهم كانوا صامتين؛ كأنّهم لم يشعروا سوى برغبة واحدة: العودة في أسرع وقت ممكن إلى منازلهم. سُمع طفل يبكي وسط زحمة الحشود. كان الكثيرون حولي غارقين في شاشات هواتفهم الذكية. استرقتُ النظر إلى الخلف، فرأيتُ مشاهد ذعر في إحدى الشاشات. كانت إحدى المحطّات الإخبارية تبثّ صور هجوم طاول مدينة باريس. كانت اللقطات مشوّشة وغير واضحة. لم يكن ممكنًا معرفة سبب اضطراب صاحب الهاتف الذكي لأنّه كان يستخدم السمّاعات. وبالقرب منّي، كانت شابّة مضطربة، شاحبة، وعلى وشك أن تفقد وعيها، تبعث برسائل قصيرة عبر هاتفها.

علت بلبلة في آخر القطار؛ وتبعها تدافع، ومن ثمّ شجار. خشيت أن يضغط أحدهم زرّ الإنذار، وأن يخلي الجميع القطار حالما يقف عند محطّة الطوارئ. وفي رأسي، ضجّ صوت المفسّر العاصف: «ألم ترَ كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل الذين كانوا يتهيّأون لاكتساح مكّة؟ أرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل فجعلهم كعصفٍ مأكول. اليوم، إنّ أصحاب الفيل هم تلك الدول التي نصّبت نفسها بنفسها قوى عظمى، وتتجرّأ على التطاول على الإسلام، تلك الدول التي سنقضي عليها بإذن الله. ذلك أنّ اليوم نحن الطير الأبابيل. ونحن نحلّق أعلى من طائرات تلك

الدول المسيّرة، ونضرب أبعد من صواريخها، ونراقب بفاعلية أكبر من أقمارها الاصطناعية...» تردّد صدى آلاف التكبيرات في صدغي، كأنّ بركانًا ثار في داخلي. وضعت يدي في جيب سترتي، فكّرت بإدريس وبأختي التوأم وبأمّي. تشهّدتُ في صميم قلبي وضغطت الزرّ المتّصل بحزامي الناسف...

لا شيء. مرّت ثوانٍ قبل أن أستوعب أنّ شحنة المتفجرات الملتفّة حول خصري لم تكن تستجيب. ضغطت الزرّ من جديد. ضغطت مرّةً ثالثة. لم أنفجر قط. كان الناس قد هدأوا قليلًا داخل القطار. كانت البلبلة ناتجة من نشّالٍ يحاول السرقة. كان يحتجّ قائلًا: «لم أقصد ذلك. الذنب ليس ذنبي إذا كنّا متراصّين كأنّنا في علبة سردين.» استمررت بضغط الزرّ في حين انتابني شعور بالدوار. وبدأت تشنّجات تمزّق ربلتيّ. وامتلأ فمي بإفرازات كريهة. فلتت زمام الأمور من سيطرتي؛ عبثًا كان إبهامي ينسلخ من شدّة ضغط الزرّ، فالحزام الناسف بقي ساكنًا.

عندما عدت إلى رشدي، وجدت نفسي على رصيفٍ، وسط حشود محمومة متدافعة كانت تنقلني إلى أرصفةٍ أخرى. لم أستطع إيجاد المخرج. فما كنت أنزل من قافلة قطارٍ حتى أجد نفسي في قافلة أخرى. كنت تائهًا تمامًا. أجهل كيف وصلت إلى الشارع في نهاية المطاف. أعادني الهواء الطلق إلى أرض الواقع، وجمّد قطرات العرق على جسدي، إلّا أنّني لم أكن أعلم ما إذا كنتُ أرتجف من الخوف أم من البرد، من رأسي وحتى أخمص قدميّ.

كان المارّة يتفرّقون بسرعة حولي. وما كنّا نسمع إلّا دويّ صفّارات الإنذار التي لم تنفكّ يونّس بعضها بعضًا في ظلام الليل.

وضعتُ رأسي بين يديّ محاولًا إعادة ترتيب أفكاري. لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا جالس على المقعد حيث كنت.

– لا تبقَ هنا سيدي. عُد إلى منزلك من فضلك، قال لي أحد عناصر القوى الأمنية.

– ما الذي يحصل؟ سألته شابّة وهي تترجّل عن دراجتها. لماذا كلّ

سيّارات الإسعاف تلك؟ كادت مركبة الشرطة تصدمني.

– لو سمحت، لا تبق في الخارج. عُد إلى منزلك، أصرّ الشرطي.

– وقعت هجمات في ساحة الجمهورية، قال أحد المارّة بصوت مرتجف.

وقفت وغادرت الميدان.

إلى أين أذهب يا تُرى؟ لقد كنت أجهل تمامًا أين أنا وما يجب أن أفعل.

كان يُفترض بي أن أكون ميتًا الآن، ردّدت في نفسي.

قرّرت الاتّصال بعلي كي يأتي لاصطحابي. وجدت هاتفًا عموميًّا، لكنّني لم أكن أملك فلسًا. توجّهت إلى امرأة بالقول: «لا شكّ في أنّ أمّي فقدت صوابها من شدّة القلق بسبب تلك الهجمات. من الضروري أن أطمئنها لكنّني لا أملك نقودًا.» فسارعت المرأة إلى فتح حقيبتها وأعطتني نقودًا: «هيا اتّصل بها بسرعة. بناتي أيضًا لا يزلن خارج المنزل حتى هذه الساعة. يا إلهي! عسى ألّا يصيبهنّ مكروه.» انتظرت أن تبتعد المرأة كي أتّصل بعلي، الذي استغرق دهرًا قبل أن يرفع السمّاعة.

– علي، وقعت مشكلة.

– عفوًا، الرقم المطلوب غير صحيح.

لكنّ الصوت كان فعلًا صوت علي.

عند محاولة الاتّصال الثانية، ردّ المجيب الآلي.

عدت إلى الميدان كي أفكّر. كان تفكيري مشوّشًا. عاودت المشي، واضعًا إبهامي لاشعوريّا على الزرّ المخبّأ في جيب سترتي. ظهرت قافلة من مركبات الشرطة، تواكبها سيّارات تطلق صفّارات الإنذار، من ممرّ واتّجهت مباشرةً إلى شارع واسع، لربّما طريق عرضي أو دائري. كانت بعض الحانات مفتوحة، من دون أن تعجّ بالروّاد كما في العادة. عاودت المرور في الميدان الذي كنت فيه قبل قليل، فاستدركت أنّني أدور حول نفسي. في آخر الجادّة، وجدت المجمّع ذاته الذي غادرته توًّا، وقد كُتب على أعلى مدخله «قصر المؤتمرات». وكانت خريطة لمدينة باريس معروضة على لوحة مضاءة. حاولت تحديد مكاني، لكنّني زدت الطين بلّة.

عدت إلى مقصورة الهاتف العمومي.

لم يجب علي.
«حثالة، حثالة، حثالة...»
طلبتُ رقم ريان، أحد أصدقاء الطفولة.
– يجب أن تأتي لاصطحابي، قلت له.
– أعتذر، أنا لست في بروكسل.
– أنا بحاجة إليك ريان.
– قلت لك أنني لست في بروكسل.
– الأمر طارئ.
– اطلب سيّارة أجرة. أنا في كامبريه.
– أين تقع بالضبط؟
– في فرنسا. أنت تعلم جيّدًا أنّني لو كنت في الجوار، لوجدتني الآن أمام باب منزلك. لكنّ ذلك مستحيل الآن. هل الأمر خطير؟
– أنا في باريس.
ساد صمت في الطرف الآخر من الخطّ.
– وما الذي تفعله في باريس؟ تفيد الأنباء في التلفاز بوقوع أعمال قتل في عدد من الأحياء.
– تسود حال من الفوضى العارمة، ولا أدري إلى أين أذهب. لا أملك فلسًا واحدًا وأنا في الشارع.
– هل أُصبتَ بجروح؟
– لا، أنا تائه، ويجب أن تأتي لاصطحابي.
– ألا توجد قطارات تعيدك إلى المنزل؟
– قلت لك أنّني لا أملك فلسًا واحدًا. هل ستأتي لاصطحابي أم لا؟
تنحنح ريان عبر الهاتف.
– أين أنت بالضبط؟
– ليس لديّ أدنى فكرة.
– وكيف آتي لاصطحابك إن كنت تجهل مكان وجودك؟ باريس ليست بلدة ذات حيّيْن وباحة. أعطني معلمًا أهتدي به في الأقلّ.

– أكرّر لك أنّني لا أعلم أين أنا.
– أعطني اسم الشارع الأقرب إليك فحسب.
– ثمّة مجمّع كبير عند مخرج المترو. قصر المؤتمرات. في الأسفل، ثمّة فندق يحمل لافتة معلّقة في الأعلى يستحيل ألّا تراها. إنّه فندق حياة ريجنسي. أما محطّة المترو، فهي بورت مايو.
– تمهّل. دعني أدوّن هذه المعلومات. سوف أبحث عن المكان في شبكة الإنترنت وأعاود الاتّصال بك.
– لا، لا، لا، إيّاك أن تقفل. أتّصل بك من هاتف عمومي وما عدت أملك فلسًا.
– نلتقي أمام الفندق إذًا.
– متى ستصل؟
– مسافة الطريق. لكنّني لا أسكن في الجوار يا خليل.
– الجميع على أعصابه هنا. ولا أرغب في افتعال مشكلة مع حرّاس الفندق.
– اذهب إلى مكان آمن ولا تبتعد كثيرًا. سأعاود الاتّصال بك حالما أصل إلى المنطقة.
– ليس لديّ هاتف.
– وكيف تريدني أن أتّصل بك عندما أصل؟
– هناك ميدان عند الجادّة الكبرى... لا ليس الميدان. سوف أترقّبك في محطّة انتظار الباصات قبالة فندق حياة ريجنسي. وسأومئ لك عندما أتعرّف إلى سيّارتك. أنر ضوء سقف السيّارة عندما تصل إلى أمام مدخل الفندق.
– ولِمَ لا أشغّل الراديو أيضًا؟ تأفّف مجيبًا. يا إلهي، ما الذي أتى بك إلى باريس؟
– أتيت لزيارة خالتي. أنا...
كان قد أقفل الخطّ.
وجدني ريان قرابة الساعة الثالثة فجرًا، متجمّدًا من البرد في محطّة

انتظار الباصات. كان يرتدي بزّةً وربطة عنق. لعلّه كان يحتفل بمناسبة ما في كامبريه. جلستُ في المقعد الأمامي بالقرب منه، وما لبث أن تمعّن في نظام الـ«جي بي إس» الخاصّ به، قبل أن يلتفّ حول قصر المؤتمرات ويسلك أحد الممرّات.

– يئست من انتظارك.

– الطريق الدائري مقطوع. منذ متى وأنت في باريس؟

– وصلت بعد ظهر اليوم كي أمضي بعض الوقت عند خالتي وأبحث عن عمل. لقد طردني والدي من المنزل. فكّرت في المجيء إلى خالتي، ولكن يبدو أنّها انتقلت إلى مسكن آخر، ولا أملك سوى عنوانها القديم.

كبرنا سويةً أنا وريان. كان على علمٍ بكلّ مشاكلي العائلية بأدقّ تفاصيلها، ويعرف أنّ العلاقة متوتّرة بيني وبين أبي.

– لقد اخترت اليوم المناسب حقّا.

– وكيف لي أن أحزر…

– ماذا حدث؟

– وقعت هجمات.

– أتكلّم عن وضعك. كيف أصبحت بلا نقود؟

– نشل أحدهم محفظتي داخل المترو. كانت كلّ أوراقي ونقودي داخلها.

– لا شكّ في أنّ المصائب وقعت دفعةً واحدة فوق رأسك. قل لي كيف ستبرّر عدم حيازتك أوراقًا ثبوتية في حال توقّفنا عند إحدى نقاط التفتيش؟

– هل طلب منك أحدٌ أوراقك؟

– لا، لكنّ المدينة بأسرها تحت المراقبة.

كنّا قد انطلقنا منذ ساعتين تقريبًا حين انعطف ريان فجأةً عن الطريق السريع.

– ما الذي تفعله؟

– ينبغي أن آخذ بعض الأغراض من كامبريه.

– تأخذها غدًا. أريد العودة إلى بلجيكا.
– اهدأ يا خليل. كلّ الطرق تؤدّي إلى بروكسل.
– أنا ذاهب إلى مونس.
– إنّها في طريقنا. كامبريه، ثمّ فالنسيان ومن بعدها نصل إلى مونس.
كان الليل قد بدأ ينجلي. وباستثناء بعض شاحنات البضائع، كانت حركة المرور خجولةً. كنّا، من وقت إلى آخر، نلتقي بسيّارة، قبل أن يغرق المشهد في الضباب. كان ريان يقود بهدوء. ولم يراوده أدنى شكّ في أمري. أعتقد أنّه صدّق بكلّ سهولة الأحداث التي رويتها له.
تركني عند مدخل مونس.
ما كنت أريده أن يعلم إلى أين أو عند من كنت ذاهبًا.
كانت أختي الكبرى يزّة تكمل فطورها عندما طرقت بابها. فتحت لي، ومن دون أن تتوجّه إليّ بكلمة، عادت إلى المطبخ كي تكمل طعامها. كانت قد اعتادت مجيئي إلى منزلها على حين غرّة، لا سيّما عندما أكون بحاجة إلى المال أو عندما تتدهور علاقتي بوالدي. كانت تستقبلني بصمت ووجه عابس، وتتجاهل وجودي بالكامل. كانت يزّة تكره أن يأتي أحدٌ لزيارتها.
فيما كانت تنظّف الطاولة، تائهة النظر، تنبّهتُ إلى أنّني أتضوّر جوعًا. فقليتُ البيضات الثلاث المتبقّية في البرّاد.
– من أين أنت آتٍ؟ سألتني وقد أزعجتها شراهتي.
– من عند صديق لي في المنطقة دعاني إلى حفل زفافه.
– ألم يُقدَّم لكم الطعام هناك؟
– كان عدد المدعوّين كبيرًا.
مسحت أختي يديْها بفوطة. توقّف الاستجواب عند هذا الحدّ. بدّلت ملابسها وارتدت نقابها وتهيّأت للخروج.
– إلى أين تذهبين؟
– لديّ بعض العمل في المشغل.
– اليوم السبت.

– إذًا؟

– ألا ترتاحين بتاتًا؟

– سوف أرتاح حين تتركونني بسلام. ألا يحقّ لي حتّى المكوث بهدوء في بيتي؟ لا بدّ أن يطرأ دائمًا ما ليس في الحسبان ويعكّر صفوي.

كانت تقصدني أنا بعبارة «ما ليس في الحسبان».

– أتنوي البقاء طويلًا في مونس؟

– ليس تمامًا.

– المفتاح الاحتياطي في درج الدولاب آخر الممرّ. اتركه في صندوق البريد عندما تنوي المغادرة.

– مفهوم.

أخذَت نفسًا عميقًا وصفقت الباب خلفها.

كانت أختي تتعافى من انهيار عصبي حادّ. وإن كانت تعطي انطباعًا بأنّها تخلّصت منه، إلّا أنّ آثار ذلك الانهيار بقيت لابدة وراء المظاهر الخادعة. كانت أختي في الأربعين من عمرها لا تزال عزباء وعذراء على الأرجح، يائسة من الحياة. في الماضي، لم تكن عائلتي تزور المغرب إلّا لتبحث عن زوجٍ لها. إلّا أنّ في مجتمعنا، وحدهم الرجال يملكون الحقّ في الاختيار وفرض الشروط. عمومًا، لا يرفض أيّ رجل الزواج بفتاة تعيش في بروكسل، أو في أيّ بلد آخر من بلاد الحليب والعسل، لا سيّما عندما تملك فرصة لمّ شمل الأسرة في الغربة. لكن في بلادنا، عندما تكون الفتاة بدينة، وقبيحة بعض الشيء، وعوراء، فهي لا تملك فرصًا كثيرة لدخول القفص الذهبي. لم تكن أختي تستوفي شروط الاختيار. حتى أقرباؤنا، الذين كانوا يموتون جوعًا وتفوح منهم رائحة الزبل، لم يرغبوا فيها. ولربّما لهذا السبب فقدت صوابها بعض الشيء في نهاية المطاف. كانت أمّي مقتنعة بأنّ شخصًا ما ألقى تعويذةً على ابنتها. وقد اصطحبت يزّة التي كانت في السابعة والعشرين من عمرها حينذاك لرؤية مرابط شهير في الصحراء، بالقرب من فكيك. وأجهل أيّ إكسير كريه أعطاه المشعوذ لأختي، إذ ما هي إلّا أيّام قليلة بعد عودتها إلى الناظور، حتّى بدأت

الكوابيس تراود يزّة. كانت تستيقظ ليلًا صارخةً ملتويةً على الأرض، وعيناها مقلوبتان. وقد أعلن إمام الدوار، الذي استُدعِيَ للنجدة، أنّ أختي تعرّضت لمسّ الشيطان. أخضعها لجلسات مروّعة لطرد الأرواح الشرّيرة منها، إنّما عبثًا، إذ لم تساهم سوى في زيادة حالتها سوءًا. كنت في العاشرة من عمري حينذاك. وما شهدته خلال تلك الجلسات صدمني فترة طويلة. وقد اضطُرّ أبي إلى إنهاء عطلتنا كي نعود في حالة طوارئ إلى بروكسل حيث أُدخلت أختي إلى مركز متخصّص بالأمراض النفسيّة. وأشار تشخيص الطبيب المعالج أنّها تعاني من عصاب هستيري ناتج من أزمة عاطفية حادّة. وصف لها علاجًا بالصدمات الكهربائية، عادت من بعده يزّة إلى حياتها الطبيعية – تقريبًا، إذ كانت تغرق في اكتئاب حادّ من وقت إلى آخر. عاودت العمل، أوّلًا في مصبغة، ومن ثمّ لدى خيّاط مغربي. عندما تزوّجت في ما بعد أختي التوأم زهرة، التي تصغرها بسبعة عشر عامًا، عادت يزّة وانتكست من جديد. ومن المعروف في أعراف جبال الريف وتقاليدها، أنّ الأكبر سنًّا بين الشقيقات هي من تنتقل أوّلًا من منزل الوالدين للعيش في القفص الزوجي. لم تتقبّل يزّة هذا الضرب الجديد من ضروب القدر، وكان لا بدّ من إدخالها إلى مصحّة. وبعد أسابيع من العلاج المكثّف والمتابعة النفسية الدقيقة، عادت إلى المنزل غريبةً بكلّ ما للكلمة من معنى. والحال أنّها راحت، بسبب عصبيّتها المفرطة واعتبار أيّ مزحة إهانة لشخصها وعدم اتّفاقها مع أحد، تلوم أقاربها على مصائبها، واختارت إذًا الانتقال للعيش في مونس كي تقطع علاقتها بالجميع.

بعد مغادرتها، غفوت فجأةً على الكنبة.

أيقظني رنين هاتف. كان يأتي من غرفة نوم يزّة.

في الخارج، كانت الشمس تغيب. استدركت فجأةً أنّني حيٌّ أُرزَق، فانتابني شعور غريب.

تنبّهت إلى أنّ الحزام الناسف ما زال حول خصري، كأنّه جزء لا يتجزّأ منّي. كنت قد نسيت أمره تمامًا. أضأت الحمّام، وخلعت ثيابي، وألقيت

سترة الموت على الأرض كي أعرف سبب عدم استجابة الشحنة على الرغم من محاولاتي اللانهائية لتفجيرها، فلاحظت على الفور أنّ السلك الآتي من الزرّ لم يكن موصولًا بالمكان المناسب. كان خبير المتفجّرات قد اكتفى بلفّه حول أحد أصابع بيروكسيد الأسيتون. تفحّصت الحزام عن كثب أكثر، فعثرت على هاتف جوّالٍ صغيرٍ مخبّأ وراء نظام صمّام التفجير. لم أصدّق ما رأته عيناي. ماذا كان يفعل هذا الهاتف في سترتي، ولمَ كان، على عكس الزرّ، موصولًا بشكل مباشر بالشحنة؟ لم يكن هذا السيناريو المتّفق عليه. بل كان ينبغي عليّ أنا أن أفجّر الحزام الناسف، أنا وحدي. ماذا كان يفعل هذا الهاتف المشؤوم إذًا في حزامي الناسف؟ هل أراد أحدهم تفجيري عن بعد؟...

أجّج غضبٌ فظيعٌ الصداع الذي أصابني. أمسكت رأسي بيديّ تفاديًا لتشقّقه إلى ألف قطعة وقطعة.

عاودت ضبط أعصابي، وامتلأ فمي من جديد بإفرازات كريهة. بعد أن هدّأت روعي، فصلت الأسلاك الكهربائية التي كانت توصل الجوّال بالشحنة، وسحبت صمّام التفجير بتأنٍّ حرصًا على ألّا يسخن بين أصابعي وينفجر في يدي. وبعد أن فكّكت العبوّة، لففت الحزام بغطاء وخبّأت كلّ القطع في المخزن، في قاع صندوق مليء بالنعال البالية والأغراض العتيقة.

رنّ الهاتف من جديد في غرفة يزّة.

لم أرفع السمّاعة.

كنت أراقب المطر المنهمر على الشارع من النافذة، بحثًا عن وجود مشتبه به. كانت هناك محالّ مفتوحة، ورأيت ثلاثة رجال يدردشون تحت خيمة محلّ منها، في حين كان عامل توصيل بضائع يحمّل صناديق في شاحنته الصغيرة.

التهم الجوع أمعائي. وباستثناء بعض فتات الخبز المحمّص المنسيّ في أحد الأكياس البلاستيكية المتروكة للرمي، وقطعة صغيرة من الزبدة وبقايا بصلة طرية في البرّاد، لم أجد ما أتناوله.

أكلت الخبز المحمّص حتى آخر كسرة، قبل أن أتّصل بأختي كي أطلب منها أن تشتري لنا طعامًا للعشاء.

– ألم تغادر؟

– تعرّض صديقي الذي كان من المفترض أن يمرّ لاصطحابي لحادث سير.

– ثمّة باصات وقطارات تصل إلى بروكسل.

– لا أملك فلسًا.

– صدقًا؟

– فقدت محفظتي في قاعة الاحتفالات. أحطتُ مكتب الاستقبال علمًا. ولم يجدها.

سمعت يزّة تكشّر متذمّرةً من الاستياء.

– ستجد بعض النقود في درج الطاولة المجاورة لسريري. خذْ حاجتك ليس إلّا، أفهمت؟

– لا يمكنني الخروج. لديّ زكام.

أقفلت الخطّ في وجهي.

اغتسلت. لم يطفئ الماء اللهيب المشتعل في رأسي.

لففتُ نفسي ببرنسٍ قديمٍ، وبقيت مستلقيًا على الأريكة، حاملًا الهاتف المشكوك في أمره بين يديّ. حاولت تشغيله، فلم أفلح. فاستنتجت أنّ البطّارية قد تكون فارغة، ما يبرّر ربّما لجسدي المستنكر سبب بقائي في هذا العالم.

4

– لمَ شغّلتَ الغسّالة؟ سألتني أختي من باب الملامة عند دخولها المنزل. كان بإمكانك أن تنتظر عودتي. لديّ بعض الثياب للغسيل أنا أيضًا. الكهرباء مكلفة.

وضعت يزّة كيس البقالة على طاولة المطبخ، وتوجّهت إلى غرفتها لتوضيب حقيبتها.

– أذكّرك بأنّك ترتدي برنسي، توجّهت إليّ بالقول.

– ليس لديّ ما أرتديه.

– هذا ليس سببًا.

رأيتها تكدّس كيفما اتّفق داخل حقيبتها ثيابًا داخليةً، وفستانًا، وجوارب، وقميصًا، ومنديلًا أسود اللون.

– إلى أين تذهبين؟

– إلى بروكسل.

– هل طرأ أمرٌ ما في البيت؟

– طلبت منّي والدتنا أن أصطحبها إلى باريس.

– إلى باريس؟

– فقدت خالتنا نجاة إحدى ابنتيها في الهجمات التي ضربت فرنسا.

– ماذا تقصدين؟

– لا تفاصيل لديّ. أعتقد أنّ ابنة خالتنا لقيت حتفها فيما كانت تحضّر لحفلة غنائية. كانت ماما تبكي وتشهق في الهاتف كأنّها هي التي

فقدت ابنتها. لطالما كانت تمقت أختها، لكنّها الآن تلعب دور الحزينة والتعيسة، فاضطُررت إلى إقفال الخطّ في وجهها.

– أيّهما التي لقيت مصرعها؟

– ما الفرق؟ أكانت هذه أو تلك، تبقى المصيبة هي هي، أليس كذلك؟

كانت تتحدّث بنبرة متقطّعة، لا عاطفة فيها، كمن يتلو نصًّا لا يحبّه.

بعد أن أقفلت حقيبتها، دفعتني وهي تخرج من الغرفة، والانزعاج واضحٌ على ملامحها لأنّها مرغمة على تركي في شقّتها.

– هل ستستقلّين حافلةً؟

– سيصطحبني مديري.

– ومتى ستعودين؟

– كُفّ عن مضايقتي بأسئلتك، إنّها توتّرني.

– لا تخبري أحدًا بوجودي في منزلك.

– رجاءً لا تتصرّف كأنّ البيت بيتك. فلست أنت من يدفع الفواتير. لا أريد أن أجدك هنا عند عودتي، مفهوم؟

– كنت أعتزم المغادرة أصلًا، صباح يوم غد على أبعد تقدير. لديّ تدريب مهني في مدينة أنتويرب ولا أنوي أن أفوّته.

خرجت صافقةً الباب خلفها.

رأيتها من النافذة تركب سيّارةً قديمة، ما لبثت أن انطلقت على وقع طقطقة العادم.

لم آكل شيئًا ذلك المساء. حلّ انزعاج كبير مكان شعوري بالجوع. بقيت جالسًا على الكنبة أتأمّل السقف، محبوسًا في الشقّة البائسة ذات الغرفتين. ولو كنت في قبر، لأحسست بضيق أقلّ من الضيق الذي كنت أشعر به هنا. لم تكن أختي تملك تلفازًا أو مذياعًا. ولربّما كان ذلك أفضل. لم أكن بحاجة إلى سماع أيّ نبأ. لم أكن أريد التفكير في خالتي، ولا في أيّ ميت على وجه الأرض. إنّ الحرب أشبه بلعبة حظّ لا تخلو من الأضرار الجانبية، والرصاصات الطائشة، والحسابات الخاطئة، وخسائر

النيران الصديقة. وفي هذا النوع من المواجهة المتطرّفة، تُعتبر الحياة والموت على حدّ سواء قدرًا محتومًا ليس إلّا – أي أنّهما ينبعان من مشيئة الله وحده. لا مجال لتأنيب الضمير، والتشكيك محظورٌ. فالموت في سبيل قناعاتنا أو الموت لمجرّد الوجود في المكان الخطأ في الوقت الخطأ لا يغيّران واقع الموت بشيء. لقيت ابنة خالتي حتفها وهي تحضّر لإحدى الحفلات، وبقيتُ أنا في قيد الحياة، في الوقت الذي كان ينبغي أن أموت. إنّها ترتيبات القدر، ولا أحد يفلت من قدره.

أمضيت ثلاثة أيّامٍ محبوسًا داخل شقّة أختي، أعدّ الدقائق وأسارع إلى النافذة كلّما توقّفت سيّارةٌ فجأةً في الشارع. كنت منعزلًا انعزالًا تامًّا عن العالم، لا يؤنس وحدتي سوى شبحٍ والأسئلة ذاتها. ما الذي كان يظنّه بي الإخوان؟ كنت أتخيّل السائق علي وهو يصرخ: «سبق أن أنذرتكم بأنّه جبان. لقد احتاج إلى أن يوصله إدريس إلى محطّة قطار الضواحي السريع. لا شكّ في أنّه هرب ما إن أدار له إدريس ظهره.»

أفضّل أيّ إهانة على صفة الفارّ من الواجب.

ولطرد الأفكار السيّئة من رأسي، غسلت الأواني المكدّسة في المجلى، إضافة إلى كومة من الملابس المنسية في سبَتٍ، كما رتّبت الفوضى العارمة التي كانت أختي تنفر من توضيبها. وجدت مخبأً أفضل لحزامي الناسف في المخزن، وعثرت أيضًا على أغراض لي كنت قد نسيتها عندها خلال زياراتي المتفرّقة مونس. وفي علبة أحذية، اكتشف، وسط بطاقات بريدية مصفرّة، إسوارة ذهب مكسورة، وساعةً ميناؤها مكسور، وقطعًا نقدية تعود إلى ما قبل بدء التعامل باليورو، وحزمة رسائل قديمة عليها طوابع تحمل صورة الملك حسن الثاني لم تُفتَح قطّ. استدركت أنّني كنت أنتهك خصوصية أختي؛ وبدلًا من تمالك نفسي، رحت أستمتع بإرضاء فضولي.

في اليوم الرابع، وبعد أن أنهكني التعب، اتّصلت بالمنزل، راجيًا ألّا يجيب والدي. ردّت أختي التوأم زهرة.

– كيف حال العائلة؟

– ماما ويزّة في باريس. لم يرافقهما بابا. إنّه مستلقٍ في غرفة نومه. هل علمت بما حصل لأنيسة؟

– نعم.

– إنّه لأمر فظيع.

– إنّها الحياة... ألم يسأل أحدٌ عنّي؟

– لا. أين أنت؟

– لديّ تدريب في أنتويرب. هل أنت متأكّدة من أنّ أحدًا لم يحاول الاتّصال بي؟

– لم نتلقّ أيّ زيارة. لماذا؟ هل كنت تنتظر أحدًا؟

– طلبت من صديقٍ أن يعرّج على المنزل كي يجلب لي بعض الملابس. من المحتمل أن تطول فترة التدريب، ولن تكفيني الملابس التي في حوزتي.

– ماذا أضع في حقيبتك إذا أتى صديقك؟

– انسي الأمر. سأعود قريبًا.

خفّ شعوري بالتوتّر بعدما أقفلت الخطّ.

لم تسعدْ أختي الكبيرة عندما اكتشفت أنّني ما زلتُ في شقّتها. مشمئزّةً، خلعت نقابها في الردهة، وهرعت إلى غرفتها تفرغ حقيبتها.

لم أذكرْ أنّني رأيتها تسجد على سجّادة صلاة أو تعبر عتبة مسجدٍ مُذ أُصيبت بأوّل انهيار عصبي. أعتقد أنّها كانت ترتدي النقاب حدادًا. لقد مات جزءٌ منها في الداخل، وكانت مصرّة على تذكير نفسها بما فقدته كلّما أرادت الخروج إلى الهواء الطلق.

كانت يزّة، التي تخوض حربًا ضدّ نفسها، تعتبر أقاربها وجيرانها والعالم بأسره حلفاء مزيّفين، ولم تكن طباعها القذرة سوى ملاذ تلجأ إليه وطريقتها الخاصّة للوم نفسها على الاستمرار في العيش حيث لم تعد تثق في أحدٍ.

– ألغي تدريبي، قلت لها.

– هل تنوي انتظار غيره في شقّتي؟

– لا أملك فلسًا وليس لديّ معارف كثر هنا…
رمقتني بنظرات غضب.
– ظننت أنّ أحد أصدقائك في المنطقة تزوّج.
– ذهب في شهر عسل.
انتزعت من محفظتها أوراقًا نقدية مجعّدة وأعطتني إيّاها كأنّها ترميها في وجهي.
– يمرّ باصٌ متوجّهٌ إلى بروكسل كلّ…
– أتطردينني؟
– فسّر الأمر كما تريد. أنا في شقّتي وأحتاج إلى الاختلاء بنفسي.
تظاهرتُ بالتردّد ثمّ وضعت النقود في جيبي.
– كيف جرت الأمور في باريس؟
– كيف جرت في رأيك؟
– ماذا عن أمّنا؟
– سوف تتخطّى الأمر.
ومن ثمّ طلبت منّي الخروج من غرفتها كي تبدّل ملابسها.
نزلت إلى الشارع كما يقتحم محاربٌ أرض العدوّ. عازمٌ على القتال. حتى أنّني شعرت بالخجل بعض الشيء لأنّني اختبأت في منزل أختي. لم أكن آبه بتاتًا بأن يوقفني أحد. فما الذي كنت أخشاه، أنا الميت مع وقف التنفيذ؟ أن أُرمَى وراء القضبان؟ فالسجون كانت تعجّ بإخواني.
شيءٌ واحدٌ فقط كان يقضّ مضجعي: كيف أقنع الياس بأنّ مسؤولية فشل مهمّتي تقع على عاتق خبير المتفجّرات الذي استعجل في إنهاء عمله فلم يتقنه. كنت أحمل الدليل القاطع على ذلك: الهاتف الذي عثرت عليه في حزامي الناسف. حينذاك، سيستدرك الياس بنفسه أنّني لم أكن جبانًا.
وعندما سيتبدّد سوء التفاهم، سأطالب بتفسير ما حصل. أنا وحدي أقرّر ساعة مماتي. لمَ أرادوا تفجيري عن بعد؟ كان الإمام صادق يؤكّد أنّ الانتحاريين ينالون بركة الرحمن أكثر من سائر الشهداء. فالموت لأجل

القضية خلال معركة يُعدّ امتيازًا، لكنّ خيار الانتحاري بالتضحية بنفسه يُعدّ أرقى أنواع التعبير عن الإيمان، ويعادل وحده ألف معركة. كان الفردوس قدري، الفردوس الذي لا يتّسع لغير الأنبياء والأولياء الصالحين.

ركبتُ الحافلة متوجّهًا إلى بروكسل. كان فيها اثنا عشر راكبًا تقريبًا، من بينهم زوجان وبناتهما الشقراوات الثلاث اللواتي كنّ يرتدين ملابس متشابهة، وعجوزٌ نحيلٌ جدًّا ببياض الثلج، وسيّدة مكتنزة جالسة في الأمام، إضافة إلى مجموعة رجالٍ صامتين وشابّ مغاربي يوحي مظهره بالاسترخاء واللامبالاة، إذ اعتمر كاسكيت إلى الخلف ووضع سمّاعات الموسيقى في أذنيْه. «إنّه جيل المظاهر، والأحذية الرياضية، والأقراط. جيلٌ لا جدوى منه تمامًا مثل أشواك العلّيق التي تيبس تحت أشعّة الشمس»، كما كان يصفه الياس بسخطٍ.

خلال الرحلة، بقي الشابّ المغاربي مستلقيًا في مقعده، وكان يهزّ رأسه على أنغام الموسيقى غير مبالٍ بالمنظر من كلا جانبي الحافلة. كانت فظاظته، وملابس المتسكّع التي يرتديها، والكاسكيت السخيفة التي يعتمرها، وقصّة شعره التافهة، كلّها تصيبني بالغثيان.

كانت ارتدادات موجة الصدمة جرّاء هجمات باريس تضرب بلجيكا في العمق.

بدت الأجواء خانقة في بروكسل، وشوّهت الحيرة سمات بعض الوجوه، في حين شنّع الحذر هيئة وجوه أخرى. وفي محطّة الحافلات، نشرت الجهات الأمنية أجهزتها المتشدّدة. كانت الحقائب تخضع للتفتيش، والأوراق الثبوتية تخضع للتدقيق على أساس ملامح حاملها.

استعجلت في مغادرة المكان.

اتّصلتُ بريان كي يستضيفني في منزله يومًا أو اثنين حتّى «أصفّي حساباتي مع أبي».

– لا مشكلة خليل. سوف أنتظرك في منزلي حوالى الساعة السادسة مساءً.

– ألا يمكنك استقبالي الآن؟

– أنا في كامبريه. لدّي الكثير لأنجزه هنا.

كانت الساعة الثانية عشرة إلّا ربعًا ظهرًا، ولم أكن أعرف ما أفعله في يومي. بقي في حوزتي عشرة يوروات وستّون سنتًا من المبلغ الذي أعطتني إيّاه أختي. جلست في أحد مطاعم الوجبات السريعة، وطلبت بيتزا نباتية، ومشروبًا غازيًّا وفنجان قهوة مرّة. وقرابة الساعة الواحدة ظهرًا، توجّهت سيرًا على الأقدام إلى الحيّ الذي يقطنه ريان. عندما مررت أمام أحد الجوامع، تذكّرت أنّني لم أصلِّ منذ عصر يوم الجمعة 13 نوفمبر. قرّرت متابعة سيري، خشية وجود عناصر مخابرات في الجوار.

كان محلٌّ لبيع الهواتف مفتوحًا. أعطيت الجوّال المشتبه بأمره إلى المصلّح، الذي حاول تشغيله بلا جدوى. قلّبه مرّةً ومرّتيْن بين يديْه قبل أن يبدو على وجهه تعبيرٌ فيه من الريبة ما فيه:

– إنّه موديل قديم.

– له قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة إليّ.

– ليس هذا ما سيصلحه.

– أعتقد أنّ البطّارية فارغة.

– لا أظنّ أنّ لديّ شاحنًا لهذا النوع من الأجهزة.

– لو سمحت، حدّد لي مشكلته. أهداني إيّاه والدي قبل وفاته.

طلب منّي المصلّح أن أنتظر، ثمّ اختفى وراء ستار الجزء الخلفي من متجره. عاد بعد خمس دقائق.

– آسف يا صاح. ليست مشكلة بطّارية. جهازك محروق.

– كيف؟

– محروق بكلّ بساطة. يستحيل تصليحه. بأيّ لغةٍ ينبغي أن أقولها لك؟

شكرته وعدت أهيم في الشوارع.

كنت مشمئزًّا جدًّا ومنهكًا في آنٍ، لدرجة أنّني غفوت في حديقة عامّة، بالقرب من ثلاثة سكيرين بثياب مقطّعة ومن متشرّد يافع يشحذ لإطعام كلبه.

وجدني ريان أمام مدخل المبنى الذي يسكنه في شارع بوغار. اصطحبني إلى شقّته المؤلّفة من غرفتيْن، حيث كان يعيش وحده. كانت الشقّة نظيفة ومرتّبة بذوق. كان الصالون واسعًا نسبيًّا، فيه كنبة ابتاعها من «أيكيا»، ومنضدة وتلفاز ذو شاشة مسطّحة وضعه ريان على طاولة من زجاج. وكانت صورة بانورامية كبيرة لمدينة نيويورك في ثلاثينيّات القرن الماضي تحتلّ نصف أحد الجدران، وفي مقابلها مكتبة صغيرة مليئة بالكُتب. كانت الغرفة المطلّة على الشرفة نيّرة والحمام بحجم مقبول.

– ما زلت منظّمًا كما عهدتك، توجّهت إلى ريان بالقول.

– نستخدم أنا وأمّي مدبّرة المنزل ذاتها.

– يا لك من محظوظ.

– ليست مسألة حظّ. أعمل أحيانًا ساعات إضافية لدى بعض الأشخاص كي أحسّن مستوى معيشتي.

دعاني إلى الجلوس على الكنبة.

كانت صورة فتاة مبتسمة تتوّج المنضدة المصنوعة من خشب الماهوغني. كانت الفتاة جميلة، شقراء ومشرقة، يعانق لون البحر الأزرق جفونها.

– ماري عاملة الهاتف حيث أعمل. سنعلن خطوبتنا في يناير المقبل.

– هل اعتنقت الإسلام؟

– ليست مجبرة.

– كيف هذا ليست مجبرة؟ أنت مسلمٌ أليس كذلك؟

– أنا أحبّها وهي تحبّني، وهذا ما يهمّ.

رمقني بنظرة استغراب وقال:

– لا تبدو بخير. ألم تتخطَّ أحداث باريس؟

– وهل رأيتني أتذمّر؟

– تبدو كمن خرج توًّا من كهف مسكون. في الحقيقة، الأمر ليس سهلًا. ما حدث في باريس صاعق. ما زلت أرتجف حتى الآن. لا بدّ أن تفقد صوابك كي تقضي على الناس بهذه الطريقة.

– لا أريد التكلّم بهذا الموضوع ريان... أريد منك خدمة أخرى.
– أن أصطحبك إلى باريس عند الساعة الثالثة فجرًا؟
– أنا جدّي. أحتاج إلى بعض المال. أضعت هاتفي ونقودي في باريس.
– سأخطب عمّا قريب ولا أملك ما يكفي من المدّخرات...
– لا أبحث عن جوّال متطوّر، فقط أحد تلك الأجهزة الرخيصة التي تتيح لي الاتّصال بأختي التوأم من وقتٍ إلى آخر. أشعر بالقلق على الوالدة. لقد خسرت خالتي واحدة من ابنتيْها في هجمات باريس.
– هل قضت قريبتك في الهجمات؟
– نعم.
– يا إلهي! أنا آسفٌ حقًّا. لا أدري ما أقول. تعازيّ الحارّة. أشعر بمأساتك وأتعاطف معك.
توجّه إلى غرفته وعاد بجوّالٍ قديم.
– إنّه قديمٌ ولكنّه لا يزال يعمل. كلّ ما عليك فعله هو شراء شريحة سِم قابلة للشحن، وهكذا تتّصل بمن شئت.
– لا أملك ما يكفي لشراء شفرة حلاقة أحادية الاستعمال.
زمّ شفتيْه، وعاد إلى غرفته وجلب خمسة أوراق فئة عشرين يورو.
– سأعيدها لك في أقرب وقتٍ ممكن.
– مجرّد وعودٍ أسمعها من زمان، قال لي ضاحكًا. حسنًا، أعتقد أنّك تشعر بالجوع. ما رأيك أن أطلب سندويشتيْ هامبرغر من ماكدونالدز؟ ينبغي أن أسارع إلى زبونٍ لمساعدته على تحسين موقعه في شبكة الإنترنت.
– أنت الآمر هنا.
بعد تناول الطعام، ذهب ريان إلى زبونه في حين توجّهت أنا إلى محلّ لبيع الهواتف. اشتريت شريحةً لهاتفي، إضافة إلى بعض الأسبرين من إحدى الصيدليات. وعندما عدت إلى شقّة ريان، استحممتُ قبل أن أنهار على الكنبة. حملت جهاز التحكّم بالتلفاز، لكنّني لم أجرؤ على تشغيله.

كنت بحاجة إلى هدوء. همٌّ واحد، إنّما ثقيل، كان يقضّ مضجعي: تبرير فشل مهمّتي أمام الأمير.

وُلدنا أنا وريان وإدريس بين شهريْ مارس ويوليو من العام 1992. في المبنى ذاته، في شارع ميلبومين في مولنبيك. ريان في الطابق الثالث، وأنا في الأوّل، وإدريس في الطابق الأرضي. كانت والدة ريان تدير محلًّا لبيع الملابس الجاهزة، في حين كانت والدة إدريس موظّفة صندوق في أحد متاجر السوبرماركت؛ أمّا أمّي فكانت تهتمّ بأطفال الجيران مقابل مبلغ من المال تجنيه آخر كلّ شهر. لم يكن أبي يمانع، بل كان يروق له أن تعيل نفسها بنفسها من دون إشراكه في الأمر. كان يدّعي أنّه فقيرٌ، لكنّه في الحقيقة كان بخيلًا. لم أذكر أنّني رأيته يعطي أيّ شخص فلسًا واحدًا.

تعلّمنا أنا وريان وإدريس أن نقف على أقدامنا تحت سقفٍ واحدٍ، وقد هشّمنا وجوهنا على الأرض ذاتها. ربّتنا أمّي كثلاثة توائم. في الثالثة من عمره، أُدخل ريان حضانة، في حين بقينا أنا وإدريس في البيت. ولاحقًا، جمعت المدرسة شملنا نحن الثلاثة. لم نكن في الصفّ نفسه، لكنّ الملعب كان ملكًا لنا في أوقات الفرصة. في المساء، كنّا نلتقي من جديد في منزل واحدٍ منّا. كان ريان تلميذًا متفوّقًا، الأمر الذي فتح عليه وابلًا من نيران المغفّلين الذين أطلقوا عليه اسم «قنينة الرضاعة» لأنّ أمّه، الجميلة الهيفاء، أعطته بحسب ظنّهم حليبًا مجفّفًا كي لا تتلف ثدييْها. طبعًا، كانت القصّة عاريةً من الصحّة. كانت والدة ريان تتحدّر من أصول بربرية صافية ولم تخرج قطّ عن التقاليد الموروثة. كانت تربّي ابنها الوحيد بكلّ تفانٍ، بعد أن لقي زوجها حتفه في حادث سيرٍ. لم يكن ينقص ريان شيء. في المرّة الأولى التي ركبت فيها درّاجة، كانت درّاجته؛ وفي المرّة الأولى التي لمست فيها مقود لعبة الفيديو، كنت في غرفته. أعترف أنّني كنت أحسده قليلًا. لطالما كان نظيفًا، ومرتّب الشعر، وأنيق الملبس، وأصيل التربية. وفي حين كنّا أنا وإدريس نتلوّى من الضحك وسط شلّة موكا ونحن نستمع إلى البومة العجوز يروي لنا بطولاته

الخطيرة، كان ريان منشغلًا في مراجعة دروسه ولم يذهب إلى فراشه يومًا إلّا بعد أن يري فروضه المتمّمة على نحوٍ كامل إلى أمّه.

لم يسبق لأبي أن ألقى نظرةً إلى دفاتر علاماتي، رغم أنّها كانت منمّقة بنقط كارثية. بل كان يفضّل أن يشرب حتى الثمالة ويخسر أمواله رهانًا في سباق الخيل. أمّا بالنسبة إلى أمّي الأمّية، فكانت عاجزة عن تمييز فاتورة من استدعاء. وفي الحقيقة، لم يكن أحدٌ في البيت يكترث لذلك. كنت أتغيّب عن الدروس بقدر ما يروق لي، من دون أن يتنبّه أحدٌ لذلك.

وفي المرحلة الثانوية، لم تتحسّن الأوضاع بتاتًا. كنّا أنا وإدريس نمضي وقتنا في التهريج من آخر الصفّ في حين كان ريان يحصد التهاني. عندما كان الجميع يثني على نشاط تلميذنا المجتهد، كنّا أنا وإدريس نقدّم بين الحين والآخر أوراقًا بيضاء فارغة لمجرّد إبهار زملائنا في الصفّ. وكان العقاب المدرسي وتحذيرات المدرّس تعزّز غرورنا إذ كنّا نشعر بالفخر حين كانت الأصابع تدلّ علينا.

تابع ريان دراسته في مدرسةٍ ثانويةٍ خاصّة اختارتها أمّه بتأنٍّ. وفي الصفّ الثانوي الأوّل، ترك إدريس المدرسة، وبعد شهرٍ حرقت حقيبتي ودفاتري سعيًا إلى موافاته في مشغل نجارة حيث كان يعمل بشكل غير قانوني.

لم يواجه ريان، العبقري في مجال المعلوماتية، أيّ صعوبة في إيجاد وظيفة في شركة مهمّة لإدارة الأعمال. ومن جهته، برع إدريس في مجال النجارة حيث فقد اثنتيْن من أصابعه. أمّا أنا، فكنت أعتاش من وظائف صغيرة وهواء طلق، غير آبه بالغد كثيرًا.

كان كلّ واحدٍ منّا يقود سفينته بالسبل المتاحة له على متنها، لكنّنا بقينا نحن الثلاثة أفضل الأصدقاء في العالم. كنّا نلتقي كثيرًا، ونذهب لمشاهدة فيلمٍ معًا، ونتّصل ببعضنا بعضًا بالهاتف بانتظام، وإن بدا ريان أكثر انشغالًا منذ أن بدأنا أنا وإدريس الانخراط في مشاريع تخصّ جمعية التضامن الأخوي.

5

في اليوم التالي، قرابة العاشرة صباحًا، توجّهت إلى محلّ دومينيك، الملقّب ببوفا، أحد معارفي القدامى من مولنبيك حيث كنّا نسكن في الحيّ ذاته. كان يملك ورشةً لتصليح الدرّاجات النارية وتأجيرها. عندما كنّا في العاشرة من العمر، كنّا أنا وبوفا ألدّ الأعداء. وفي كلّ مرّة كان يلتقي بي على طريقه، كان يناديني بـ«العربي الحقير» و«ساحر الثعابين» وهو يشير إلى أسفل بطنه. وكان يموت رغبةً ليبرحني ضربًا. أمّا أنا فكنت جبانًا لدرجةٍ تمنعني من مواجهة التحدّي. في يومٍ من الأيّام، في طريق العودة مساءً من حديقة «بارك دي موز» التي اتّخذها موكا مقرًّا له، اعترض بوفا طريقي في زقاق مهجور. وبما أنّني لم أجد مفرًّا من الشجار، اضطُررت إلى الدفاع عن نفسي. بل فعلت أكثر من ذلك في الواقع. عاد بوفا إلى منزله مدمّى الوجه. ومنذ ذلك الوقت، تصالحنا وتصادقنا.

لم يكن بوفا متعلِّمًا. لقد عاش مراهقةً مضطربة، هو الذي كان يواظب على التغيّب عن المدرسة. ولكن مع مرور الوقت، سلك طريقًا مستقيمًا. فبعد أن تزوّج في التاسعة عشرة من عمره ورُزق بطفل، كان يهتمّ بعائلته الصغيرة ويبدو راضيًا عمّا تقدمه له الحياة كلّ يوم بيومه. كانت حياته مقبولة، ليس إلّا. لم يكن لديه مثال أعلى يحتذي به. بالنسبة إلى الإمام صادق، ليس بالضرورة أن يكون المواطن الجيّد مؤمنًا جيّدًا، وبما أنّ بوفا كان مسيحيًّا، فقد كان معذورًا. نظرًا إلى أنّ الإنجيل كُتب بأيدي أشخاص من لحم ودم، هو بالتالي غير منزل، أي أنّ ممارسة الدين عند

أتباع عيسى المسيح ليست أساسيّة في الإيمان. كان بوفا نفسه يؤكّد ذلك علنًا. كان يعترف بوجود أمرٍ ما في الإسلام من ضروب المعجزة، ويجد في ممارستنا ديننا جدّيةً أكبر من ممارسة الدين في مجتمعه. كان الإمام صادق يوصينا بعدم معاشرة من هم غير مسلمين، إلا أنني استمررت في رؤية بوفا لأنّه لم يكن عنصريًّا ولا معاديًا للإسلام.

– أحتاج إلى درّاجة لحالة طارئة.

فتح بوفا ذراعيْه وقال:

– اخترْ ما شئت.

– سأردّها لك قبل حلول الظهيرة.

– لا مشكلة. احرصْ فقط على ألّا تقضي عليها كما حصل في المرّة الماضية.

– أعدك.

فيما كنت أشغّل الدرّاجة، أخذ بوفا خرقةً ومسح بها يديْه الملطّختيْن بالشحم، ثمّ عاد إليّ سائلًا:

– أتعلم أين إدريس؟

– لم أره منذ أسبوعٍ. لماذا؟

نظر بوفا بادئ ذي بدءٍ حوله، قبل أن يثير الريبة في نفسي:

– سمعت أنّ الشرطة اقتحمت منزله، واصطحبت أمّه إلى المخفر.

شعرت بتشنّج حادّ في معدتي.

– أتعتقد أنّه ذهب إلى سوريا للجهاد؟

– وكيف لي أن أعلم؟ إنّها أمورٌ لا يُفشى بها.

– إنّه صديقك الحميم. هل فعلًا لم ينبس لك ببنت شفة؟

– لا، لا علم لي بأيّ شيء.

قفزت على الدرّاجة وسارعت في الابتعاد عن الورشة.

لم أستطع القيادة. بدا لي أنّني فقدت الشعور بأطرافي. تنحّيت إلى جانب الطريق كي أتوقّف في باحة، ثمّ أخرجت هاتفي واتّصلت بأختي التوأم كي أسألها عمّا إذا أتى أحدهم لأخذ أغراضي، كما كان مقرّرًا.

– لم يأتِ صديقك، أكّدت لي زهرة. أخبرتني بأنّك ما عدت بحاجة إلى ملابس وأنّك لن تتأخّر في العودة.

– التدريب يزداد تعقيدًا هنا في أنتويرب. هل وصل أيّ بريد لي؟

– لا.

– هل أنتِ متأكّدة من أنّ أحدًا لم يأتِ ليسأل عنّي في المنزل؟

– لا، لم يأتِ أحد.

أمضيت عشر دقائق كاملةً، أحاول فيها تخفيف الضغط عن نفسي، قبل أن أعاود ركوب الدرّاجة.

كان خبير المتفجّرات يسكن في مزرعة معزولة تقع على بعد عشرين كيلومترًا من بروكسل، على طريق نينوف. كان السبيل المؤدّي إلى منزله يمرّ عبر حقول مهجورة. لا أثر لمبنى واحد في الأفق. سلكت طريقًا محصّب تحدّه أشجارٌ حزينةٌ من الجانبيْن، قبل أن أسلك، في آخره، ممرًّا مخصّصًا للماعز، بالقرب من الجدول، يؤدّي إلى المزرعة المهدّمة حيث كان الخبير المتعدّد الصنعات نفسه يعيش وحده، من دون زوجة ولا أطفالٍ، مكرّسًا وقته لتربية الدجاج وإعداد «الطرود» بطلب من بعض أمراء المنطقة. سبق لي أن أتيت مرّتيْن إلى هذا العنوان السرّي البحت، برفقة السائق علي من أجل استلام «طلبات خاصّة» لالياس.

وجدت خبير المتفجّرات في كوخٍ قذرٍ وراء الحظيرة المليئة بالدواجن. كان يصلح عجلة عربة يدٍ. تنبّه إلى زمجرة درّاجتي، فاكتفى بفتح مصرعي البوّابة لرؤية من أتى يزوره.

وما إن رآني حتّى انكبّ مجدّدًا على تلحيم الجزء الأمامي من درّاجة اليد.

لم يكن مسرورًا برؤيتي.

– لم يُعلمني أحد بمجيئك اليوم، تذمّر قائلًا من دون التوقّف عن العمل.

– ليست زيارة مجاملة.

رمقني بنظرةٍ غاضبة.

– لا تملك الحقّ في المجيء إلى منزلي من تلقاء نفسك. أنتَ تنتهك التعليمات.

– المسألة مهمّة بالنسبة إليّ.

– هل يعلم الياس بمجيئك؟

– كان ينبغي أن أراك أنت أوّلًا.

وضع حملاجه على طاولة كبيرة مصنوعة من خشب السنديان، ثمّ مسح يديْه بمشمله واستقام واقفًا كي ينظر إليّ بازدراء.

– ماذا يوجد داخل رأسك؟ طين؟ أقول لك أنّه ليس لديك ما تفعله عندي. لسنا في طاحونة هنا. أتريد أن تقلب الطاولة على الجميع أم ماذا؟ لا يحقّ لأحدٍ أن يأتي لزيارتي من دون إذن أميره. هل تدرك حجم المشكلة التي ستقع فيها مع أميرك؟

ضربت الهاتف المشتبه بأمره على الطاولة:

– كان معطّلًا!

عقد الخبير حاجبيْه، ونظر بصمت إلى الهاتف. لم يكن يفهم ما أقول.

– جهازك لا يعمل.

– ما هذا الجنون؟

– أنا لست جبانًا. أنت الذي أخفقت في مهمّتك. ويترتّب بالتالي عليك أنت تبرير بقائي في قيد الحياة لالياس. إنّ هاتفك المشؤوم عاطل من العمل. كان من واجبك أن تتأكّد منه قبل وصله بحزامي.

فجأةً، تغيّر لونه. استوعب توًّا معنى كلامي وسبب وجودي في منزله. تراجع خطوةً إلى الوراء، ووضع كفّه على جبينه، وبقي هكذا دقيقة واحدة، يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة. وبعد أن استعاد بعض قدرته على التفكير، رفع يديْه إلى مستوى صدره للحفاظ على مسافةٍ بيني وبينه.

– اسمعني جيّدًا، أنتَ. سأتصرّف كأنّني لم أعرف شيئًا عن الموضوع. وأنت، سوف تغادر المكان فورًا.

– من الضروري أن أثبت لالياس أنّ الذنب ليس ذنبي في فشلي في مهمّتي. لقد زُوِّدت بزرّ الضغط ليس إلّا، لكنّ الهاتف الذي كان من

المفترض أن يفجّرني عن بعد كان معطّلًا.

– أنا أتأكّد من جميع أجهزتي.

– أخبرني المصلّح أنّ هذا الموديل قديم ومعطّل كلّيًّا.

– أيّ مصلّح بالله عليك؟ أتعي ما فعلت؟

– لا خطر في ما فعلت. ذهبت إلى محلّ للهواتف.

– أيّها المعتوه.

– كنت أريد أن أفهم لما لا يعمل.

– لربّما عبثت به.

– كنت أجهل وجوده حتى. اكتشفته وأنا أتأكّد من حالة حزامي، ووجدت أنّه كان متّصلًا بنظام الإشعال في حين كان الزرّ مثبّتًا حول إصبع متفجّرات ليس إلّا.

– لست مضطرًّا إلى تبرير نفسي أمامك. تكمن مهمّتي في تحضير «طرودٍ» فقط. ولا أملك الحقّ في معرفة لمن هي ولا لأيّ غاية تُستخدم.

– من سمح لك بالتلاعب بالزرّ وتزويدي بهذا الهاتف؟

– لا أفهم ما تقصد. فأنا لست معنيّا بأسرار المشاريع ولا بتنفيذها. ولست مخوّلًا معرفة هويّة الشخص الذي يتزنّر بالحزام الذي أصنع. كما أنّني لا أوفّر خدمة ما بعد البيع، أفهمت؟ والآن، اخرج من هنا ولا تعدْ أبدًا. وإذا كان لديك ما تطالب به، فتحدّث إلى أميرك.

– عليك الاعتراف بأنّ الذنب ذنبك في فشل مهمّتي.

أزاح الحملاج الموضوع على الطاولة بحركة فيها من الغضب ما فيها، وركض يحمل فأسًا كانت معلّقة على أحد مصرعي البوّابة.

– كلمة واحدة بعد وأحطّم رأسك. وبعد ذلك، أرميك في حفرةٍ وأطمر جيفتك ببراز دجاجاتي. وأؤكّد لك أنّ أفضل الكلاب تدريبًا لن يجد أثرًا لك. هيّا اخرج من هنا. بالنسبة إليّ، أنت ميت منذ زمن بعيد لدرجة أنّني لا أذكرك حتى.

كان يترقّب، بفمه الفائر وعينيْه الجاحظتيْن، أدنى حركة أقوم بها ليحطّم رأسي. لم أكن أواجه إنسانًا، بل مستذئبًا مستعدًّا لالتهامي حيّا.

ركبت درّاجتي وعدت إلى بروكسل، وقلبي ينزف بحرقة.

كانت ورشة بوفا تعجّ بالزوّار. لمحتُ جيروم، وهو مسؤول في دوام جزئي عن أمر الحبس. كان يسكن في مولنبيك حيث يُعتبر أرسين لوبان المتقمّص، ويُعرف باختصاصه في قضايا السطو على أحياء الأغنياء. كان يبلغ على الأرجح الثلاثين من العمر، لكنّه كان يبدو ستّيني المظهر. إلى جانبه، كان يقف إريك، شقيق بوفا الأكبر، الذي كان يملك ورشةً لتصليح السيّارات في شارع كورنبيك. كان متزوّجًا وله ثلاثة أولاد. وكان فريد الملقّب بـ«لو غوشيه»، أي «الأعسر» جالسًا على مقعد درّاجة مفكوك وهو يتناول وجبة خفيفة من البيض المسلوق. كان فريد ميكانيكيّا هو أيضًا، وقد خدم في الجيش قبل أن يُطرَد بسبب تورّطه المزمع في سرقة قطع غيار.

ساد صمتٌ تامٌ حين أعدت الدرّاجة إلى مكانها.

– هل أزعجكم؟ سألتهم ببعض الحساسية.

لوّح لي بوفا لأقترب عن عتبة الباب.

– يبدو أنّني أقاطع اجتماعًا عائليّا.

– ألست على علم؟ سألني إريك ملتويًا في كلّ جهة.

– حسب.

– عن صديقك إدريس.

– أجهل مكانه. لسنا توأميْن ملتصقين.

– أخشى ألّا يتمكّن من إيجاد من يرافقه حتى بعد الآن، قال فريد وصفار البيض يفيض من فمه. لقد تمّ التعرّف إلى صديقك الحميم. وهو يتصدّر عناوين النشرات الصباحية. إنّه أحد انتحاريي ملعب «ستاد دو فرانس».

ادّعيت الذهول. فسارع بوفا يساعدني كي لا أقع أرضًا.

– كلّنا مصعوقون، قال لي. مولنبيك تحت الصدمة. ما كان أحدٌ ليتخيّل أنّ إدريس يستطيع الإقدام على عمل مماثل.

– أنا لا أصدّق، أضاف جيروم، الذي بدا مضطربًا. لطاما كان إدريس شابّا

طيّبًا. لم يكن يوحي بأنّه يخطّط لأعمال وحشية. أنا حقًّا مذهول. كنت أحبّه.

دفع بوفا كرسيًّا في اتّجاهي.

– اجلس، سأجلب لك كوب ماء.

تظاهرت بالانهيار على الكرسي وأمسكت رأسي بين يديّ لأنّني عجزت عن التعبير عن ردّ فعل صادق.

ربّت جيروم كتفي.

– ألم تشكّ في الأمر قطّ؟

– كيف تريده أن يشكّ في أيّ شيء؟ سأله فريد. هؤلاء المتعصّبون لا يفتحون الموضوع أمام زوجاتهم حتى. سحقًا لهم! كيف يفجّرون أنفسهم بأنفسهم؟ الفكرة تتخطّى حدود المنطق. أنا لا أجرؤ على اقتلاع سنٍّ بنفسي. كيف يسيرون إلى الموت كأنّهم يسيرون في عرضٍ؟

عاد بوفا بكوب ماء. شربته دفعةً واحدة، ومشاعر الغضب تتأجّج في داخلي. كانت تصريحات فريد تغيظني، وكنت أقاوم في صميم ذاتي كي لا أنقضّ عليه وأمسك بخناقه.

– والأسوأ أنّه أحمق، تابع فريد. فقد جنى على نفسه فقط.

– لربّما أُطلِقَت النيران نحوه قبل أن يضغط زرّ حزامه.

– في هذه الحالة، لقد نال ما يستحقّه من جزاء.

ما عدت أتحمّل.

نهضت لمغادرة الورشة. رافقني بوفا إلى الشارع ماسكًا بذراعي.

– هل ستكون على ما يرام؟

– نعم، بإمكانك أن تتركني.

– إنّه لأمر فظيع، أليس كذلك؟ إدريس، انتحاري؟ في أيّ عالم نعيش بالله؟

– إدريس استشهد يا بوفا.

عقد حاجبيْه متصلّبًا في مكانه.

– أنت تؤيّد فعلته لأنّه كان صديقك.

– أنا لا أحكم على أحدٍ.

عبرت الطريق، وسلكت أوّل شارع صادفته أمامي، من دون أن ألتفت.

جلتُ ساعات وساعات قبل أن ألجأ إلى حديقة عامّة. ما عادت مداهمة الشرطة المحتملة لمنزلي هي التي تقلقني؛ فعندما نختار التضحية بأنفسنا من أجل قضيّةٍ ما، تتجرّد الأمور الحياتية من أهمّيتها. بل كان تبرير نفسي أمام ريان هو الذي يشغل بالي. لا شكّ في أنّه علم بموضوع إدريس، تمامًا كما علم الجميع، وعلى الأرجح، يدور في باله الآن ألف سؤال وسؤال بخصوص وجودي في باريس لحظة وقوع الهجمات. سيبحث عن أجوبة لأسئلته لا محالة. كان لا بدّ أن أحافظ على رباطة جأشي وأفكّر في الأجوبة المناسبة.

قرابة الساعة الرابعة من بعد الظهر، استجمعتُ ما أوتيت من شجاعة وتوجّهت إلى شارع بوغار. كانت سيّارة ريان هنا، الأمر الذي لم ينبئ بخير، إذ إنّ ريان لم يعتد العودة إلى المنزل خلال ساعات العمل. لم يفتح الباب حين قرعت الجرس، فاستخدمت المفتاح الذي تركه لي. وباستثناء خرير الماء السائل في الحمّام، كانت الشقّة غارقة في صمت شبيه بصمت المشرحة. ناديت ريان؛ لم يجبْ. أزحت ستارة الحمّام البلاستيكيّة فوجدته جالسًا على الأرض، لابسًا ثيابه في حين كانت المياه تنهمر عليه. بدا شاحبًا، مستنزفًا، معالمه منهارة بالكامل؛ كان يبكي.

نظر إليّ بعينيْن مدمّرتيْن.

– كنتَ تعلم، أليس كذلك؟

بدا صوته خارجًا من بئر.

– نعم.

هزّ رأسه، أخذ نفسًا عميقًا، ومرّر ظهر يده برخاوة على أنفه.

– لم تكن في باريس لرؤية خالتك؟

– لا.

هزّ رأسه من جديد، منكوبًا.

– ساورتني بعض الشكوك.

– لكنّ الأمور على عكس ما تظنّ، ريان.
– حقّا؟
– ذهبت إلى باريس كي أردعه.
رسم ابتسامة آسية.
– كي تردعه؟
– إنّها الحقيقة. ماذا كنت ستفعل مكاني؟
– لمَ لم تخبرني بشيءٍ؟
– كان قد استقلّ الحافلة أصلًا. اعتقدت أنّه ذاهب إلى باريس في زيارة سياحية. فقط عندما عانقته شعرت بالحزام الناسف حول خصره. احمرّ لونه حين تنبّه إلى أنّني فهمت. اضطُررت إلى ركوب الحافلة معه كي أحاول أن أعيده إلى صوابه. لكنّه ما عاد إدريس الشخص الذي عهدناه. لم يرغب في سماع أيّ كلمة. رجوته، حتى أنّني هددته بإعلام السائق والركّاب. هزء بي. «لن يتسنّى لهم حتّى تلاوة صلاة أخيرة»، همس في أذني. لم أكن أصدّق. ما كان ليتردّد في تفجير الحافلة، بركّابها وبي. أؤكّد لك أنّه لم يكن في حالته الطبيعية. كأنّه كان موجّهًا عن بعد. عندما وصلنا إلى باريس، استغلّ وجودنا وسط الحشد كي يخلفني. بحثت عنه في كلّ مكان، لكنّه كان قد تبخّر.
نمّقت كذبتي بكلّ قناعة، لدرجة أنّ ريان توقّف عن التحديق فيّ. عاود مسح أنفه بظهر كفّه. ترقّبت ردّ فعله كما يترقّب المتّهم الحكم النهائي في قضيّته. تقوقع ريان على نفسه وما عاد ينبس ببنت شفة.
أغلقت الصنبور.
ساعدته في خلع ملابسه وارتداء بيجامته. وقد استسلم ريان للأمر كطفل. كان في حالة صدمة.
استلقى على سريره متكوّرًا، وقد أمسك الوسادة فوق رأسه غارزًا ركبته في بطنه. أعتقد أنّه كان يحاول أن يخنق شيئًا ما في داخله.
حضّرت الطعام.
على المائدة، كان ريان يتأمّل الطبق أمامه من دون أن يراه، واضعًا

يديْه على صدغيْه. فجأةً، وقف وركض ليتقيّأ في الحمّام. ثمّ عاد بعد ذلك ليستلقي في فراشه.

التهمت حصّته وحصّتي، وقضيت على جزءٍ كبيرٍ من محتويات البرّاد من دون أن أتمكّن من سدّ الجوع النهم الذي كان يتأكّلني. لا أذكر أنّني شعرت بشره مرضي مماثل من قبل. وشعرت بأنّني قادر على ابتلاع الكوكب برمّته. وكلّما كنت أملأ معدتي، كنت أفرغ رأسي، تمامًا مثل ساعة الرمل.

لم يتوقّف ريان عن التقلّب والهذيان خلال نومه.

جلست على الكنبة، في الصالون.

كانت شاشة التلفاز السوداء تعيدني إلى هاوية فكري.

كنت أجهل ما أفعل.

في منامي، كنت أهيم على وجهي في فسحة مظلمة داخل غابة. وكانت الأشجار حولي عارية لا أوراق تكسوها، وكانت أغصانها تذكّر بالخدوش. كان المكان موحشًا، يتمسّك فيه سديمٌ رمادي بالأحراش. وفي آخر ممرّ محفور بالأخاديد، كان إدريس ينتظرني، عاريًا من رأسه حتى أخمص قدميْه. بدا نحيلًا، وجهه بلون الغبار وصدره ممزّق بالطعنات. وإلى جانبه، كان خنزير برّي يتمرّغ في أحشائه، وفمه مفتوح. كنت أشعر بالبرد. وكانت قدماي تنغرسان في الطين. كان إدريس يبتسم لي بحزنٍ. «إنّها أوقات عصيبة»، قال لي. وأراني يديْه التي كان يتصاعد منهما دخان أبيض. فجأةً، شقّت فأسٌ دموية الأجواء، مخترقة السديم في اتّجاهي.

استيقظت مرعوبًا.

عندما فتحت عينيّ، لمحت خيالًا جالسًا على حافّة النافذة.

– ريان؟

لم يبدِ الظلّ، الذي كان ينعكس بوضوح على الزجاج، أيّ ردّ فعل.

رفعت الغطاء، وتلمّست طريقي بحثًا عن زرّ إضاءة الغرفة.

– لا تضئ النور.

نهضتُ بصعوبة عن الكنبة واقتربت من النافذة. كان ريان يتأمّل الشارع

الذي ينيره مصباح. كانت الدنيا تمطر رذاذًا في الخارج.

– هل أنتَ مريض؟

– لم يخطر الأمر في بالي. إدريس لم يكن مغفّلًا. كان يعي الفرق تمامًا بين الخير والشرّ.

– لا شكّ في أنّ له أسبابه الخاصّة.

– أيّ أسباب تلك التي تبرّر الجنون؟ صاح وسط مدرار من اللعاب. لدينا أدمغة نستخدمها للتفكير. الشرّ هو الشرّ، لا مبرّر له ولا مخفّف لعقباه. لا يطيع العاقل إلّا ضميره. أين ذهب إدريس بضميره؟

– وحده كان يملك الجواب. وما عاد من هذا العالم كي يعطيك إيّاه. لهذا، لا ينبغي الحكم عليه.

– أنا لا أحكم عليه، بل أدينه. ومن دون إعطائه أسبابًا تخفيفية. أدينه لغبائه المفرط حين اعتبر نفسه أقلّ شأنًا من الآخرين.

– ضحّى بنفسه من أجل الله، لا من أجل الآخرين.

التفت إليّ، بفمٍ ملتوٍ.

– هل تؤيّد فعلته؟

– أيّدتها أم لا، فهل سيغيّر ذلك الواقع؟ ما حصل قد حصل.

– هل تعي حجم الكارثة؟ كان إدريس ينوي قتل أشخاص لم يرتكبوا ذنبًا في حقّه. أين الله في كلّ هذا؟ إنّه لعمل همجي. إنه لعمل جبان، وحقير، ومحزن...

– ستوقظ المبنى برمّته.

– لا آبه بتاتًا. أودّ أن يصل صوتي إلى أقطار الكوكب كافّة. الله ليس أمير حربٍ، ولا راعيًا لمنظمة إجرامية. جاء في القرآن أنّه ﴿من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾. ما جدوى كلّ تلك المذابح المجّانية إذًا؟ لمَ علينا أن نقنع الناس بأنّ نداء المؤذّن للصلاة هو نفسه نداء للاحتضار؟

– حذارِ يا ريان، أنت تكفر.

– صدقًا!

– طبعًا. يدفعك غضبك إلى الهذيان. عُد إلى فراشك.

نهض بسرعة وأضاء النور في الصالون. ثمّ عاد إليّ، وقرّتا عينيْه ممدّدتان.

– أنا هنا في منزلي، ولست في مهجع مدرسة داخلية. أخلد إلى النوم متى يروق لي، أفهمت؟ وأحكم على من أريد. لا شيء يشرّع ما أقدم عليه إدريس. لا ثناء أمرائه ولا الخطب الجنائزية التي يدلي بها هؤلاء المشعوذون الذين أخذوا الله رهينةً قبل أن يحلّوا محلّه على العرش العظيم.

انحنى صوبي أكثر بعد، وسألني بنفس ملتهب:

– أتدافع عن إدريس يا خليل؟

– كان صديقي.

– كان صديقي أيضًا.

– لا تتهجّم عليه إذًا. ما عاد موجودًا ليدافع عن نفسه.

– لأنّك تعتقد أنّه يمكن الدفاع عنه؟

تأمّلني مطوّلًا، وصوارا فمه أبيضا اللون. كان صدى تنفّسه المدوي في صدغيّ أشبه بصفير الهواء في أنابيب متفسّخة. نظرنا إلى عيني بعضنا بعضًا. بدا ريان أنّه يكتشفني أوّل مرّة في حياته. أمّا أنا، فكنت أراه يحترق بلهيب جهنّم، معلّقًا من لسانه فوق أحد البراكين.

لم يغمض لي جفنٌ في تلك الليلة.

كنت حاقدًا على ريان، ألومه لأنّه يعتبر نفسه أذكى من آلاف الشجعان الذين يبذلون دماءهم على طريق الخلاص؛ وألومه لأنّه أدار ظهره لذويه، وألومه على انتحاله شخصيةً محالٌ أن يدركها يومًا: ألا وهي شخصية المواطن الصالح المندمج، هو المبتذل المتكيّف. لم يكن من حقّه الحكم على إدريس، ناهيك بإدانته. لم يكن ريان صاحب موقفٍ حتى. لم يكن سوى كومبارس منسيٍ في آخر الكواليس لا مثال أعلى له يحتذي به ولا قضية يدافع عنها. ماذا كان يعرف عن الدين، وواجب المؤمن المقدّس، وممارسة الإيمان الحقيقية؟ لم يكن يعلم حتى سبب وجوده

على الأرض. كان مقتنعًا بأنّه سينتصر في الحياة لمجرّد أنّه نجح في المدرسة. ولم يكتفِ بالكدّ في إحدى الشركات، بل كان يفرض على نفسه العمل ساعات إضافية من أجل تأمين حاجاته اليومية حتى آخر الشهر، من دون أن يعي أنّه مجرّد رجل عادي محكوم عليه بالأشغال الشاقّة. وما كان عالمه إلّا أوهامًا، وأحلامه إلّا فخوخًا قاتلة، وطموحاته إلّا ريَبًا. ما معنى النجاح المهني عندما يقف الموت في آخر المطاف؟ من يبحث حقًّا عن الخلاص، ينبغي أن يستثمر في المستدام، لا أن يراهن على الزوال. لقد اختار إدريس الحياة الأبدية، وكنتُ متأكّدًا من أنّه كان سعيدًا، في الأعلى، وقد أصبح ملاكًا ينعم كسائر ملائكة الرحمن في الهناء.

6

لم تكن الأخلاقيات يومًا من شيم أبي. فعندما علم أنّني رسبت في الصف السادس، طقطق لسانه بسقف حلقه وقال بنبرة دوّت طويلًا داخلي: «الحمار يبقى حمارًا، ولو لبس ثوب أسد.» كنت أتوقّع سماع عظة بكلّ ما للكلمة من معنى، أو درسٍ من دروس الحياة، مدعوم بأمثلة بارزة وأسماء شخصيات بدأت من الصفر وأصبحت مشهورةً وغنية بفضل تفانيها في المدرسة، بمعنى آخر كلمات كان ينبغي أن تثير وعيي حيال المسؤوليات المترتّبة عليّ. إلّا أنّني لم ألقَ غير ازدراء فظّ. لا صفعة، ولا تهديد، ولا عقاب. فقط استعارة كلامية متسرّعة حكم عليّ احتقارها بحكم الهلاك من دون أدنى أمل بالخلاص.

كان إدريس قد رسب في صفّه هو أيضًا، الأمر الذي أبكى أمّه. كانت هذه الأخيرة امرأة مجروحة تتلاشى في تعافيها. لم أسمعها يومًا ترفع صوتها أو يدها على ابنها. كانت تتلقّى ضربات القدر برُواقية لافتة، عاجزة عن الفصل بين شطحات ابنها السلوكية وخطئها هي، مقتنعةً بأنّ الذنب ذنبها في تعاسة إدريس، لأنّها لم تعرف كيف تحافظ على والده، وهو رجل بلجيكي الأصل، أحبّته بكلّ جوارحها، ولم يتردّد في التخلّي عنها حين كانت حاملًا في شهرها الثامن، من أجل معاشرة صديقة مشتركة بينهما.

– ماذا يحصل عندما نرسب ونعيد الصفّ؟ سألت إدريس.

– يشعر أهلنا بالألم.

– أتعتقد أنّ أبي يتألّم بسببي؟

– وما أدراني. ليس لديّ أب.

لفظ جملته الأخيرة بحزنٍ.

فاجأنا ريان حين كنّا جالسيْن على الرصيف نضيّع بعض الوقت. كان يرتدي بدلةً مرتّبة وملمّعة، ويضع الجل على شعره المقصوص قصيرًا، تاركًا خصلةً جميلة تنسدل على جبينه. كان من حقّه أن يشعر بالفخر ويبدو وسيمًا. بل كان يستحقّ كلّ سعادة الدنيا، هو الذي انتقل إلى المرحلة الثانوية بدفتر علامات متوّجٍ بالملاحظات المشجّعة. الأوّل في صفّه. تهانٍ لا تُعدّ ولا تُحصى.

للمناسبة، اشترت له أمّه حاسوبًا لمكافأته.

– لديّ ما يكفي من المال لشراء تذاكر للسينما لنا نحن الثلاثة، اقترح قائلًا.

– ونلتحق بعد العرض بمجموعة موكا؟ سألت، لأنّه في العادة لم يكن يُسمَح لريان التجوّل ناحية حديقة «بارك دي موز».

– لمَ لا؟ ردّ غير مبالٍ. انتهت المدرسة، أليس كذلك؟

أيقظني شعاعٌ من أشعّة الشمس. كنت أشعر بألم في رقبتي بسبب يد الكنبة التي أسندت رأسي إليها. كان الصالون يفيض بنور النهار. لا بدّ أنّ الوقت كان يُقارب الظهيرة. كان ريان قد ذهب إلى العمل. استحممتُ، وصببتُ بعض القهوة، ثمّ جلست إلى طاولة المطبخ أفكّر كيف أمضي نهاري. بدت محاولة الاتّصال بالياس محفوفة بالمخاطر. ونظرًا إلى الوضع السائد في البلد، كان التكتّم الكامل مطلوبًا لأسبابٍ أمنية. ولا شكّ في أنّ صالة الرياضة، حيث اعتاد أعضاء جمعية التضامن الأخوي الخيرية الالتقاء، كانت تخضع لمراقبة عن كثب من الشرطة.

تنبّهت إلى أنّني لم أعاود الصلاة مُذ سافرت إلى سان دونيس. لم يكن الأمر خطيرًا. ففي نظر الله، كنتُ شهيدًا. وإذا فشلت مهمّتي، فلم يكن ذلك ينفي نواياي الباسلة بتاتًا.

وفيما كنت أرفع فنجان القهوة إلى شفتيّ، نظرت إلى صورة ريان

المعلّقة على الحائط في برواز فضّي. كان ريان يبتسم فيها إلى الكاميرا، وفي عينيْه بريقٌ.

أنت ترغب في رفع الأنخاب مع مديريك، والتزوّج بكافرة، والعيش من دون الله ولا حدود تردعك؟ أنت حرّ. لقد حدّدنا خياراتنا أنا وإدريس أيضًا... لطالما دلّلتك أمّك واعتنت بك ونظّفتك. لم ينلْ إدريس شيئًا من كلّ هذا. ولا أنا أيضًا... هل سبق لك أن غمرك الغضب لدرجة أنّك رأيت نفسك في مكانٍ آخر بكلّ ما للكلمة من معنى؟ أن تطلّ من النافذة وتنظر إلى الشارع لتجد أنّ لا أحد سواك يجلس على الرصيف المقابل؟ سبق أن عشت أنا هذه التجربة. في كلّ ليلة من ليالي عمري، حين كان أفراد عائلتي يغطّون في النوم. كنت أقف كالفزّاعة أمام الزجاج وأحدّق في الشابّ الجالس على الرصيف في الجهة المقابلة. يا له من منظرٍ يا ريان. يا له من منظرٍ مذهلٍ وبائس. لم أشعر بذرّة تعاطف مع الشابّ الجالس على الرصيف. بل كنت أحتقره. أتعلم؟ إنّه لشعور رهيب أن تحتقر نفسك. كنت أنتظر أن يغادر، أن يختفي من أمامي. لكنّه لم يكن يغادر. كان يفضّل البقاء هناك، تحت الشتاء، والتحديق فيّ متهكّمًا. وفي نهاية المطاف، كنتُ أنا من ينسحب. كنت أعود إلى فراشي كي أخلد إلى النوم. ولكن، كيف يغمض لي جفنٌ وأنا أرى نفسي معلّقًا في الفراغ كلّما حدّقت في السقف؟ كنتُ تفال البشرية، يا ريان، مجرّد شابّ مشؤوم يعيش على الهامش، لا مستقبل له ولا وجهة يمضي فيها، ويترقّب طلوع الشمس كي يسارع إلى لملمة أشلائه في أحد الجوامع. لقد حضنني الجامع، الذي بات أكثر من ملجأ، وعالجني وجعلني شخصًا آخر، تمامًا كما تُدَوَّر النفايات. لقد منح المنبوذين أمثالي أنا وإدريس، رؤية ورحابة، واقتلعنا من المزراب ليعرضنا كمنتجات فخمة في واجهة أكثر الأبنية جمالًا. هذه هي الحقيقة ريان. أعاد لنا الجامع الاحترام الذي يدين به العالم لنا، الاحترام الذي سُلب منّا، وأثار وعينا إزاء روائعنا المخفية... لا يا ريان، وألف لا، ليس من حقّك أن تحكم على إدريس. فأنت لست بنصف أهميّته حتى. لا أحد بنصف أهميّته.

غادرت شقّة ريان وقطعت على نفسي وعداً بألّا تطأ قدماي أرضها بعد الآن. ما عاد ريان صديقي. لن أشعر تجاهه سوى ببغض بارد ولن أسامحه أبدًا على تحقيره التضحيةَ التي قدّمها إدريس والتي وصفها بالعمل الهمجي.

كنت تائهًا وسط أفكاري، فلم أرَ الشوارع ولا الناس.

كنت ميتًا بين الأحياء يجول في الضباب. أكان غياب إدريس أم استسلامي لذاتي هو الذي يمحو العالم حولي؟ كنت في غاية الوحدة وغاية الحزن. كنت أحتاج إلى من أكلّمه كي أثبت لنفسي أنّ الجدران التي ترافقني كانت من حجرٍ وطوب، وأنّ الضجيج المحيط بي لا صلة له بالترنّح المتفشّي في رأسي.

كنت أشعر بفراغٍ يضاهي فراغ كيس منفوخ بالهواء.

لم أكن أمشي، بل كنت أطوف.

فكّرت في الاتّصال بزهرة كي تأتي إليّ، لكنّني خشيت أن تكون مراقَبة. كانت أختي التوأم الشخص الوحيد الذي بقي لي في هذه الدنيا. كنت أعشقها وكانت تبادلني الشعور نفسه. كنّا ننسجم لدرجة أنّها تشعر بأدنى همومي. لم يكن باقي أفراد عائلتي يحتلّون مكانة كبيرة في حياتي. كانت أمّي بائسة للغاية كي تمثّل أيّ شيءٍ بالنسبة إليّ. كان شعوري بالشفقة يطغى على شعوري بالحنان تجاهها. أمّا بالنسبة إلى أبي، فبات مجرّد غريب. لم أكن أحبّ شيئًا فيه. كان يجسّد كلّ ما لا أطيقه.

وجدت نفسي أمام فرن عيسى، أحد أعضاء الجمعية النافذين. كان يلبّي طلب امرأة مسنّة. وحين لمحني عبر الزجاج، دعاني بإشارة من ذقنه إلى إكمال طريقي.

وأيّ طريقٍ هو؟

كلّ ما في هذه المدينة التي كبرت فيها من دون أن أنضج، كان يدير لي ظهره.

أسدل الليل ستاره عليّ كأنّني طائر جارح. لم أتناول شيئًا طيلة

النهار. جلست في مطعم كباب وطلبت سندويشًا ومشروبًا غازيًّا. كان شبّان مغاربة يتحدّثون عن هجمات باريس وعن حالة الذُّهان التي أصابت بروكسل، معربين عن أسفهم إزاء حالة التفتيش على أساس الملامح وحماسة عناصر الشرطة المفرطة. كان شابٌّ جسّيمٌ قوي البنية يرتدي ملابس رياضة يحتكر الحديث:

– والنتيجة أنّنا نحن الآن في مأزق، اختتم قائلًا. أنا الآن أكمل تعليمي الجامعي، وحتمًا لن أجد وظيفة متى تخرّجت. كلّ هذا لأنّ ملامحي لا تستوفي شروط التوظيف. يأخذ الجميع حذرهم منّا بسبب هؤلاء المسعورين. نحن مرغمون على التواري عن الأنظار والمضي من دون أن نلفت انتباه أحد...

– أنا أمشي مرفوع الرأس، ردّ الشابّ الجالس إلى يمينه. لا أجد سببًا لأمحو نفسي إذا قرّرت مجموعة من المجانين أن تقلب الطاولة على رؤوس الجميع.

– حشومة عليهم، أذكّرك بأنّهم يجلبون لنا العار، تابع الشابّ الجسّيم.

– لا ينبغي أن نشعر بالذنب بسبب هؤلاء الحمقى.

– يدّعون أنّهم ينتمون إلى الإسلام.

– هذا ما تحاول وسائل الإعلام زجّه في العقول، لفت شابّ هزيل القامة قصير النظر وهو يمسح نظّارته بطرف قميصه. الإسلامويّة ليست الإسلام، إنّها عقيدة وليست دينًا.

– فَريد على حقّ، أشار شابّ أصلع لم يكن ينفك يحكّ عمق أذنه بقشّة كبريت. إنّ هؤلاء الحمقى يشنّون حربًا مقدّسة ضدّ غير المسلمين. ومن الطبيعي أن نكون محطّ الاتّهام.

– لا، ليس طبيعيًّا، اعترض الشابّ الجالس إلى اليمين. أوقفوا هذه الاستنتاجات السخيفة. أنا شخصيًّا، لا آبه بتاتًا بجثث الأغبياء المسيّرين هؤلاء. وإن عاد الأمر لي، لكنت اقتلعت عيني الملتحي الأوّل الذي يعترض طريقي.

– يا صاح! صرخ له زبونٌ من آخر الصالة، لديّ لحية ولا أصلّي.

– فلتحلقها إذًا.

– لا أستطيع. وجهي مليء بحَبّ الشباب.

وإذا برجلٍ نحيلٍ، كان قد بقي صامتًا حتى اللحظة، ينقر الطاولة بإصبعه، ليجذب بعض الانتباه:

– ارتقوا بالمستوى يا أقاربي، قال بعقلانية. ما يحصل الآن هو النتيجة المنطقية لوضع سائد منذ الأزل؛ أي بمعنى آخر أن إقصاء الشخص بسبب اختلافه يؤجّج الحساسيات، والحساسيات تثير الإحباط، والإحباط يولّد الكره، والكره يؤدّي إلى العنف. إنّها عملية حسابية بسيطة.

– العنف ضدّ من؟ استشاط غضبًا الشابّ الجسّيم، الذي يرتدي ملابس رياضة. ضدّكم وضدّي؟ لماذا؟ من أجل عالم أفضل؟ لقد زاد هؤلاء التائهون الطين بلّةً. الحلّ واحد. فليعد من ليس راضيًا إلى بلاده، حيث تتجاوز الجوامع المدارس عددًا. هناك، يمكنهم الصلاة حتى تأتي سكرة الموت وتخطفهم.

– ها قد عُدنا من جديد! أردف أكبرهم سنًّا، وهو شابّ ثلاثيني، أسمر البشرة، ترك النيكوتين على أصابعه لونًا أصفر من فرط التدخين. لمَ تريد أن يعودوا إلى بلدٍ لا يعني لهم شيئًا؟ إنّهم بلجيكيون. وُلدوا هنا، وارتادوا المدارس هنا، وترعرعوا هنا. بلدهم هنا. هذا هو نمط التفكير بالذات الذي يحثّهم على كره بلدهم بالتبنّي. كيف نطالبهم بالاندماج ونحن نهدّدهم وجماعتهم بطردهم من بلدهم الأمّ كلّما أخفق مواطن دنيء في التصرّف؟ ألا يرتكب سكّان بلجيكا الأصليون حماقات هم أيضًا؟ لا بدّ من وضع حدّ نهائي لخطاب اليمين المتطرّف هذا. لا يمكن بناء دولة على أساس الهويّة، بل على أساس المواطنة.

– لم يرغبوا يومًا في الاندماج، أصرّ الشابّ الجسّيم. نحن نتحدّر من عائلات مهاجرة. نتعرّض أحيانًا لتعليقات جارحة. يكفي أن نرى هؤلاء النازيين الجدد الذين يتفاخرون في شاشات التلفزة، ويسمحون لأنفسهم باستعراض قواهم في الأماكن العامّة، حالفين على تلقيننا درسًا. مع ذلك، هل تحوّلنا إلى إرهابيين؟ لسنا حتى مسلمين صالحين.

نحاول كسب قوتنا اليومي ونتظاهر بأنّنا لم نسمع شيئًا. لا نستطيع التعميم على المجتمع البلجيكي برمّته بسبب مجموعة من العنصريين المسعورين.

– لكنّهم لا يتوانون عن التعميم على كلّ المسلمين، اعترض الشابّ الجالس إلى يمينه.

– أنا أوافق لونيس الرأي. إنّ الإرهابيين والعنصريين وجهان لعملة واحدة ليس إلّا. وإذا كان الإرهابيون قد انتقلوا إلى مرحلة التنفيذ، فإنّ العنصريين ينتظرون الوقت المناسب لحذو حذوهم. إنّما نحن نعرف كيف نميّز بين الاثنين. ولا نصنّف جميع الغربيين في الفئة ذاتها.

– أنا أؤيّد تكويم هؤلاء المعتوهين في مقصورة الشحن على متن طائرةٍ ورميهم في ديارهم، تابع الشابّ الجسّيم. إنّه السبيل الوحيد للعيش بسلام. ينبغي احتجاز كلّ أصحاب اللحى وترحيلهم على الفور إلى بلدهم الأصل.

– أكرّر لك أنّني ملتحٍ بسبب البثور التي تملأ وجهي.

– آخر همّي. إمّا أن تحلقها أو ترحل.

التفتّ إلى الشابّ الجسّيم، رادعًا نفسي عن الهجوم عليه لإمساك رقبته:

– لمَ لا تكون مثالًا يُحتذى به؟ سألته. كن أوّل من يغادر إلى بلدك المشؤوم.

– أنا بلجيكي. كما أنّني لا أضايق أحدًا هنا.

– لن تكون أبدًا بلجيكيًّا بكلّ ما للكلمة من معنى، يا صديقي. أبدًا. والدليل على ذلك أنّك في مطعمٍ قذرٍ خاصّ بمجتمعك، تلتهم سندويشات مشكوكًا في جودتها، وتتكلّم بالسوء عن ذويك مع غيرك من البلجيكيين المزيّفين. وبدلًا من أن تتطوّع كمخبر بائس، انظر حولك وقلْ لي ما إذا كنت تلمح بلجيكيًّا أصليًّا واحدًا في حفرة الفئران هذه. وإن كنت تنعم بالحدّ الأدنى من المنطق، فارفع عينيْك قليلًا وفسّر لي جدوى مناطق الخطر المزعومة تلك حيث تبقى جماعتك مزروبة كأنّها قطيعًا

مصابًا بمرضٍ معدٍ. ارفع رأسك أكثر بعد وانظر من فوق معزلك إلى ما يفعلونه بالعراق وسوريا واليمن وليبيا. انظرْ كيف يُعامل المسلمون في الصين، وميانمار، والشيشان، وحتى داخل مقابرنا.

– هذا ما أفعله منذ طلوع الشمس وحتى غروبها، ولا أرى سوى الوحشيّة والتخريب والمجازر والرعب، وكلّها باسم الله. أرى الرسل يخدشون وجوههم كدليل على التوبة، والشيطان يرتعش خوفًا كلّما استلّ قطّاع الرؤوس هؤلاء سيوفهم.

– يدمون مساجدهم، ويخطفون مدنهم، ويفجّرون آثارهم الخاصّة، أجاب الثلاثيني الأسمر.

– بحسب رأيك، من الذي يرتكب المجازر في حقّ الشعب العراقي، ومن الذي يهجّر السوريين؟ تابع الشابّ الجسّيم. من الذي يبيد الأقلّيات في بلاد الإسلام، ويعرّض آلاف العائلات الحائرة بمصيرها لمخاطر النزوح؟ من الذي يقطع رؤوس الأطفال في الساحات العامّة، ومن الذي يعدم الأبرياء من أجل إخضاع الآخرين، ومن الذي ينهب الفقراء البسطاء ويبتزّهم بعد أن يغويهم بعظات كاذبة؟ هيا، أجبْ، نوّر عقلي. قلْ لي من الذي يغتصب الأمّهات أمام أعين بناتهنّ، والحموات والكنائن معًا، والأرامل أمام أولادهنّ الأيتام باسم الله الرحمن الرحيم؟

أزحت صحن الكرتون من أمامي ووقفت. وقبل أن أغادر مطعم الكباب، توجّهت إلى الشابّ الجسّيم بالقول:

– ما تشهده بلاد المسلمين شرٌّ لا بدّ منه. لا يمكن أن يستقيم العالم قبل تخليصه من الراضخين للهزيمة.

لم أعِ مدى خطورة التعبير عن رأيي من دون مواربة أمام غرباء إلّا عندما بلغت الشارع. لكنّ الأمر كان أقوى منّي.

كنت أتساءل أين سأمضي الليلة حين ظهر خلفي رمضان، وهو بنّاءٌ يدير خلال أوقات فراغه مطعم الجمعية. همس لي متظاهرًا بأنّه يتحدّث عبر الهاتف:

– اتبعني عن بعد، من دون أن تسرع خطاك.

تبعته حتى بلغنا مشغلًا صغيرًا مهجورًا حيث كان رجلان بانتظارنا، واحد يجلس منفرج الساقيْن على صندوقٍ، والثاني يقف مكتوف اليدين، مثل الجلّادين، في إحدى الزوايا. لم يرَ رمضان ضرورةً في تعريفهما إليّ.

– تخلّص منهما، طالبته قائلًا.

– إنّهما أهل ثقة.

– لا أعرفهما، بالتالي ليس لديهما ما يفعلانه هنا. ثمّة أصول يا رمضان.

انتظرت أن يخرج الأرعنان إلى الشارع كي أستأنف معركتي:

– أكنت تعتقد بأنّك ستخيفني بهذين الرجلين المخيفين؟ أذكّرك بأنّني لم أذهب إلى باريس كي ألتقط صور سلفي تحت برج إيفل. ففي سياقٍ طبيعي، أنا ميتٌ. لربما متّ فعلًا. من يعلم؟ ولست سوى عائدٍ من الموت.

– لمَ تغضب هكذا يا أخي؟ طلبت أن أطرد مرافقيّ وطردتهما. وها أنتَ الآن تعقد العزم على الرحيل.

– ليس قبل أن ألتقي بالشيخ أو بالياس.

– على أيّ كوكبٍ تعيش يا أخي؟ الوضع منقلب رأس على عقب في البلد. ولا وقت لأحد عند أحد. ينبغي على الجميع توخّي الحيطة والحذر بانتظار أن تهدأ الأمور.

– بالنسبة إليّ، الأمر طارئ. لا بدّ أن أقابل أحد كبار المسؤولين. ولا بدّ أن يعرف الجميع أنّ الذنب ليس ذنبي في عدم إتمام مهّمتي في باريس. أنا لم أتراجعْ في الدقيقة الأخيرة.

– الياس يعرف ذلك.

شعرت بأنّني تلقّيت ضربة صولجان على رأسي.

– الياس يعرف ذلك؟

– والشيخ والإمام صادق أيضًا... توقّف عن لوم نفسك من هذه الناحية يا خليل. فلا أحد يشكّ في شجاعتك.

لم أكنْ أصدّق. اضطُررت إلى الإمساك برأسي كي أتأكّد أنّني سمعت جيّدًا.

عقد رمضان حاجبيْه، مستغربًا ألّا يراني أقفز من الفرح.

– ماذا إذًا؟ أنتَ مطمئنّ الآن، لا؟

– مطمئنّ؟ أتعتقد أنّ الأمر بهذه السهولة؟ كنت تائهًا بالكامل، لعلمك. لم تتوقّف الأفكار السلبية عن مطاردتي. بالكاد كان يغمض لي جفن، ولم أعرف الراحة حتى في منامي. وكنت أموت من الخوف كلّما داس سائقٌ مكابح سيّارته من دون سابق إنذار. وها أنتَ الآن، تزفّ لي هذا الخبر، هكذا وبكلّ بساطة، كأنّ الأمر مجرّد سوء تفاهم. هيّا أخبرني، ما الذي يعرفه بالضبط الياس وجماعته؟ لأنّني أنا شخصيًّا، لا أملك أيّ فكرة عن الموضوع.

حاول وضع يده على كتفي.

– لا تلمسني من فضلك. اكتفِ بإعطائي تفسيرًا عمّا يحصل بالضبط. أشعر بأنّني آخر من يعلم بما حدث، كما لو كنت الزوج المخدوع.

تأمّلني رمضان لحظة، قبل أن يتنحنح. شخر، ثمّ التفت يمينًا وشمالًا، ومسح طرف فمه بإبهامه الغليظة...

– هل هناك ما تخفيه؟ هيّا انطق.

ذبذب ذقنه قبل أن يعترف بصوتٍ خافتٍ:

– لقد زوّدوك بالحزام الناسف الخطأ.

– ما هذا الهراء؟! يرسلونني إلى الجبهة مزوّدًا بذخيرة مخلّة.

– إنّها أمورٌ تحدث. بسبب الاستعجال، اختلطت الأحزمة وأخذت الحزام الخاطئ. كلّفني الشيخ والياس تقديم اعتذارهما إليك. كان بودّهما أن يخبراك بالأمر شخصيًّا، لكنّ ثمّة أولويات. فالسلطات الفرنسية والسلطات البلجيكية في صدد ملاحقة أخٍ لا يملك أيّ عذرٍ لتخاذله عن تأدية مهمّته. لقد انهار هذا المخنّث وسارع إلى الهروب، تاركًا خلفه حزامه وهاتفه المحمول في مكان الهجمات. وهذا بالضبط هو الخيط الذي كانت استخبارات العدوّ بحاجة إليه لتعقّب خطواته. المشكلة أنّ الجميع يجهل مكان هذا المعتوه، ما يبرّر مداهمات الشرطة وعمليات التفتيش على أساس الملامح أينما كان. جميع المناطق مراقبة.

شعرت بركبتيّ تتراصان بضغط من وزني. أحسست برغبة في لكم الحائط حتى تحطيم معصمي.

أخذ رمضان يلمس طرف أنفه. ولم يعلم من أيّ باب يدخل ليفاتحني.

– اهدأ خليل. نحن نسيطر على الوضع.

– ما الذي ينتظرونه منّي؟

– لا شيء في الوقت الحاضر.

– سئمت الدوران حول نفسي.

– تحلَّ بالصبر. واعلمْ فقط أنّك لست وحيدًا. يرجوك الياس أن تتصرّف كأنّ شيئًا لم يكن.

– ما معنى هذا الكلام؟

– تتصرّف بشكل طبيعي. تتجنّب الجمعية، طبعًا. تبقى في مكانك، وتتحاشى قدر المستطاع إحداث أيّ جلبة. حتى أنّه بإمكانك العودة إلى منزلك من دون أيّ مشكلة إذا أردت ذلك. وإذا أتت الشرطة لاستجوابك، فلا تبدِ أيّ مقاومة.

– هل وشى أحد بي؟

– من تقصد؟ الأمير، أم الشيخ، أم الإمام؟ أم تقصدني أنا؟ لا أحد سوانا نحن الخمسة يعلم أنّك كنت في فرنسا.

– لمَ تريد الشرطة إذًا البحث عنّي؟

– تستدعي الشرطة كلّ من كان على علاقة قريبة أو بعيدة بشهدائنا الذين سقطوا في باريس، أكانوا أهلهم، أو جيرانهم، أو أصدقاءهم، أو بقّال الحيّ، أو قدامى معلّميهم، أو ساعي البريد. إنّها الإجراءات. وأتوقّع أن يأتي دوري أنا أيضًا. استُمِع إلى الكثير من أفراد جماعتنا قبل إخلاء سبيلهم. ولم يحتجز أيّ واحد منهم قيد التحقيق. فعناصر الأمن يقومون بعملهم ليس إلّا. وإذا أتوا لاعتقالك، تعاون مثلك مثل أيّ مواطن صالح... لم تفترقا يومًا أنت وإدريس. ومن الطبيعي أن تثير حشريّة الشرطة. سوف تقول أنّ إدريس كان فعلًا صديقك، وأنّكما يعرف بعضكما بعضًا منذ الطفولة، لكنّك لا تملك أيّ معلومات عن مشاريعه.

– لن يصدّقوني.

– آخر همّك. لا يملكون أيّ دليل ضدّك. كما أنّك تملك حجّة دامغة. فقد أمضيت ليلة الثالث عشر إلى الرابع عشر من نوفمبر في فراش فطّومة، الطبّاخة في الجمعية.

– لمَ تلطيخ سمعة تلك المرأة النزيهة؟ وسمعتي أنا أيضًا؟ ماذا سيظنّ سكّان الحيّ؟

– لن يدور أحدٌ بالخبر لينقله.

– أرفض. لا بدّ من إيجاد عذرٍ آخر. أكنّ كلّ الاحترام لفطّومة. لا تستحقّ أن يلطّخ أيّ كان سمعتها. هل فكّرت في أولادها؟

– إنّهم صغار للغاية. كما أنّ كلّ القصة مجرّد حجّة. وفطّومة موافقة على ذلك.

– لقد أجبرتموها. ما كانت أيّ امرأة مؤمنة لتقبل…

– هل أنت أصمّ أم ماذا؟ إنّها مجرّد تغطية لحالة الضرورة.

فكّرت، ومن ثمّ هززت رأسي رفضًا.

– لا تناسبني الفكرة.

– إنّها الأوامر. والأوامر تُنفّذ حرفيًّا. لست أنا من يحدّد القواعد يا خليل. بل هي تصدر عن القيادة العليا. وفي النهاية، الفكرة من باب الاحتياط ليس إلّا. وقد لا يأتي أحدٌ لاستدعائك أصلًا.

– الأفضل أن أغادر البلاد.

– إيّاك أن تفعل. ستكون بذلك قد جنيت رسميًّا على نفسك.

– لا بدّ أن أختفي عن الأنظار فترة من الوقت.

– وماذا ستقول لهم في حال تعرّفوا إليك داخل المطار؟ أنّك ذاهب في عطلة؟ ولنفترض أنّك ستتمكّن من الصعود على متن الطائرة، فسوف يكونون في انتظارك عند الهبوط. وسيخرجونك من أيّ بقعة تختبئ فيها… لذا، ابقَ في بروكسل وتصرّف بشكل طبيعي. وإذا استُدعِيت إلى مخفر الشرطة، فاذهب.

– كيف تريدني أن أبقى في بروكسل وأنا في الشارع؟

– أنتَ تسكن في شقّة ريان، أليس كذلك؟
– هل تتجسّسون عليّ الآن؟
– بل نسهر على سلامتك.
– طبعًا. وبالحديث عن السهر، الوحيد الذي لا يغمض له جفنٌ هنا هو أنا. والأفظع من ذلك أنّني لا أدري حتى أين سأمضي هذه الليلة.
– عُد إلى شقّة ريان.
– لقد تشاجرت معه.
– ما كان ينبغي عليك فعل ذلك.
سلّمني ظرفًا، وقال:
– إنّه من الأمير. مبلغ يكفيك فترة أسبوعٍ أو اثنيْن، بانتظار أن تتجلّى الأمور. وجدْ لك مكانًا آمنًا يؤويك في غضون ذلك. وإلّا فابقَ في هذا المشغل.
– ولمَ لا أذهب إلى فندق؟ لا بدّ أن آخذ حمّامًا كما أنّني أحتاج إلى الحدّ الأدنى من الراحة.
– إذا كان من مكان ينبغي تجنّبه على الأكيد فهو الفندق. جميع الفنادق تخضع لمراقبة عناصر الشرطة.
تركني وحيدًا وسط الغرفة، وسارع إلى لقاء مرافقيْه الجسّيميْن في الشارع.
أمضيت ثلاث ليالٍ متتالية أنام على كراتين في المشغل، متقوقعًا على ذاتي. ثلاث ليالٍ أتخبّط في صراعٍ مع شكوكي وظنوني التي كانت تبقيني متيقّظًا حتى ساعات الفجر الأولى. كنت أستذكر وأستذكر لقائي مع رمضان من زوايا مختلفة، من دون أن أجدَ له ناحية إيجابية واحدة. كان غامضًا في معظمه. لم أقتنع قطّ بقصّة «الحزام الناسف» ذاك. كان من المستحيل أن تقع غلطة سهو في لحظة مصيرية كتلك. مستحيل. كان الرهان محوريًّا، والتداعيات وخيمة. وكنت مقتنعًا في صميم نفسي أنّهم أعطوني الحزام الصائب، وأوصلوه بهاتفٍ سبب وجوده الوحيد هو تفجيري عن بعد.

تمامًا كما فُجِّر على الأرجح إدريس والأخوان الآخران. ما الذي يبرر إذًا وقوع قتيل واحدٍ ومجموعة من الجرحى، في الوقت الذي كانوا يخطّطون لتنفيذ مجزرة؟ ولنفترض أن مداخل ملعب «ستاد دو فرانس» كانت تخضع لحراسة مشدّدة، كان بإمكان الأخويْن انتظار نهاية المباراة لمفاجأة المشجّعين عند خروجهم. فتنفيذ عملية انتحارية في الفراغ ليس له أيّ معنى. لم أكن مقتنعًا بالموضوع. كما أنّني كنت أعرف إدريس تمام المعرفة كي أدفنه من دون رثاء، فلم يكن من النوع الذي يستعجل الأمور أو يتسرّع في إتمام عمله. كان إدريس سينتظر نهاية المباراة. ألم يعِد بالتفوّق عليّ من حيث عدد الضحايا؟ كنت كلّما حاولت ابتلاع ما قيل لي، جرّدتني آثاره الجانبية من ذاتي. فقدت الثقة، خصوصًا في رمضان. كيف أصدّق رجلًا يرغم ربّة أسرة بريئة، وأرملة فوق ذلك، على تأدية دور العاهرة العرضية؟ ما من حجّة مهما كانت مهمّة تسمح بهذه المذلّة. لا من أجل القضية ولا من أجل أحد. لا يمكن المساومة على نزاهة الأمِّ. لم يكن رمضان سوى متملّق وحثالة ومخادع. وإذا ما بصق أحدهم في فمه، لكان تلذّذ بالطعم. كان يثير اشمئزازي. كلّ شيء كان يثير اشمئزازي.

وفي الليلة الرابعة، وحين كنت أهيم في الشارع، توقّفت سيّارة بالقرب منّي، وانفتح بابٌ أمامي.

– هيّا اصعد، قال لي ريان.

لم يكنْ أمامي خيار آخر. فالفئران كانت تملأ المشغل، والكراتين لم تكن بالسماكة الكافية لحمايتي من البرد والقروح التي خلّفها النوم على الأرض.

كانت زهرة حاسمة في جوابها:

– لم أتلقّ أيّ «رسالة مسجّلة» ولا أيّ زيارة، كما لم يظهر أيّ أثر «للصديق الذي كان يُفترض به استلام أغراضي.»

كنتُ أمضي أيّامي معزولًا داخل شقّة ريان، أتتبّع الأخبار في محطّات الأنباء. لم تكن نشرات التلفاز تتكلّم إلّا عن فرار الأخ الذي هرب في باريس مخلّفًا جوّاله في مكان التفجير، الأمر الذي أتاح لاستخبارات العدوّ

تفكيك شبكة بأكملها. لم أكن على معرفة بالفارّ، ولا أتذكّر أنّني التقيت به في مكانٍ ما. لم يكن ينتمي إلى مجموعتنا.

عندما كان يتملّكني التعب من إجهاد عينيّ في شاشة البلازما، كنتُ أخلد إلى النوم. لم أكن قد واظبت على صلاتي بعد. وكان داخلي صوتٌ يخبرني بأنّني أستطيع إكمال حياتي من دونها. ففي سياقٍ طبيعي، كان يفترض أن أكون ميتًا تمجيدًا لله. صحيحٌ أنّني لم أكن في جنان الخلد بعد، إلّا أنّه ما عاد لديّ ما أثبته في هذه الحياة الدنيا أيضًا. وعلى الرغم من عدم اكتمالها، إلّا أنّ تضحيتي كانت تعفيني من بعض الواجبات المترتّبة على المؤمن.

قرابة الساعة الخامسة من بعد الظهر، وقبيْل عودة ريان، كنت أتوجّه إلى أحد المقاهي حيث اعتدت البقاء حتى حلول الليل قبل أن أعود بدوري إلى المنزل. وكنتُ أوهم مضيفي بأنّني لا أترك بابًا إلّا وأطرقه بحثًا عن وظيفة. كان وجودي تحت سقف بيته يقلب كلّ عاداته رأسًا على عقب. وقد حدث لي مرّات عدّة أن سمعته في غفلة يعتذر عبر الهاتف إلى خطيبته عن عدم استضافتها في منزله. وكانت ابتسامته لي تدلّ علنًا على الإحراج الذي أتسبّب فيه له. ولربّما استطاع إقناع أحد زبائنه، وهو تركي صاحب محلّ لبيع الأثاث في شارع هيفارت، بتوظيفي كي يستعيد خصوصيّته.

كان الرجل التركي في العقد الخامس من عمره، صارم الطباع وشبه مفرط البدانة، يتّسم بوجه ضخمٍ يغطّيه النمش وببطن هائل ومترهّل كان يترجرج كطابة هلامية. بدأ يتذمّر من أعماله التي لم تكن تجري كما ينبغي، إضافة إلى الفواتير غير المدفوعة المكدّسة داخل علبة بريده. حتى أنّه بدا قاب قوسيْن أو أدنى من البكاء. وفي حين كان ريان يصرّ على ضمانته لي، كان التركي يحكّ أسفل جمجمته بهيئة مخادعة. وبعد أن رمقني خلسةً، سألني عمّا إذا كنت أملك رخصة قيادة.

– بالتأكيد.

– هل سبق أن قدتَ شاحنات؟

– حسب نوعها. شاحنات صغيرة، نعم، شبه مقطورات، لا.

عاود حكّ أسفل جمجمته، قبل أن يدّعي مراجعة سجلّ على مكتبه:

– في الحقيقة يا ريان، أنتَ تضعني في وضع حرج. ولأنّني لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا، إليك ما أقترحه على صديقك: ثلاثون يورو مقابل كلّ عمليّة تسليم، بما فيها تركيب الأثاث. وبالطبع، عليه أن يعمل في السرّ، وفقط عندما أكون بحاجة إليه.

– ألم يسبق أن تعرّضت لعمليتيْ سطو يا سليمان؟ ذكّره ريان.

– إنّ كلمة سطو مبالغٌ فيها. ما حصل كان خلع القفل وخلع درجيْن أو ثلاثة، إنّما من دون حصول سرقة. إضافة إلى ذلك، ما الذي يمكن سرقته هنا؟ إنّ أثاثي رخيص وخزنتي فارغة. وبحسب الشرطة، فإنّ العمليّة من توقيع مجرمين محكومٍ عليهم كانوا يبحثون عن مخبأ يمضون ليلتهم فيه.

في هذه الحالة، لمَ طلبت منّي أن أجهّز المحلّ بكاميرات مراقبة؟

– لردع المتسلّلين المحتملين. لا أرغب في أن يتحوّل متجري إلى مأوًى للمجرمين، لا سيّما في أيّامنا هذه، مع هؤلاء الإرهابيين الذين يهيمون على وجوههم يمينًا وشمالًا.

– سببٌ إضافي لتوظيف حارس ليلٍ. سوف يرحّب خليل بالوظيفة إذا ما أبديت كرمًا أكبر.

– لست بحاجة إلى حارس، فجهاز الإنذار لديّ يعمل بشكل جيّد للغاية.

– أجهزة الإنذار قابلة للتعطيل.

– مع أنّك أكّدت لي العكس.

– ليس هناك من نظام آمن تمامًا يا سليمان، وأنتَ تعرف ذلك. والقراصنة أكبر دليل على ذلك. يبقى الحارس أكثر ردعًا.

عضّ التاجر الذي بدا مشكّكًا على شفتيْه.

– من فضلك، أصرّ ريان. إنّها المرّة الأولى التي أطلب منك خدمةً. وظّفه إلى أن يجد عملًا ثابتًا. خليل هو المعيل الوحيد في أسرته، وهو يكدّ

ويتعب لتلبية حاجات ذويه. لديه خمسة أفواه تنتظر أن يطعمها، إضافة إلى أبٍ عاجزٍ.

شاءت المصادفة، بل كانت إشارة من السماء، أن يرنّ الهاتف في تلك اللحظة بالتحديد.

بعدما أقفل الخطّ، لمعت عينا صاحب العمل.

– إنّ صديقك المصان هذا مباركٌ، قال لريان. إنّها المرّة الأولى منذ بداية العام، التي أتلقّى فيها طلبيةً واحدة تشمل عشرة مكاتب، وعشر خزائن، وأربعين كرسيًّا، وثماني طاولات قهوة.

وُظِّفْتُ في اللحظة نفسها، عاملَ تسليم وحارسًا ليليًّا في آنٍ.

فرح ريان لأجلي، وسُرّ بنوع خاصّ لأنّه سيتمكّن أخيرًا من استقبال خطيبته في منزله. لم ألمه على تخلّصه منّي، لكنّني لم أتمكّن، على الرغم من استضافته إيّاي ومساعدته على إعادة الاستقرار إلى حياتي، من مسامحته على كلامه المقيت بحقّ تضحية إدريس.

7

سمعت عبر الراديو أنّ والدة إدريس خرجت من المستشفى، حيث نُقلت جراء الصدمة الناجمة عن وفاة ابنها وكلّ ما يرتبط بذلك من تداعيات.

قرّرت أن أمرّ لرؤيتها.

بعد أن تأكّدت أنّ الطّريق كان سالكًا، توجّهت إلى منزلها في وقت متأخّر من اللّيل.

بدت علامات التقدّم في السنّ فجأة عليها، تلك المرأة المطلّقة التي تسكن الطابق الأرضي. عندما تعرّفت إليّ وأنا أقف على عتبة منزلها، انهارت بين ذراعي، لدرجة أنّني اضطُررت إلى إسعافها على المشي حتى الصالون.

– ما الذي فعلوه بولدي؟ أجهشت بالبكاء قائلةً.

– ابنك في الجنّة.

– وأنا في النار.

– غير صحيح.

– أنتَ لا تزال في ريعان الشباب، لم تفقد فلذة كبدك لتعرف مدى الألم الذي أشعر به. أنا مشتاقة لإدريس. صحيحٌ أنّه كان يتغيّب باستمرار، لكنّه كان دائمًا يعود إليّ. ما عاد العالم كسابق عهده من دونه. أتمنّى أن أموت أنا أيضًا.

– لا تقولي هذا.

– ماذا بقي لي في هذه الدنيا؟

– ينبغي أن تعتزّي به.
– أنا أمّه. لا أحتاج إلى الاعتزاز به طالما أنّني لا أزال أحبّه، أكثر من أيّ شيء في الدنيا. فقد قبلت، من أجله، كلّ مصائب الدهر.
نظّفت أنفها بكمّ فستانها القذر. كان جورباها ممزّقين، وتفوح منها رائحة نتنة، كأنّها لم تستحمّ منذ أيّامٍ، ربّما أسابيع.
– سمعتُ أنّك طُرِدْتِ من السوبرماركت؟
– ومن الذي سيطيق توظيف والدة إرهابي؟
– إدريس ليس إرهابيًّا. لقد قاتل من أجل العدالة. لا دخل لك أنتِ، ومع ذلك فقد طُرِدْتِ من العمل. مات إدريس بسبب سياسة الكيْل بمكياليْن في هذا البلد.
– الأمران مختلفان: أن تفقد وظيفة ليس كأن تفقد ابنك.
– إدريس بين يدي ربّه الآن. وينبغي أن تسعدي لذلك. لم يقتل نفسه، بل ضحّى بنفسه لتخليص العالم من أعداء الله.
– أعداء الله هم من كذّبوا على ابني. ملعونٌ هو من لعب بعقل ابني. لا يمضي نهارٌ من عمري من دون أن ألعنه.
كان عذابها يدفعها إلى التفوّه بترّهات.
وقفت كي أستأذن وأنصرف. أمسكتني بمعصمي.
– كنتَ صديقه. لماذا لم تسهر عليه؟
– كانت عين الله ساهرةً عليه، سيّدتي.
كانت تلك المرّة الأولى التي أناديها فيها بهذا اللقب.
غادرتها وأنا متأكّدٌ من أنّني لن أراها بعد الآن.
لقد خيّبت أملي.
أتت أختي التوأم للقائي في حديقة صغيرة، بالقرب من كاتدرائية سانت ميشيل وغاودلا. وصلت متأخّرةً قرابة الأربعين دقيقة بسبب إنذار خاطئ في المترو. أسرعت إلى عناقي وضمّتني بقوّة إلى صدرها كأنّنا لم نلتقِ منذ دهرٍ. أشعرتني رائحة شعرها وعطرها بالراحة. خُيّل إليّ

أنّني عدتُ إلى ذاتي. خُلقنا أنا وأختي من الطينة ذاتها، وكان يكفي أن نجتمع حتى نشعر بنوع من الكمال.

– جلبت معي الفطائر التي تحبّ، قالت وهي تعطيني كيسًا ورقيًّا مبقّعًا بالزيت.

لم تكن أيّ نجمة في السماء تضاهي ابتسامة زهرة إشراقًا. فعندما كانت تشدّ شفتيْها إلى جانبيْ وجهها، كانت غمّازتان تتوّجان بتلات وجنتيْها، لتتحوّل إلى حديقةٍ في حدّ ذاتها.

– إذًا، ما أخبار ذلك التدريب في أنتويرب؟ تحمّست بالسؤال وهي تجلس على المقعد.

– كانت دورةً تدريبية متقدّمة.

– في أيّ مجال؟

– النجارة. لا أجيد فعل أيّ شيء آخر.

– أتنوي العودة إلى عملك السابق؟

– لن يعاود توظيفي ربّ العمل. في المرّة الأخيرة، اتّهمني بالتفتيش في أدراجه. وفي الحقيقة، لم تكن تلك التهمة سوى ذريعةٍ لاستبدالي بابن أحد أشقّائه. أظنّ أنّ ثمّة صاحب مشغل مهتمٌ بأمري. لقد اتّصل بي. أرسلت إليه سيرتي الذاتية وأنا الآن أنتظر ردًّا.

– نقف متفائلين بالخير، وليس مكتوفي الأيدي.

أمسكت وجهي بيديْها البيضاويْن، ونظرت إلى عينيّ بحنان. ولأنّها كانت تكبرني بدقائق فقط، كانت تشعر بأنّه يتوجب عليها معاملتي معاملة الأمّ لابنها.

– لقد فقدت بعضًا من وزنك. هل تأكل حتى تشبع؟

– طبعًا. أنجز أعمالًا هنا وهناك، ليس ما يكفي لأمدّ لنفسي مأدبةً، إنّما ما يكفيني لضمان تناول وجبة ساخنة.

– رأيتك في منامي ليلة أمس. أتذكر بركة السباحة في فندق الناظور؟ في الواقع حلمت أنّنا ذهبنا إلى هناك من جديد، لنجد مربّعًا من العشب

مكان البركة. وقد انتابك شعورٌ بالغضب، وكنت تقف، بلباس السباحة، تصرخ على المدير.

– لم تكن هناك بركة سباحة في الفندق.

– إنّه حلمٌ.

–لا أحبّ الأحلام.

– دعْني أكمل حلمي.

– لا داعي. فأنا لا أتحمّل الواقع حتى.

فتحت الكيس، وأخذت أقضم فطيرة.

– أنا أشعر بالقلق عليك يا خليل.

– شعورك ليس في مكانه.

– يجب أن تتصالح مع والدنا.

– لا أرغب في العودة إلى البيت. عودتي ستزيد الطين بلّة لا غير. سيعاود أبي استفزازي كالعادة. يريدني أن أساعده في البقالة. أتتخيّلينني أبيع الخضار؟ أنا لا. إضافة إلى ذلك، لم يكن يدفع لي بدل أتعابي حتى.

– إنّه مريض جدًّا، أتعرف ذلك؟ يعاني تضخّمًا في القلب، بحسب تشخيص الطبيب. بل أكثر من ذلك. يعاني أيضًا صعوبة في التبوّل. في الأسبوع الماضي، غاب عن الوعي وسط الطريق. لا تزال ماما في المغرب، وأشعر بصعوبة كبيرة في الاهتمام وحدي بالمنزل وبوالدنا وبالأمور المتبقية.

– لمَ ذهبت إلى المغرب؟

– رافقت أختها. لقد ووريت أنيسة الثرى في مقبرة القبيلة، إلى جانب جدّيْنا بابا شريف والحاج سيدي عمران. وبعد ذلك، تعرّضت جدّتنا لوعكة صحيّة واضطُرّت ماما إلى البقاء بجانبها.

نظرت إلى طرف حذائها وغرقت في صمتٍ عميق.

– هل أتت الشرطة إلى المنزل؟ سألت فجأةً.

– لمَ تريد أن تأتي الشرطة إلى منزلنا؟

– وما أدراني؟ سمعتُ أنّها تستدعي الجميع إلى المخفر.
– ليس نحن. فما من سبب لذلك. أترى سببًا لاستدعائنا؟
– لقد كبر إدريس في منزلنا.
– وإن يكن. لقد كبر ريان أيضًا في منزلنا. مثلهما مثل الكثير من الأولاد الآخرين الذين اهتمّت ماما برعايتهم. نحن أناس بسطاء. ونعاني لكسب قوتنا اليومي، ولا مصلحة لنا في تعقيد حياتنا (شعرت من جديد بالحزن...) كنتُ أفكّر بأنيسة. ليس من العدل أن يكون هذا قدرها، لا سيّما أنّ زملاءها في المكتب هم الذين اصطحبوها إلى الـ«باتاكلان» للاحتفال بعيد ميلادها. يا لعجائب القدر.

علق طرف الفطيرة في حلقي.

– كنتُ أستلطف أنيسة، تابعت أختي. صحيحٌ أنّ والدتيْنا لم تكونا على علاقة جيّدة، لكنّ علاقتي بها كابنة خالتي كانت جيّدة. وعندما كنّا نلتقي مصادفةً في المغرب خلال عطلة الصيف، كانت تدعوني لتناول مثلّجات عملاقة، دائمًا على حسابها، حتى حين كنت أملك المال. كانت فتاةً طيّبة. في زهرة شبابها ومتعلّمة. لم تكن تستحقّ نهاية مماثلة. لا أحد يستحقّ نهايةً كتلك.
– إنّها مشيئة الله.
– صحيحٌ، اعترفت متنهّدة، إنّها مشيئة الله.

فجأةً، بدت لي الحديقة الصغيرة كئيبة. أمسى لون الأشجار الأخضر داكنًا، وعكّرت رائحة بولٍ وتقيّؤ صفو الجوّ.

– فلنذهب في نزهةٍ صغيرة، ما رأيك؟
– ينبغي أن أعود إلى المنزل. لقد ضيّعت ما يكفي من الوقت في المترو بسبب ذلك الإنذار الخاطئ.

عاودت إمساك وجهي بيديْها، وحضنتني مرّةً أخرى بنظرتها الناعمة كأنّها تداعبني بجفنيها.

– فكّر بما قلته لك خليل. حاول أن تتصالح مع والدنا. فهو بحاجة إلى ذلك، أتفهم قصدي؟ أنتَ ولده، ابنه، ابنه الوحيد.

وضعت شفتيْها على جبيني، ببطءٍ وحذر. كانت في غاية الحنان والشجاعة والجمال. لن أفهم يومًا لمَا طلّقها ذلك الوغد زوجها.

– من فضلك، ابقي معي بعد.

نظرت إلى ساعتها.

– أتوسّل إليك.

زمّت شفتيْها. تمامًا كما اعتادت أن تفعل في كلّ مرّةٍ أحرجها فيها بطلبي.

– حسنًا، قالت. فلنمشِ قليلًا. كنّا قد عبرنا حديقة بروكسل وصولًا إلى متحف ماغريت. ثمّ افترقنا أَمام محطّة للباصات. استقلّت هي الترام، في حين أكملت أنا طريقي مشيًا في اتّجاه تمثال مانيكن-بيس.

فجأةً، بدا لي العالم قاهرًا، يكبّل يديْك كسترة المجانين.

اتّصلت بي زهرة بعد ثلاثة أيّام. كانت أمّي قد عادت من المغرب.

– لا تأتي على ذكر أحدٍ سواك منذ عودتها، قالت لي.

– لماذا؟

– كيف لماذا؟ إنّها تترقّب رؤيتك منذ أشهرٍ على عتبة الباب.

– لا أنوي لقاء والدنا. فقد انتهت العلاقة بيني وبينه.

– ليس موجودًا في البيت طوال الوقت... لمَ لا تأتي غدًا؟ لديه موعد في المستشفى عند الساعة العاشرة. وسيمضي فترة الصباح بكاملها هناك... تعالَ، من فضلك. لو رأيت الحالة المزرية التي وصلت إليها أمّنا. إنّها تحطّم قلبي. تعالَ إكرامًا لله ولرسوله. فالمؤمن الصالح لا يتجاهل حزن أمّه.

وعدتها أن أفكّر بالأمر.

في الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي، ذهبتُ إلى المنزل. كان أبي قد غادر إلى المستشفى في الصباح الباكر. كادت أمّي تفقد وعيها بين ذراعيّ. قبّلت وجنتيّ، ورأسي، وكتفيّ، وظهر يديّ. وهي تبكي وتتلو تعويذات بربرية بنبرة رتيبة. لم تبالغ زهرة: لم تكن أمّي سوى حزمة عظامٍ ملفوفة بخرق.

لم تكن أمّي جميلةً يومًا؛ كما أنّ الحياة البائسة التي كانت تعيشها أتلفتها أكثر بعد. لقد أُرغمت على الزواج وهي في السادسة عشرة من عمرها، وحملت بأولادها الواحد تلوَ الآخر. أوّلًا، يزّة، ومن ثمّ مريم وعائشة، اللتان قضتا نحبهما في سنّ الثانية جرّاء إصابتهما بالتهاب فتّاك في السحايا، ومن بعدهما رُقيّة، التي توفّيت فجأةً في شهرها السادس. ثمّ أجهضت ثلاث مرّات، كادت آخرها تودي بحياتها. كان أبي يريد أن يُرزق بصبيّ مهما كلّف الأمر، فحملت أمّي بنا أنا وزهرة على الرغم من ممانعة والطبيب النسائي وتحفّظاته. لم يكتفِ أبي بمجيئي إلى العالم، وأمل أن يُرزق بصبيّ آخر. لكنّ أمّي ما عادت تتحمّل الوضع، وكانت تخشى على صحّتها. ولأنّ أبي كان يتحرّش بها، تقوقعت على ذاتها وسلّمت نفسها روحًا وجسدًا للامبالاة السوداوية الماكرة.

لربّما هربتُ من المنزل لأنّني ما عدت أطيق أن أتحمّل الشؤم الذي كانت تجسّده. وكانت خلافاتي مع أبي تنبع في الدرجة الأولى من هنا: كنتُ ألومه على معاملة أمّي كدابّة حملٍ.

– اجلس بالقرب منّي يا بنيّ. دعني ألمسك وألمسك، وأتأكّد من أنّك فعلًا هنا، معي.

– أنتِ لستِ في حلمٍ ماما.

– بلى، أنا أحلم. أنتَ حلمي يا خليل. أخبرني كيف أصبحت حياتك، وأين نفيت نفسك، وكيف تعيش؟

– كنتُ في دورة تدريبية في أنتويرب. أحاول إتقان النجارة كي أفتح ورشتي الخاصّة.

– وهل هذا سبب لكي تتصرّف كأنّني لست موجودةً؟ لا يكلّف اتّصال هاتفي واحد الكثير. كنت قلقة، أتعلم؟ اختفيت وبدأت أتخيّل الحوادث على أنواعها والهموم على أشكالها.

– كان يطمئنني على حاله بين الحين والآخر، ذكّرتها زهرة. كان منشغلًا للغاية، هذا كلّ ما في الأمر. وها قد عاد اليوم. استمتعي بوجوده.

كانت زهرة قد حضّرت الفطائر وبعض الشاي بالنعناع. وبينما كانت تملأ أكوابنا، رحت أحدّق في الجدران الباهتة، وقطع الأثاث القليلة البدائية التي كانت حالتها تتدهور هنا وهناك. وكانت الستائر، المعلّقة على النوافذ، تحمل الغبار في طيّاتها. لم أعد أتذكّر منذ متى كانت معلّقة تلك الستائر. لربّما منذ الأزل. كانت صورة قديمة لكبير العائلة الحاجّ سيدي عمران، المتوفّى منذ نصف قرنٍ، تطلّ علينا معلّقة بمسمارٍ، لم يأبه أحدٌ يومًا بتغيير زجاج الإطار المتصدّع. وعلى كومودينا متصدّعة، كانت مزهرية سوداء تعرض باقة من الأزهار الاصطناعية.

استولى على كياني استياءٌ ملتبسٌ، استياءٌ أشبه بسديم مشؤوم.

لم أذق طعم السعادة يومًا في هذا الكوخ.

بدأت أمّي تخبرنا عن رحلتها إلى المغرب: عن جدّتي التي حكمت عليها سكتتها الدماغية بتمضية باقي أيّام حياتها في الفراش؛ وعن دفن أنيسة الذي أثّر في كلّ القبيلة؛ وعن عمّنا الذي زوّر وثائق من أجل تسجيل الأراضي الموروثة باسمه، مجرّدًا بالتالي عائلتنا من حصّتها من الإرث؛ وعن ابنيْ خالتنا الأخرى اللذيْن تاها في البحر في طريقهما إلى إسبانيا...

– لكن ماما، قاطعتها زهرة، ثمّة أحداثٌ أخرى في الريف غير المصائب. فلا يزال الناس يتزوّجون هناك، ويحتفلون بمناسبات سعيدة، ويبنون منازل فخمة ويربحون في الرهانات الرياضية.

أقرّت أمّي بكلّ رحابة صدر. وعندما تعذّر عليها أن تروي أيّ قصّة جميلة، التزمت الصمت.

لم أكن أصدّق متى أرحل. كانت الدقائق تمرّ كأنّها ساعات.

أخرجت من جيبي مبلغًا من المال الذي أرسله الياس.

– إنّه لك ماما.

– لا، احتفظ به. أنتَ بحاجة إليه أكثر منّي. فأنا لا ينقصني شيء.

– خذيه، أرجوك. اشترِي به ما تريدين. أنا أعرف أنّ أبي البخيل لا يرحم من تمتدّ يده إلى محفظته.

– لا تتكلّم عن والدك بهذه الطريقة. يبذل قصارى جهده. من الصعب تأمين القوت اليومي عندما نكسب عيشنا من بيع الخضار. يجدر بك أن تتصالح معه. هو ليس شخصًا سيّئًا، بل كئيب. هل تعرف أنّه يفتقدك؟ كم يرغب في أن يكون فخورًا بك.

كنتُ أتمنّى أن أقول لها أنّ والدي ليس سوى ساكن كهوفٍ من دون قلب، لكنّني حرصت على عدم إفساد لقائنا. وضعت الأوراق النقدية في يدها رغمًا عنها. تظاهرت برفضها خجلًا، قبل أن تقبلها.

لم أبقَ لتناول الغداء مع أمّي، على الرغم من إصرار زهرة.

فلم تكن لديّ أيّ رغبة في السماح لأبي باحتضاني.

قبل أن أغادر، توجّهت إلى غرفتي كي آخذ بطاقة هويّتي وجواز سفري، إضافة إلى بعض الملابس وساعتي التي كنتُ قد اشتريتها في فترة التنزيلات.

8

لا استدعاء إلى المخفر بعد حتى الآن.

ولا مداهمة من الشرطة لمنزل أبي.

ولا أثر لالياس حتى.

كأنّ قدميّ لم تطآ باريس يومًا. وكأنّني كنت في حلمٍ واستيقظتُ منه متقمّصًا شخصية خليل ما قبل جمعية التضامن الأخوي. عدتُ إلى سابق عهدي، ذلك الشخص العادي التافه الذي كان ينتظر هبوط الليل ليخلد إلى النوم، وطلوع الشمس كي يعاود انتظار الليل. كان صاحب العمل التركي يستغلّني إلى أقصى درجة. كنتُ خادمه الشخصي. فعندما لم يكن من أثاث أسلّمه أو أركّبه، كان يرسلني للتبضّع لزوجته. وعند الساعة السابعة مساءً، كان ينزل باب الحديد وأنا داخل المحلّ، ويقفله مرّتين على التوالي من دون أن يترك لي المفاتيح، خشية أن أفرّ في اللحظة التي يدير فيها ظهره. كان قد وضع تحت تصرّفي في الحجرة الصغيرة في مؤخّر المحلّ تلفازًا صغيرًا محمولًا لا يلتقط إلّا قلّة قليلة من المحطّات، إضافة إلى ترموس للقهوة، وعين غاز كهربائية، وسريرًا صغيرًا قابلًا للطيّ والنقل. لم يكن يلزمني أكثر من ذلك. صحيحٌ أنّ المكان كان ضيّقًا بعض الشيء، لكنّني لم أكن أشتكي. ولأحلّ مشكلة أرقي في جوّ من الهدوء، كنتُ أشغل نفسي بعدّ العناكب الميتة في حدائقها المعلّقة، وأستمع إلى صرير الفئران في الظلمة. وعندما كان الصمت يرعبني، كنتُ أتلو آياتٍ

من الذكر الحكيم بصوتٍ عالٍ كي أؤنس نفسي في وحدتي. وقد نجحت في تحويل صدى صوتي إلى محاور يبادلني أطراف الحديث.

مرّ أسبوعٌ على هذا النحو. لم ألتقِ خلاله أخًا واحدًا. لقد سلّمت الكثير من الأثاث في مولنبيك: غرفتَي نوم أو ثلاثًا، ومكتبًا في الشارع الذي كان إدريس يؤجّر فيه استوديو صغيرًا كان يستأجره بدوره، وهو يقع في مبنى فوق مطبعة، إضافة إلى عددٍ من المنضدات، إلّا أنّني لم ألمح طيف أخٍ واحدٍ. كانت طيور الأبابيل قد تبخّرت. كأنّ الأرض قد ابتلعتها…

فليسامحْني الله، لكنّني شعرت بنوعٍ من الفرح لعدم التقائي بهم.

مررتُ مرّتيْن أمام مطعم الجمعية من دون أن أشعر بأيّ شيء. إنّه لشعورٌ غريبٌ. لم أكن أفتقد رفاقي في الإيمان. لو قيل لي، قبل شهرٍ من اليوم، أنّني أستطيع العيش من دون إخواني، لما كنتُ صدّقت ولو وهلة. كنت قد أدمنتُ صحبتهم إلى درجة بتُّ جزءًا لا يتجزّأ منهم، ومن منظّمتهم. منذ أكثر من سنة وأنا لا أعاشر سواهم، بعدما انقطعت عن باقي العالم. ما عدتُ أرتاد الحانات، ولا دور السينما، ولا ملاعب كرة القدم، ولا قاعات الاحتفالات. ما عدت ألتقي بأصدقاء الطفولة الذين لم يلتحقوا بالتضامن الأخوي. ما عدتُ أخرج بصحبة أصدقاء من البلجيكيين الأصليين والبلجيكيين المجنّسين، كما كنّا نخرج معًا في الأمس، نتأبّط أذرعة بعضنا بعضًا، ونجلس على مقاعد الساحات العامّة نفسها، ونتقاسم الوجبات في ما بيننا. عندما تعهّدتُ الولاء للشيخ، اضطُررت إلى الانفصال عن حياتي السابقة، ونكران كلّ من لا يؤدّي الصلاة، وأخذ حذري ممّن لا يساهم ماديًّا بمشاريع الجمعية. وها أنا الآن، في أقلّ من أسبوع واحدٍ، أسلّم الأثاث إلى كفّار. والغريب في الأمر، أنّني ركّبت خزانة في منزل زبونٍ كانت تفوح منه رائحة الخمر ولم أرفض إكراميّته رغم أنّها كانت بخسة. أُوقفْتُ مرّتيْن لدى مروري أمام حاجز، وقد طلب منّي عناصر الشرطة أوراقي قبل أن يعيدوها لي من دون أيّ مشكلة. «ما الذي تنقله في شاحنتك الصغيرة سيّدي؟ – أثاثًا. – هل يمكننا إلقاء نظرة؟ – بالطبع.»

وبعد التأكدّ من صحّة إجابتي، سمحوا لي بمتابعة طريقي متمنّين لي الوصول بالسلامة.

كان الأمر يفوق حدود الخيال.

وفي الأمس، كنتُ أحاول، وأنا مستلقٍ على سريري، أن أستوعب ما يحدث لي. كانت الأيّام تمرّ، من دون حصول أيّ جديد. وكان عملي لحساب الرجل التركي يرغمني أحيانًا على مصافحة الكفّار، والانفراد بامرأةٍ نصف عارية تصرخ في وجهي كأنّني أعمل لحسابها. كنتُ أقول لنفسي أنّ الذنب ليس ذنبي، وأنّني بحاجة إلى سقفٍ يؤويني بانتظار اتّضاح مصيري. وكنتُ ألوم الياس لأنّه تخلّى عنّي وتركني وحدي أواجه مصيري. غالبًا ما كنتُ أفكّر بقصّة «الحزام الناسف» ذاك، وبالاستنتاجات التي توصّلت إليها. حتى أنّني بدأت أشعر، أستغفر الله، بنوعٍ من الشرعية لأعود وأعيش بين الآخرين، لا سيّما أنّني نُبذت من جماعتي، ورحتُ أستحسن في قرارة نفسي الإخلال بالشروط.

إلّا أنّ الله لم يغفل عن أخطائي.

وسرعان ما نزل غضبه عليّ.

كان وقت استراحة الغداء. وكنتُ قد اشتريتُ سندويشةً من أحد مطاعم الكباب، وكنت أستعدّ لقضمها حين بدأ هاتفي بالاهتزاز. كانت أختي التوأم في الطرف الثاني من الخطّ.

– ما الذي فعلته ليزّة؟ سألتني.

– لا شيء. لماذا؟

– لقد فقدت صوابها. وتريد منك أن تتّصل بها على الفور.

– هل وقع مكروهٌ؟

– اكتفت بالقول ستقع في ورطة كبيرة إن لم تتّصل بها على الفور.

– هل لديك رقم جوّالها؟

– لا تحمل جوّالًا. اتّصل برقمها الثابت. هي في المنزل. وعاود الاتّصال بي عندما تنتهي من التكلّم معها. أريد أن أعرف ما يجري.

خرجت إلى الشارع كي أتّصل بيزّة. رفعت السمّاعة عند الرنّة الأولى.

كاد صوتها يخترق طبلة أذني.

– اسمعني جيّدًا، أنتَ. إنّها الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرون ظهرًا. سوف أكمل وجبة الغداء بكلّ هدوء وأعاود الذهاب إلى العمل. إذا وجدت عند عودتي إلى المنزل قمامتك في مكانها الحالي، فأقسم لك بحياة أمّي أنّني سآخذها شخصيًّا إلى المخفر وأسلّمها باليد إلى رئيس الشرطة.

– عمّ تتحدثين؟

– عن القذارة التي خبّأتها في المخزن.

– أيّ قذارة؟

– لا أستقبل أحدًا سواك في منزلي.

أقفلت الخطّ بشراسة.

بدأ عرقٌ باردٌ يتصبّب منّي. واضطُررت إلى الاستناد إلى حائط كي لا أنهار.

عقد ربّ العمل، الذي كان يراقبني من خلال الزجاج، حاجبيْه سائلًا:

– هل من مشكلة يا خليل؟

استغرقت بعض الوقت قبل أن أستعيد رشدي. شعرتُ بصعوبة في الابتلاع، بعد أنّ جفّ حلقي واضطربت أنفاسي. أمّا ساقاي، فكانتا تهدّدان بالاستسلام والرزح تحت ثقل جسدي.

– هل يمكنك أن تعيرني سيّارتك؟ إنّها مسألة طارئة.

– لم أنتهِ من تسديد أقساطها.

– أتوسّل إليك. إنّها مسألة حياة أو موت.

– أعتذر، لا أسمح حتى لابني بأن يقود سيّارتي. لقد كلّفتني مبلغًا طائلًا. هل تريد أن أطلب لك سيّارة أجرة؟

أمسكت رأسي بيديّ. كان من الضروري أن أجد حلًّا على الفور. لم تكن يزّة تمازحني.

اتّصلت بريان.

– أنا في المكتب، قال لي. لا أستطيع المغادرة.

– المسألة في غاية الخطورة.

ساد صمتٌ على الخطّ.

– أنتَ هنا؟

– أفكّر.

– أحتاج إليك وعلى الفور.

– دعني أرَ ما يمكنني فعله.

– كلّ ما تستطيع فعله هو الركوب في سيّارتك والتوجّه إلى حيث أعمل لاصطحابي. إنّها مسألة حياة أو موت.

وجدني ريان على الرصيف، كنت قاب قوسيْن أو أدنى من أن يُغمى عليّ.

ركبت السيّارة راجيًا إيّاه الإقلاع على الفور. وقد دقّت التعابير التي رآها على محيّاي ناقوس الخطر في رأسه.

– ما مسألة الحياة أو الموت تلك؟

– من فضلك، لا تطرح علي أسئلة. أشعر بلهيب في دماغي. فلنذهب إلى مونس.

غادرنا بروكسل المزدحمة. كان كلّ مفترق طرقٍ، وكلّ توقّف يزيد حدّة عصبيّتي. كنتُ ألعن إشارات المرور الحمراء، وأشتم السائقين الرعن، والسائقين العجز الذين كانوا يقودون كأنّهم يمشون على بيض. لم ألتقط نفسًا إلّا عندما نفذنا إلى الطريق السريع الذي يصل بروكسل بمونس.

لم أكن أنتبه إلى أنّني أنظر إلى ساعتي كلّ ثانيتين. وقد تخدّرت أناملي من شدّة النقر على لوحة القيادة.

– أنتَ توتّرني يا خليل. ما الذي يحصل؟

– إنّها أختي الكبرى. تعاني اكتئابًا وتهدّد بالانتحار.

– يا للهول!

راح ريان يتجاوز السيّارات، الواحدة تلو الأخرى، ويداه ملتحمتان بعجلة القيادة. كان يرجوني، بين الحين والآخر، أن أهدأ. لم أكن أستمع إليه، بل كنت أركّز نظري على عقارب الساعة.

وصلنا إلى مونس في أقلّ من ساعة. ركن ريان سيّارته في أسفل المبنى. هرعت إلى بيت الدرج، وصعدتُ السلالم كلّ أربع درجات معًا وصولًا إلى الطابق الخامس. لم يكن الوقت يسمح لي بانتظار المصعد. لم تكن أختي في شقّتها. سارعت إلى المخزن. لم يكن حزامي الناسف في المكان الذي خبّأته فيه. انتابني شعورٌ بالفزع. ما عدتُ أرى أمامي، وما عدتُ أسمع إلّا قلبي يقصف داخل صدري. هل ذهبت يزّة بالحزام إلى المخفر؟ لا، وألف لا. لن تفعل هذا بي. بالكاد كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. كنتُ ضمن المهلة الزمنية المحددة. رحتُ أبحث بين الغرفتين، ومررتُ مرّتين في المطبخ قبل أن ألمح الحزام في المجلى. اجتاح هواء عليلٌ كياني. أخذت السترة ووضعتها داخل حقيبة قماش وجدتها في أحد الأدراج، قبل أن أعاود هبوط الدرج بسرعة البرق. وفي هلع استعجالي، نسيتُ أن أغلق الباب خلفي.

استغرب ريان رؤيتي أخرج بهذه السرعة من المبنى.

رميت الحقيبة في الصندوق وركبت السيّارة.

– إذًا؟

– ليست في شقّتها. أخبرتني جارتها بأنّها نُقلت إلى المستشفى، منذ ساعة تقريبًا.

– وأين المستشفى؟

– لا داعي للذهاب. أختي بين أيدٍ أمينة. لا شكّ في أنّها في العناية الفائقة. فلنعد إلى بروكسل. يجب أن أطمئن باقي أفراد العائلة.

– بإمكانك أن تطمئنهم بالهاتف. أعتقد أنه ينبغي عليك أن تذهب لرؤية أختك، وتطمئنّ على صحّتها. وتقابل طبيبها، ما أدراني. لم تعبر كلّ هذه المسافة عبثًا.

– أؤكّد لك أنّ لا داعي لذلك. أشعر بالارتياح الآن وقد أُدخلت المستشفى. لن يخبرني الأطبّاء ما لا أعرفه أصلًا. ليست المرّة الأولى التي تضعنا فيها يزّة في مثل هذا الموقف.

فتح ريان ذراعيه تعجّبًا وأدار المحرّك. لقد أذهله تصرّفي.

لم ينبس ببنت شفة مذ غادرنا مونس. كان يقود ببطء، تائهًا في أفكاره؛ ويهزّ بين الحين والآخر رأسه مفجوعًا، قبل أن يعاود رفع ذقنه وينظر إلى الأمام.

التفت أخيرًا نحوي، حين أصبحنا على بعد أربعين كيلومترًا تقريبًا من بروكسل.

– أتمانع أن أمرّ لرؤية زبونٍ؟ يدين لي بمبلغٍ من المال.

– بتاتًا.

شكرني وسلك المخرج الأوّل من الطريق السريع. تجاوزنا قريةً على الطريق السريع، واجتزنا نصف سهلٍ قبل أن نصل إلى مفترق طرقٍ. تردّد ريان قبل أن يسلك طريقًا فرعيًّا. وكان هذا الطريق، الأشبه بشريطٍ ضيّقٍ مزفّت، يمتدّ على طول نهرٍ محفوف بالأعشاب البرّية. وباستثناء مزرعة بعيدة، كان المكان مهجورًا، خاليًا من روحٍ حيّةٍ تُرزق.

ركن ريان السيّارة عند الجانب الأسفل.

– أين يسكن زبونك؟ أنا لا أرى بيوتًا في الجوار.

– أعتقد أنّ ثمّة مشكلة في العجلة الخلفية. ألم تلاحظ أنّ السيّارة كانت تحيد يسارًا بعض الشيء؟

– لا.

– لا تتحرّك. سأعود.

نزل من السيّارة.

سمعته يفتح الصندوق.

بعد لحظات، وبما أنّه لم يعاود الظهور، التفتُّ كي أرى بما كان منشغلًا. كان ريان يقف وراء السيّارة. ولم يظهر لي سوى طرفٍ من كتفه.

– هل الأمر خطير؟

لم يجبْ.

استغربت، فترجّلت من السيّارة.

كان ريان متّكئًا على الصندوق مصعوقًا وشاحب اللّون. نظر إليّ بعينين يختلط فيهما الذعر بالاشمئزاز والشكّ.

– يا ابن العاهرة، صرخ في وجهي، وعروقٌ ضخمةٌ تتناثر في رقبته.

كانت المرّة الأولى في حياتي التي أسمع فيها ريان يتلفّظ بعبارة بذيئة.

– مسألة حياة أو موت قلت لي؟

كانت حقيبتي مفتوحة تحت قدميه، وجزءٌ من الحزام الناسف مرميّ على الإسفلت.

الغريب في الأمر أنّني لم أبدِ أيّ ردّ فعلٍ. لربّما أدّى الذعر الذي سبّبته لي أختي قبل ساعاتٍ إلى استهلاك كلّ عواطفي.

– كان الأمر يشغل تفكيري منذ اللحظة التي خرجت فيها من المبنى. بدا واضحًا أنّك أتيت كالمجنون لاسترجاع الحقيبة، وليس لإنقاذ حياة أختك. وكنتُ أتساءل عمّا تحويه. مخدّرات؟ أموالًا؟ بعض المسروقات الثمينة؟ توقّعتُ كلّ شيءٍ إلّا هذا.

– ليس الأمر كما تظنّ يا ريان.

– ما أراه يكفيني.

– دعْني أفسّر لك.

– تفسّر لي ماذا؟

لوّح بإصبع أمام وجهي يهدّدني بها:

– إذا أقدمت على خطوة واحدة في اتّجاهي، فسأهشّم وجهك على الفور. تراجع، تراجعْ...

رفعتُ يديّ دليلًا على استسلامي.

– لماذا؟ صرخ. من أجل الجنّة؟ انظرْ حولك، ها هي الجنّة حقيقةٌ تُلمس. انظرْ إلى جمال الريف. انظرْ إلى العصافير على الأشجار. يمكنك أن تركض في الحقول حتى تفقد وعيك. وإذا لم تكن سعيدًا، فانتظر الربيع. ما الذي جرى لعقلك؟

– أؤكّد لك أنّك مخطئ يا ريان.

– منذ خمس دقائق، نعم، كنتُ لا أزال مخطئًا بشأنك. أمّا الآن، فلا. كنتَ في باريس لإقناع إدريس بعدم الإقدام على حماقة، أليس كذلك؟

لقد صدّقتك. لأنّني كنتُ سأفعل الأمر ذاته أنا أيضًا لو كنتُ مكانك. غير أنّك لم تذهب إلى باريس من أجل تفكيك قنبلة بشرية، بل لتفجير نفسك مع ذلك المعتوه.

– صحيحٌ، لكنّني تغاضيتُ عن الفكرة. بإمكانك أن تلمسني، فأنا أقف أمامك بلحمي ودمي. أنا في قيد الحياة. لم أقتلْ أحدًا.

– هذا ما تقوله أنتَ.

– أقسم لك إنّها الحقيقة. لم أقتل أحدًا.

– بلى، لقد قتلتَ أحدًا خليل: لقد قتلتَ نفسك! قتلت نفسك في اللحظة التي انضممت فيها إلى تلك السدم التي تغرقنا في الظلام.

– لمَ ترفض الإصغاء إليّ؟ لقد هدّدوني بالقتل. أقسم لك إنّني لم أكن أريد الذهاب إلى باريس. وإذا كنتُ أقف أمامك، فليس لأنّني هربت، بل لأنّني رفضت اغتيال أبرياء... لست قاتلًا. أتوسّل إليك، لا تستعجل بالحكم عليّ. أنا بحاجة إليك. لا تتخلَّ عنّي. إنّ حياتي في خطر. إنّهم يبحثون عنّي.

نظر إليّ بازدراء، وهزّ رأسه؛ كان يختنق من الاشمئزاز.

– أيّها الوحش الحقير المعتوه. كيف سمحت لهؤلاء الوضيعين بتجنيدك؟ لا أصدّق ما حصل. كنت آوي إرهابيًّا في منزلي، إرهابيًّا حقيرًا يظنّ نفسه بطلًا. (بصق على الأرض، وصفع نفسه) كيف استطعت أن أكون أعمى البصيرة إلى هذا الحدّ؟ أشعر بأنّني في غاية الرداءة والقذارة.

أقفل الصندوق بسرعة وركب سيّارته.

– لن تهجرني في هذا المكان.

– ابتعد أيّها الوغد.

– هل تنوي التبليغ عنّي؟

– اذهب إلى الجحيم.

أدار المحرّك.

ركضت وراء السيّارة؛ أسرع ريان، فاضطُررت إلى التوقّف.

عندما اختفى في آخر الطريق، عدتُ أدراجي. التقطت حقيبتي ثمّ

نزلت إلى خندق بحثًا عن حفرة أدفن فيها حزامي الناسف.

II. كونشرتو في دو صغير – إهداء إلى انتحاري

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

(سورة البقرة، السورة 2، الآيتان 11 و12)

9

بدأت السماء تتّشح بالسواد، فيما لفحت وجهي عصفة هواء جليدي قارس.

كنتُ قد عبرتُ حقولًا تجنّبًا لسلك الطريق، خشيةَ أن يثير وجودي الغريب في الجوار أيّ شكٍّ. كنتُ أهيم إلى وجهة غير محدّدة وفي داخلي غضب عارم، وفي رأسي آلاف الفرضيات المريعة. هل كان ينبغي أن أعود أدراجي إلى بروكسل أم أن أفرّ من البلاد؟ ما عدت أعرف ما أفعل.

بدت قريةٌ في الأفق.

بدأت أركض علّني أعثر فيها على وسيلة نقلٍ.

كان الليل قد أسدل ستاره عندما أوصلتني الحافلة إلى محطّة سان جيل. أقلّتني سيّارة أجرة إلى حيّ هيفارت، وقفتُ في زاوية زقاق متاخم لمراقبة المحلّ، مترقّبًا دويّ صفّارة إنذار أو مجيء سيّارة شرطة. كان صاحب العمل التركي يقف على عتبة محلّه، وقد بدا أنّه يفقد صبره. فخمس من أصل المكالمات الثماني الفائتة التي تلقّيتها كانت منه، في حين كانت الثلاث المتبقية من أختي زهرة.

في العادة، كنّا ننزل باب المحلّ الحديد في الساعة السابعة مساءً. الوقت الآن تجاوز الثامنة. أيعقل أن يكون ريان قد بلّغ الشرطة؟ هل تنصب لي كمينًا؟

بدا الجميع حولي منهمكًا بانشغالاته في أحد طوابق المبنى حيث كنت أقف، كان رجلٌ يدخّن على شرفته. اعتذر منّي بإشارة من يده عندما وقع عقب سيجارته عند قدميّ.

أخرج التركي هاتفه، واهتزّ جوّالي داخل جيبي. وعندما لم يحصل على جواب، أطفأ الأنوار داخل المحلّ وعاد إلى سيّارته المركونة في الموقف.

بقيت متربّصًا في زاويتي لغاية الساعة التاسعة ليلًا. لا سيّارة شرطة في الأفق. ولا دورية روتينية حتى. بدأ مطرٌ خجولٌ يرقّط سترتي. واستدركت أنّني كنتُ أتجمّد من البرد.

ركبتُ الترامواي المؤدّي إلى كاتدرائية كيوكيلبيرغ. لا حركة مشبوهة في محيط شارعي هيركوليرز وجيت. كان المبنى الذي يقطنه أهلي غارقًا في أصداء المساء المكبوتة. رأيت فيليب، الرجل المسنّ جارنا في الطابق الأرضي، يمشّي كلبه، في حين كانت مجموعة من المراهقين تدردش في ظلّ كشكٍ مقفول؛ وبدا رجلان منحنييْن فوق محرّك عربة أكل الدهر عليها وشرب، وخيّل إليّ أنّني سمعت قعقعة مفكّي البراغي حصّتيهما؛ وكانت رائحة الجعّة والبطاطا المقلية تفوح من مطعم الإخوة بردان القذر على بعد كيلومترات.

كانت مصاريع نوافذ شقّتنا مشرّعة، إلّا أنّني لم ألمح خيالًا مألوفًا خلف الستائر.

أخذت الباص متّجهًا إلى المشغل المهجور. لم تكن وسائل النقل تصل إلى مثل هذا المكان، لذا، ترجّلت في الموقف الأقرب من المخبأ. كان الجوّ قد ازداد بردًا. وفي حين كنت أسير عبر الزقاق، التقيت مصادفةً بموكا. كان الرجل الستّيني يجلس تحت مصباح، وسرواله مطويّ فوق ركبته. بدا خدشٌ كبيرٌ على ربلة ساقه.

– صدمتني درّاجةٌ، قال لي. لم يكتفِ الراكب بعدم التوقّف، بل نعتني بالعنيد. أنا؟ عنيد؟

ربضت كي أنظر من قرب إلى ربلة ساقه المجروحة.

– لا يبدو الجرح خطيرًا.
– ربّما، لكنّه يؤلمني.
– هل تستطيع المشي؟
ساعدته على الوقوف. قفز في مكانه، محرّكًا قدمه في كلّ صوب.
– هل أنتَ على ما يُرام؟
– أستطيع تحريك أصابع قدمي، فلا كسر إذًا.
– أتريد أن أوصلك إلى منزلك؟
– لو سمحت.

كان موكا يعزل نفسه في مسكن قذرٍ يقع في أسفل مبنى رمادي كالسماء الملبّدة بالغيوم. في الماضي، كان هذا المكان محلّ خياطة يقصده سكّان المدينة لتصليح ملابسهم. كان الخيّاط رجلًا مسنًّا أعجف، منحني القامة كشجرة الصفصاف البابلي، والوبر يملأ أذنيْه. كان يضع نظّارة سميكة لدرجة أنّ عينيه بدت أنّها تتدرّج على مستويات مختلفة. كان رجلًا غريب الأطوار، خفيف الظلّ وكتومًا، يشبه الشبح لشدّة ذوبانه في ظلمة مشغله. ولطالما تساءلت كيف كان يستطيع الخياطة في العتمة. كان جليًّا أنّه لم يكن يأكل حتى الشبع، ربّما لأنّه يقبل ألّا يدفع له فورًا أكثر زبائنه فقرًا، من دون أن يطالبهم بالمال لاحقًا لتسوية حساباته. غالبًا ما كنت أقصده، برفقة زهرة، لكي يرقّع بزّات أبي. وعندما كان الرجل المسنّ يدير ظهره، كنتُ وبكلّ جرأة أمدّ يدي إلى قاع علبة بونبون اعتاد تركها عند المدخل. كانت أختي ترمقني بنظرات معترضة، وتهدّد بالوشي بي إلى أبي، الأمر الذي لم يحصل قطّ؛ كنتُ أهزّ كتفيّ وأملأ جيبي بالبونبون الحامض الطعمة وأسارع إلى تقديم بعضها لمنصورة، ابنة العشر سنوات المقرفة التي كنتُ متيّمًا في حبّها. بدأ الخيّاط المسنّ يواجه مشاكل مع بعض الشباب المشكوك في أمرهم، الذين كانوا قد اتّخذوا الطريق المسدود المحاذي للمحلّ مقرًّا لهم. وفي ليلة من الليالي، أخذ ماسورته ومقصّه واختفى من دون عودة.

أجهل كيف استطاع موكا أن يحتلّ المكان.

كان أشبه بمكبّ تعمّه الفوضى من الداخل. لا غرض واحدًا في مكانه. كان البرّاد ملتصقًا بالسرير، والفرن الكهربائي موصولًا بمقبس مخرّب؛ كانت كتبٌ ومجلّات متناثرة على الأرض؛ فيما كان صندوقٌ تملأه أكياسٌ فارغة يسند الباب؛ وعلى طاولة عرجاء، كانت فضلات طعام مرمية تنتظر من يلملمها...

– منذ متى لم تُهوِّ المكان؟

– السبب هو البرد، قال موكا. ليس لديّ تدفئة.

– قد تموت مخنوقًا في هذا الكوخ.

هزّ كتفيْه.

– لا آبه! ماذا يمكن أن تخبّئ الحياة بعد لشخصٍ في سنّي؟... اعتبر نفسك في منزلك. إذا كنتَ تشعر بالجوع، فما زال لديّ بعض الجبن في مكانٍ ما.

– العشاء على حسابي الليلة.

خرجتُ أشتري لنا بعض السندويشات من مطعم كباب.

عند عودتي، كان موكا قد قمّط ربلة ساقه بخِرَق. وعلى الرغم من أنّ جرحه كان سطحيًّا، إلّا أنّه كان يتصرّف كجريح حربٍ.

– ما عاد شباب اليوم يكنّون أيّ احترام لأحد، قال بتعابير مبالغ فيها. قد يعبرون من فوقك بكلّ وقاحة، من دون أن يطرف لهم رمشٌ حتى. كنتُ أعبر الطريق بكلّ هدوء، وبوف! وجدت نفسي مستلقيًا من دون سابق إنذار على ظهري. كان بإمكانه أن يضغط الزمّور. إنّما لا، فضّل أن يصدمني بكلّ ما قُدّر له من قوّة ويبتعد كأنّ شيئًا لم يكن. لقد نعتني بالعنيد. أتعي ذلك، أنا، عنيد؟ فعلًا تهانيّ لعالم اليوم.

لم أكن مستعدًّا للاستماع إلى نواحه.

– أتمانع أن أمضي الليلة عندك؟ طردني أبي من البيت.

– إنّه من دواعي سروري.

– لست مضطرًّا إلى أن توافق، اتّفقنا؟

– اعتبر نفسك في منزلك يا خليل. أنا في أمسّ الحاجة إلى من

يؤنسني. يمكنك البقاء قدر ما تريد. لديّ كيس نومٍ لم أستعمله من قبل.

تخلّص من الورقة التي كانت تلفّ سندويشته. وقبل أن يقضمها، هزّ رأسه، واعترف والتجاعيد تغطّي جبينه:

– اشتقت إلى الصبية. منذ أن رُوّج في الجامع لإشاعات عن انحرافي، ما عاد ولد واحدٌ يقبل مصادقتي.

– وصلتني تلك الإشاعات.

– ما يفطر قلبي هو عدم مبادرة أحد إلى الدفاع عنّي. لقد كان معظم أصحاب اللحى هؤلاء من صبيتي، وهم يعرفون أنّني لم أتحرّش جنسيًّا بأيّ طفلٍ قطّ. كانوا يحبّون القصص التي أرويها لهم ويطالبونني دائمًا بالمزيد…

– هل قرأت كلّ تلك الكتب؟ سألته بهدف تغيير الموضوع.

– ومن أين تعتقد أنّني كنت أستوحي كلّ المغامرات التي كنت أقصّها عليكم؟

تناول علبةً وأخرج منها شرائح خبز بالتوابل وقدّمها لي:

– إنها من متجر ميراي أوستر. فخمة. جلبها لي قاسم من ستراسبورغ…

قضم سندويشته وأضاف:

– كان قاسم سيدافع عنّي. إنّه الوحيد الذي يفكّر بي، حتى أنّه يرسل إليّ بعض المال أحيانًا… أنا فخورٌ بهذا الشابّ. أتعلم أنّه يعمل مساعدًا لأحد النوّاب في البرلمان الأوروبّي؟ هل تصدّق ذلك؟ لم يؤمن أحدٌ به.

– إنّه مجرّد مرافق، وجلّ ما يفعله هو جلب القهوة إلى مديره والإمساك بمظلّته.

– لمَ تقول هذا؟

لم أجبْ. وفي الحقيقة، كنتُ أجهل من هو قاسم.

جلست على أريكة ممزّقة، متسبّبًا في إزعاج صرصورٍ ضخمٍ سارع إلى الاختباء وراء مذياع قديم يعود إلى الستّينيّات.

– لمَ يشيعون كلّ تلك الفظائع عنّي في الجامع؟ أحبّ هؤلاء الأطفال

كأنّهم أبنائي. هل هذه جريمة؟

– ليست جريمةً.

– إنّ الجريمة الوحيدة، هي ما يُفعَل بالصبية في الجامع.

– لم تذهب إلى الجامع يومًا موكا. بالتالي، لا تستطيع معرفة ما يدور داخله. أترى؟ أنتَ أيضًا تتّهم الناس من دون أن تعرفهم.

حرّك يده بطريقة فيها من الملل ما فيها.

– أنتَ على حقّ. أمسينا نتفوّه بتفاهات بحقّ أيّ كان في أيّامنا هذه. أعترف بأنّنا عشنا في الماضي فترة الزمن الجميل.

– كنّا في أعمار صغيرة للغاية كي نستدرك مدى قذارة العالم.

– لا أوافقك الرأي. في الماضي، كانت مسامعنا معتادة سماعَ أمور أخرى غير الفظائع. كنّا نلقي التحيّة على بعضنا بعضًا، ونطمئنّ على أحوال بعضنا بعضًا. أمّا اليوم، فنمرّ بالقرب من جنازة ولا نتكبّد حتى عناء التوقّف احترامًا لها.

تناول زجاجة مشروبٍ غازيّ شبه فارغة من البرّاد، والتفت نحوي:

– عندما أفكّر بإدريس، أشعر بالغثيان... كان صديقك. أكنتَ على علمٍ بمخطّطه؟... طبعًا لا. لم يكن أحدٌ يتخيّل أنّه قادرٌ على ارتكاب جريمة بهذه الفظاعة.

أعاد الزجاجة إلى البرّاد، من دون أن يسكب منها ما يشربه، وقد تكاثرت التجاعيد على جبينه:

– لا أستطيع أن أفهم لمَا أقدم على فعلته هذه.

– لكلٍّ واجبه يا موكا.

أومأ برأسه رافضًا:

– الواجب يا خليل هو أن تعيش وتدع غيرك يعيش. ليس هناك ما هو أغلى من الحياة ولا يحقّ لأحد أن يمسّها.

– هل تتذكّر أمادو، ذلك الصبي الأسود من شارع «لا فلوت أنشانتيه»؟

– طبعًا. ما عدنا نراه في الآونة الأخيرة. هل لديك أخبارٌ عنه؟

– لقد لقي حتفه في حادث سيرٍ، حيث كانت الشرطة تلاحقه وهو

يقود سيّارةً مسروقة... أتساءل عمّا كان سيصبح إن لم يقدم أحدٌ على تحطيم قلبه. لربّما لاعب كرة قدم استثنائيًّا تتنازع عليه النوادي الكبرى في رهانات تساوي الملايين. لكنّ الواقع هو أنّه سُحِب من داخل السيّارة القديمة بواسطة لحام غاز. أتعرف لماذا؟ بسبب كلمة... كلمة بائسة. كنّا قد ذهبنا للعب كرة القدم. كم من العمر كنّا نبلغ حينذاك؟ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. لقد حال حارسٌ عملاقٌ متعصّب، أشبه بكلبٍ متوحّشٍ ضخمٍ، دون دخولنا حجرة تبديل الملابس. راودته الشكوك في خصوصنا، فاتّهمنا بتفتيش حقائب اللاعبين الآخرين. وبما أنّ أمادو اعترض، كونه يترأّس فريقه، دفعه الحارس على الحائط وقال له: «عُد إلى أدغالك أيّها الشيكونغونيا الحقير.» من بعد هذه الحادثة، لم يعد أمادو الشخص نفسه، هو الذي كان يتقن فنّ التحكّم بالكرة بطريقة لا يُعلى عليها، والذي كان يحلم بارتداء قميص منتخب بلجيكا لكرة القدم.

عبس موكا، غير مقتنعٍ:

– مرافعتك ليست مقنعة تمامًا... فالموت في حادث سيرٍ والموت في هجومٍ انتحاري، أمران مختلفان.

– الموضوع ليس كيف تنتهي الأمور، بل كيف تبدأ. لا يحتاج المرء إلى كثير من السلبية ليفقد ثقته في نفسه واحترامه لها... وهنا تبدأ المصائب، وتخرج جميع الأمور عن السيطرة. يبدو الأمر تافهًا لكنّه يلقي بمصيرك في الهلاك. ليس هناك أضعف من شخصٍ لا هويّة وطنية له يا موكا.

– وُلد أمادو في مولنبيك، بحسب معلوماتي.

– الإشارة المستمرّة إلى لون بشرته لم تمنحه الشعور بأنّه بلجيكي مثله كمثل غيره. والأمر سيّان بالنسبة إلى إدريس، وبالنسبة إليّ أنا أيضًا، وجميع تلك الحشود الوافدة من أقطار أخرى التي تُهمّش في مناطق معدوم فيها القانون، يدلّ عليها الجميع كلّما جازفت بعبور حدود حديقة الحيوانات التي حصروها داخلها... لا يعير الناس اهتمامًا للكوارث التي يتسبّبون فيها عندما يتلفّظون بكلمات جارحة. المجرمون الحقيقيون

ليسوا من يفجّرون أنفسهم وسط الحشود، بل من مهّدوا الطريق أمام وقوع المجزرة. لذا لا تتسرّع في الحكم على إدريس من فضلك.

– إنّ تفوّه متعصّب حقير بسخافات لا يبرّر اغتيال الأبرياء.

– أهذه هي طريقتك بطردي من منزلك؟

– أبدًا.

– لنغيّر أسطوانة الحديث إذًا. فأنت لا تنفكّ تعيد نفسك.

في اليوم التالي، اتّصلت بي أختي التوأم لتحيطني علمًا بأنّ والدة ريان مرّت بالمنزل لتعطيها الأغراض التي كنتُ نسيتها في شقّة ابنها.

– أين تريدني أن أوصلها لك؟

– أنا حاليّا في أنتويرب فترة يومين أو ثلاثة. اتركيها لدى عيسى الخبّاز... وكيفَ كانت والدة ريان؟ هل دخلت لرؤية والدتنا أم اكتفت بتسليمك الأغراض على عتبة البيت؟

– كانت كعادتها. بقيت فترة نصف ساعة ليس إلّا. ارتشفنا الشاي وتحدّثنا عن المغرب. لا تجري الأوضاع حقًّا على ما يُرام هناك، أتعلم ذلك؟ أخبرني، كيف جرت الأمور مع يزّة؟ هل اتّصلت بها؟

– نعم.

– لماذا فقدت صوابها؟ لم ترغب في البوح بأيّ شيءٍ لي، مدّعيةً أنّ الأمر يعنيكما أنتما الاثنين فقط.

– إنّها تفقد عقلها، جاوبتها، مسارعًا إلى إنهاء المكالمة.

عدتُ أدراجي إلى شارع هيفارت بحذر. لم تتوقّف أيّ سيّارة شرطة أمام محلّ التركي. وعند هبوط الليل، جازفت متوجّهًا صوب المشغل المهجور آملًا أن ألتقي بالبنّاء رمضان أو أيّ أخٍ آخر، لكن دون جدوى.

في اليوم الثالث، استجمعت ما أوتيت من شجاعة، وتوجّهت إلى مكان عملي. كنتُ قد مللت من التسكّع على غير هدى في عالمٍ موازٍ ليس فيه ما يريحني على الإطلاق. لم يثر صاحب العمل أيّ فضيحة، بل اقتنع بقصّة محاولة انتحار أختي الكبرى وزوّدني على الفور بعناوين عمليّات التسليم التي كانت تنتظرني.

بعد مرور أسبوعٍ، دخل شابّ المحلّ، حيث اشترى سريرًا مفردًا وطاولة سرير وخزانة. سدّد المبلغ المترتّب عليه نقدًا وطلب منّي أن ألحق به لمساعدته في تركيب الأثاث الذي اشتراه توًّا.

– لا داعي لأخذ شاحنتك، فقد جلبت شاحنتي الخاصّة، قال لي. هكذا أتفادى دفع تكاليف التسليم.

بدا لي شابًّا لطيفًا، وأوحت لي نظّارته وقصّة شعره القصيرة بأنّه طالبٌ مثقّفٌ. كان يسكن وحده في مبنى هزيلٍ يقع عند أطراف ضاحيةٍ معزولة. ساعدني في تنزيل الأثاث ونقله إلى شقّةٍ صغيرةٍ مؤلّفةٍ من غرفتين في الطابق الثاني، وانتظر في الصالون حتى أُنهي تركيب السرير والخزانة.

كنتُ منهمكًا في توضيب عدّتي عندما تناهى إلى مسمعي صوتٌ من خلفي:

– إذًا، ما رأيك بسكنك الجديد؟

هذا الصوت! كأنّني سمعت صوت الأذان يناديني إلى الصلاة.

قفزت وقوفًا على قدميّ.

كان الياس يقف عند فتحة الباب، يرتدي بدلة رياضة حمراء وسوداء كادت تتفتّق عليه لفرط ضيقها، وقد حلق ذقنه حديثًا. لم أعرفه على الفور من دون لحيته. وقد غمرتني عند رؤيته سعادة كبيرةٌ لدرجة أنّ مفكّ البراغي سقط من يدي سهوًا... من قال أنّني أستطيع العيش من دون إخواني؟ ترّهات. حاولتُ إقناع ذاتي أنّ حياتي من دونهم ممكنة، لكن مجرّد أن عاود الياس الظهور حتى عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي. كان قلبي يؤلمني من قوّة نبضاته. ما عدتُ حطامًا تائهًا، بل وجدت سبيلي من جديد، واستعدتُ مكاني الطبيعي.

فتح الياس ذراعيه لمعانقتي، وكدت أختفي في غمرته العارمة.

لعلّ ضمّ أميري إلى صدري كان بمثابة إمساك السعادة بين يديّ. استعدتُ رائحة ناسي، ودفئهم، وتفانيهم المعدي. انتابني شعورٌ بالراحة، والاطمئنان، والأمان، والسعادة؛ غمرتني كلّ تلك المشاعر في آنٍ وأنّبني ضميري لأنّني حسبتُ يومًا أنّني لن أشتاق إلى إخواني.

أبعدني الياس عنه كي يحدّق فيّ:

– أنتَ في أحسن أحوالك. من الواضح أنّك استطعت تدبير أمورك أفضل منّا جميعًا.

– أين اختفيتم كلّكم؟

– وأين تعتقد؟

– بدأت أفقد الأمل.

– لم يكن هناك داعٍ.

– شعرت بضياعٍ تامّ.

– كنّا نسهر عليك عن بعد.

– لم أشعر بذلك.

دعاني إلى الجلوس، لكنّني فضّلت البقاء واقفًا. وسرعان ما تلاشت فرحة جمع الشمل. فقد عاودت أسابيع القلق التي عشتها اللحاق بي، وجلبت معها الكثير الكثير من العتب الذي كان يمزّق أعماقي في لحظات وحدتي.

– كان بإمكانكم أن تبعثوا إليّ ولو إشارة صغيرة.

– أرسلت إليك رمضان.

– يا له من مرسال جيّد. لم يتكبّد حتى عناء إيجاد سكنٍ يُؤويني.

– لقد وضع مشغل الجمعية في تصرّفك.

– مشغل مهجور.

– مشغل مزوّد بالكهرباء والمياه.

– إنّما من دون تدفئة. كنتُ أنام على كراتين.

وضع يديه على كتفيّ في حركةٍ أرغمتني على الجلوس على السرير الذي أنهيت تركيبه توًّا.

– أرسلتُ إليك المال، ما يكفيك لشراء مدفأة وأغطية... فلننسَ الأمر الآن، لن نضيّع وقتنا في التكلّم عن تفاهات تزعجنا. لم يعش أحدنا في رغد الحياة مؤخّرًا. وقد اضطُررت شخصيًّا إلى الاختباء في أقبيةٍ عدّة. أذكّرك بأنّنا في حالة حربٍ.

في حالة حربٍ... عادت ليلة الثالث عشر من نوفمبر إلى ذاكرتي كوميض البرق. ودوّى طنين صفّارات إنذار باريس في صدغيّ، طنينٌ سرّع وتيرة نبضي وأصابني بقشعريرة لا نهاية لها.

لم أعرف صوتي حين قلت من دون تفكير تقريبًا:

– كان قطار الضواحي السريع مكتظًّا. كنتُ سأحدث مجزرةً. أجهدت نفسي في ضغط الزرّ، ولكن عبثًا.

– نعرف ما حدث.

– إنّما أنا لا. أريد تفسيرًا.

– سيزوّدك الشيخ به في الوقت المناسب.

بإشارة منه، دعا الشابّ الذي بقي ينتظرنا في الصالون إلى الانضمام إلينا.

– أقدّم لك الأخ هادي من تونس. من اليوم فصاعدًا، ستتقاسمان السكن ذاته. أمامكما الوقت الكافي للتعرّف إلى بعضكما بعضًا بصورة أفضل.

– متى يُفترض أن ألتقي بالشيخ؟ لا بدّ من توضيح مسألة الحزام الخاطئ تلك.

رمقني الياس بنظرةٍ فيها من الغضب ما فيها. وبدا التشنّج على فكّيه.

– لن تعلّق تركيزك على هذه النقطة يا خليل.

– تسيطر الفكرة على عقلي. كان يجب أن تراني في باريس، تلك المدينة الغريبة بالنسبة إليّ، من دون أوراق ثبوتية ولا نقودٍ، ووسط حواجز في كلّ زاوية. لم أكن أملك سكّينًا حتى أذبح به نفسي من الوريد إلى الوريد في حال أردت إنهاء حياتي. ماذا كنتُ سأفعل لو أُوقِفْتُ؟

أرسل الياس الشاب التونسي ليشتري لنا ما نأكله. وعندما غادر هذا الأخير، اعترف لي الأمير قائلًا:

– كانت سترة تدريب.

– تدريب؟

– بالضبط. أداة تعليمية. كانت تُستخدم لتدريب المبتدئين من خبرائنا

في مجال المتفجّرات على صناعة الأحزمة الناسفة. لا بدّ أنّ أحدهم أخطأ ووضعها في غير مكانها. كان يجب أن نتأكّد، لكنّنا لم نفعل. إنّه وضعٌ مذرٍ، لكنّه الواقع. يقدّم لك الشيخ اعتذاره، وينوي أن يلتقي بك في جلسةٍ خاصّة لطيّ صفحة هذه الحادثة المؤسفة.

– متى؟

– عندما تسنح له الفرصة. إنّ استخبارات العدوّ تمشّط المنطقة على نطاق واسع، وقد أقدمت بسرعة واضحة على تفكيك تنظيم الشام، الأمر الذي يثبت وجود تسريبات. لا تشعر مجموعتنا بالقلق، إنّما نبقى على حذرنا. المساجد مكتظّة بالمدسوسين. كما أنّ الشرطة نشرت مخبرين في أحيائنا.

أمسكت رأسي بيديّ كي أفكّر. كيف يمكن التفكير وعقلي يتخبّط من الهموم؟ إنّ قصّة الحزام الناسف الخطأ تلك لا تنفكّ تطاردني. ثمّة حلقةٌ في رواية الياس تعيدني إلى رواية رمضان، وقد بدا لي كلٌّ من الأمير والبنّاء ملتبسيْن على حدّ سواء. «نحن على علمٍ بما حصل.» كيف؟ ومن أحاطهما علمًا بإخفاقي في باريس؟ لا أحد، سواي أنا شخصيًّا كان بإمكانه أن يعلم ما حدث داخل قطاع الضواحي السريع. وأنا من كنتُ أخشى أن يعتبروني جبانًا، وأنتظر على أحرّ من الجمر لحظة تبرير ذاتي، والدفاع عن قضيتي، والتلويح بالهاتف المعطّل كأهمّ إثبات على عدم تخاذلي، أملًا بأن يصدّقوني ويعيدوا لي اعتباري. وها هم يعتذرون، ويتعاطفون، ويرغبون في طيّ صفحة هذه الحادثة المؤسفة. كم يبدو الأمر سهلًا.

شعرتُ بنظرة الياس تقع على عنقي كالفأس.

استعدتُ أنفاسي:

– كيف تمّ التعرّف إلى إدريس؟

– كان يملك سجلًّا عدليًّا.

– أتساءل…

– أسئلتك كثيرةٌ يا خليل، قاطعني الياس. وهذا ليس بالأمر الجيّد. أمّا

بالنسبة إلى إدريس، فالاستخبارات مقتنعة بأنّه كان ينتمي إلى تنظيم الشام. وباستثناء والدته، لم يُضَايَق أحدٌ من جانبنا. لم تتعرّض الجمعية لأيّ مداهمة. لا شكّ في أنّ جامعنا يندرج في إطار الأماكن المراقبة، لكن ما من دليلٍ ملموسٍ على اعتباره هدفًا أوّليًّا، فهو يخضع لدرجة مراقبة دور العبادة الأخرى نفسها.

وقفت كي أفتح النافذة. كدتُ أختنق. أنعشني الهواء البارد بعض الشيء. كنتُ ألتقط أنفاسًا عميقة، شهيقًا وزفيرًا، واستدركتُ أنّ يديّ كانتا ترتعشان. لقد حطّمني التحوّل المفاجئ من فرحة اللقاء إلى الأسئلة القاتلة. استندتُ إلى حافّة النافذة في محاولةٍ للصمود. رأيت نيرانًا تتصاعد من داخل برميل في ملعب واسع موجود في الأفق، نيرانًا أشعلها متشرّدون وكانوا يمدّون أيديهم نحوها، واقفين وقفة حرمانٍ وبؤسٍ كمن جزاؤهم جهنّم وبئس المصير.

– ما المشكلة يا خليل؟ أعلم أنّك مررت بلحظات اضطراب عسيرة، ولكن أهكذا يكون ردّ فعل مؤمنٍ كان مستعدًّا للتضحية بحياته؟ عُد إلى رشدك، وبسرعة. إذا تركت الشكّ يتسلّل إلى قناعاتك، فسرعان ما سيخلو الجوّ لإبليس وستكون بذلك قد ظلمت نفسك بنفسك.

– ...

– استدرْ يا خليل. أودّ أن أقرأ عينيْك لأفهم ما يقلق روحك.

لم أملك القوّة الكافية لأستدير.

ألقى الياس قبضةً من حديدٍ على كتفي وأدارني بنفسه. اخترقتني نظرته كالمسبار القاتل. أوّل مرّة في حياتي، انتابني شعورٌ بالخوف إزاء هذا الرجل الذي كان صديق طفولتي، ومرشدي، وأميري.

– بِمَ تفكّر؟

كان من الضروري أن أجد مخرجًا في أقرب وقتٍ ممكنٍ لأنّ مصيري ما عاد ملكًا لي.

سألتُ، راجمًا الغصّة التي كانت تخنقني:

– هل تثق أنتَ شخصيّا في السائق علي؟

– أهوَ من يشغل بالك؟

– ومن سواه؟... هذا الرجل ليس جديرًا بالثقة، تمامًا مثل الأفعى. لو رأيتَ كيف سارع إلى المغادرة لحظة أوصلنا إلى سان دونيس. هجر المكان في لمح البصر. وعندما اتّصلت به كي يعود لإخراجي من المأزق الذي ورّطني به الحزام الناسف الخطأ، حوّلني إلى المجيب الآلي... أنا متأكّدٌ من أنّه سيعترف بكلّ ما يعرفه إذا اعتقلته الاستخبارات.

– ما كان ينبغي أن تتّصل به يا خليل، فذلك مخالفٌ للتعليمات. لكن اطمئنّ، لا يشكّل مصدر خطر بالنسبة إلينا. أمّا في ما يخصّك أنتَ، فلستَ حتى اللحظة على لائحة المطلوبين أو المشتبه بهم. في المقابل، تملك حجّةً من ذهب. ففي ليلة الثالث عشر إلى الرابع عشر من نوفمبر، كنتَ في بروكسل.

– كان يمكن أن تجدوا لي حجّةً أفضل. أنا، أزني مع امرأة متزوّجة، وأمّ فوق كلّ اعتبار؟ كأنّني أرتكب خطيئة الجسد بكلّ ما للكلمة من معنى.

– إنّ مهمّتك أسمى من مشاكل غرورك الصغيرة. إنّها الحجّة التي اخترناها لك، وعليك الالتزام بها، من دون أيّ نقاش. واعلمْ أنّ إخوانًا لنا يعملون نُدُلًا في حاناتٍ وحرّاسًا في كباريهات. ولا يعتبرهم الله أقلّ طهرًا من إمام يقف على منبره. لذا أرجوك لا تكن ملوكيًّا أكثر من الملك. أنتَ جزءٌ من مشروعٍ، أمّا الباقي فانسَه كليًّا. بدءًا من اليوم، ستسكن هنا. إنّه مكانٌ هادئ. كن حذرًا ليس إلّا. ستتابع طبعًا عملك لدى الرجل التركي حتى إشعارٍ آخر، لكنّك ما عدتَ مجبرًا على ملء وظيفة الحارس الليلي. وإذا جرت الأمور على ما يُرام، سنستأنف مهمّتنا بعد شهرين أو ثلاثة. تنتظرنا أعمالٌ كثيرة. في المرّة المقبلة، سنتأكّد من ترسانة الحرب الخاصّة بك قبل إرسالك إلى الجبهة. أتمنّى أن تكون قد بقيت على العهد.

– أكثر من أيّ وقتٍ مضى، قلتُ له من دون تردّد ولو ثانية.

10

لم يبدِ صاحب العمل أيّ اعتراض على قراري عدم الاستمرار في مهمّات الحراسة الليلية. بل انتابه شعورٌ بالفرح لتخفيض راتبي. في نهاية المطاف، ساد الودّ علاقتَنا. وقد حصل أنا تناولنا الطعام معًا في مكتبه بين الحين والآخر، وكنّا نتحدّث في العموميات. وفي بعض الأحيان، كان يترك لي مفاتيح محلّه ويركب سيّارته الفخمة الرباعية الدفع ليذهب في نزهة لا غاية منها سوى التباهي. أعتقد أنّه كان مولعًا بسيّارته؛ إذ اعتاد أن يمضي معظم يومه في تلميعها جزءًا جزءًا، وتعطيرها، وتعقّب الغبار ذرّةً ذرّة، أكان على لوحة القيادة أم على المقاعد الجلدية. كان سليمان يعشق ركن عربته البرّاقة أمام المحلّ بغية إبهار المارّة ولفت أنظار سكّان المنطقة.

كان يحزنني حالُه.

فالمظاهر الخدّاعة تفوق حالات السُكر كافّة بذاءةً، والتبذير يتصدّر أشدّ المحرّمات سخافةً.

لم يحلْ طيش صاحب العمل دون التزامي مهمّاتي. كنتُ أتولى مسؤولية تحديث سجل عمليات التسليم يوميًّا، وأركّز على مردودها المالي بأدقّ تفاصيله، كما كنتُ أهتمّ بالطلبات وأتفاوض مع الزبائن وكأنّ المُلك ملكي. في بداية الأمر، كان الرجل التركي يدقّق عن كثب في الحسابات، مسلّحًا بآلته الحاسبة التي كان يستخدمها لجمع الأرقام كافةً وطرحها بكلّ حذافيرها. إلّا أنّ الأمور أخذت منعطفًا مختلفًا الآن.

فبالكاد بات يلقي نظرةً شكليةً على السندات. وبين الحين والآخر، كان ابنه، وهو شابّ بليدٌ عديم المسؤولية في الثانية والعشرين من عمره، يأتي ليحوم حول الصندوق، فأردعه بقوّة.

وفي المساء، كنتُ أجتمع بالشابّ الذي يسكن معي في الشقّة. لم يكن هادي كثير الكلام، لكنّ حديثه، عندما يجبر على الحديث، كان دائمًا منطقيًّا. وفي رأي رمضان، إنّ الشابّ المتحدّر من أصولٍ تونسية يقبع تحت ثقل شهاداته العلمية، ليس إلّا. فتاريخه، ومساره الأيديولوجي، ووظيفته داخل مجموعتنا كلّها كانت محاطة بالسرّية المطلقة. وفي ليلةٍ من الليالي، وفيما كنّا نشاهد وثائقيًّا في التلفاز حول بروز النازية في ألمانيا، راح يشكّك في الفرضيات الرسمية، مؤكّدًا أنّ أدولف هتلر لم ينتحرْ بل مات بعد انتهاء الحرب بخمس وثلاثين سنةً، في منطقةٍ جنوب الأرجنتين. بالطبع، كان مصير القائد المستبدّ آخر همّي، بيد أنّني كنتُ أؤيّد وبكلّ رحابة صدرٍ نظريات ذلك الشابّ الذي كان يجمعني به سقفٌ واحدٌ. فهادي كان يملك في مخزونه المعرفي كمًّا من الحقائق حول خفايا السياسة الغربية، والمناورات الدولية، والرهانات الجغرافية الاستراتيجية، واتّقاد الشرق الأدنى، واغتيال معمّر القذافي، والنظام العالمي الجديد الذي يعيد النظر في الحدود الموروثة عن الانتداب، بغية إخضاع الشعوب من الدرجة الثانية، والاستيلاء على ثرواتها. كان يستطيع التحدّث ساعتين متتاليتين، من دون التقاط أنفاسه، ليلتزم بعد ذلك ومن دون سابق إنذار الصمت المطلق أيامًا كاملة. كنتُ أشعر أحيانًا بأنّني أعيش مع منافق، كشبح يحوم حولك ويطعنك في الظهر. كان هادي غارقًا على الدوام في كتبه التي لم يكن يضعها جانبًا سوى لأداء الصلاة. فريضة فريضة من دون استثناء. حتى أنّه كان يملك تطبيق الأذان محمّلًا على هاتف الـ«آيفون» خاصّته. ومع النداء الأوّل، كان هادي يلبّي فيقف على سجّادته، مستديرًا نحو القبلة. كان يختار أكثر الآيات طولًا ويبقى ساجدًا فترات طويلة. كنتُ أرى مغالاةً في ذلك، إذ يحاكي السيوف في حدّتها عندما يتعلّق الأمر بالدين، بيد أنّ الحياة معه كانت خالية من العقد. كنّا قد

تقاسمنا الأعمال المنزلية. استلم هو مسؤولية التنظيف، واهتممتُ أنا بالطبخ. كانت مشاهدة التلفاز تستهويني أكثر منه، واعتراضه الوحيد في هذا الخصوص كان على الصوت حيث كان يطلب منّي خفضه عندما يقرأ.

لكنّني تفاجأتُ، صباح يومٍ من الأيّام، وأنا الذي كنت أعدّه من المعصومين، برؤيته يضع علبة واقيات ذكرية في مخزن الأدوية داخل الحمّام. استغرب سخطي:

– إنّني ألبّي رغبة طبيعية ليس إلّا.

– ليس من حقّك.

– بلى، إنّه من حقّي. ومن حقّك أنتَ أيضًا. إن كان مكتوبًا علينا أن نضحّي بأعظم ما نملك في هذه الدنيا، فما الداعي لنترك خلفنا أرملةً وأيتامًا؟ ثمّة فتوى تتيح لنا التمتّع بملذّات الجسد.

– أتقصد بذلك زواج المتعة؟

– زواج المتعة هو تشويه معيب لعقائد الإسلام، وليس سوى مناورة شيعية دنيئة هدفها تشريع الفسق خارج إطار الزواج، الأمر الذي تدينه أحكام الشريعة إدانةً قطعية. وليس لذلك علاقة بتاتًا بالاستثناء الذي تمنحه القاعدة للمحاربين أمثالنا أنا وأنتَ. طبعًا ثمّة من يمتنع، لكنّ مكانة هؤلاء ليست أسمى من مكانة الذين يستسلمون لنداء الغريزة الشرعي.

أنا شخصيًّا، كنتُ أفضّل الامتناع.

عندما كان هادي يعود من لقاء، كنتُ أسعى إلى سحب الكلام منه، لمجرّد فتح حديث، إذ لم أكن أطيق صمته. وهو، كان يكتفي بالابتسام وتركي أتأكّل من الفضول.

أوقفت السلطات الإمام صادق في منزله بغية ترحيله إلى المغرب. وكان هذا الموضوع في صدارة عناوين نشرات الأخبار المسموعة والمرئية. كانت البرامج الحوارية تستضيف الخبراء، وكبار المراسلين، والمدافعين عن حقوق الإنسان، ونجوم السياسة الواحد تلوَ الآخر، ليستعرضوا آراءهم بقرار الترحيل، منقسمين بين مؤيّدٍ ومعارض. أمّا في

الرباط، فكان الشارع يشهد حراكًا احتجاجيًّا، رافضًا أن يتحمّل عبء «أصولي» يحمل جواز سفرٍ بلجيكيًّا، سبق للمملكة الشريفة أن جرّدته من جنسيّته.

وفي هذا السياق، كنتُ قد تابعت مداخلة محامي الإمام على الراديو. وفي الحقيقة، لم يسلم الهواء من الجلبة والشتائم.

هبّت رياح الإنذار على نقاط تجمّعنا.

لم يقع مقرّ التضامن الأخوي ضحيّة أيّ مداهمة، إلّا أنّنا قلّلنا عديدنا ليقتصر على العنصر النسائي والطهاة، إضافة إلى عدد من المتطوّعين البعيدين كلّ البعد عن الشبهات.

وكان أميرنا الياس قد اختفى نهائيًا بعد أن سلّم رمضان زمام المرحلة الانتقالية.

رمضان شخص انتهازي؛ كان يكفي تسليمه مهمّات حراسة جروٍ كي يسارع إلى إخضاع كلاب الجوار لإمرته، معتبرًا نفسه الآمر الناهي بكلّ ما للكلمة من معنى. كان يدقّق في الجانب اللوجيستي، ويستدعي من يروق له في أوقات مستحيلة ولأسباب تافهة. أمّا بالنسبة إلى موضوع التكتّم، فكان سيثير شكوك كلبٍ مسنّ ذي عاهةٍ، لشدّة مسارعته إلى التبجّح من خلال صبّ كلّ الأحاديث في خانة إنجازاته الشخصية. كان يسعى إلى إقناعنا بأنّه يد الشيخ اليمنى. طبعًا، هو منافق. فلم يكن رمضان سوى مذعن يواظب على التزلّف ولا يعلم كيف يصون لسانه. وهو ذاته من أخبرني كيف اكتشف كلٌّ من الأمير والشيخ ما حدث معي داخل قطار الضواحي السريع.

– لأنّه بالضبط لم يحدث شيءٌ في حين كان العكس متوقّعًا، أجاب.

أخبرني بأنّه في ليلة الثالث عشر إلى الرابع عشر من نوفمبر 2015، كان الشيخ والياس والإمام صادق وصهره جميعهم موجودين في مدينة شارلروا، وبالتحديد في منزل زوج أخته، وهو صاحب المكتب العقاري نفسه الذي أدين له بسكني الجديد. كان الرجال الستّة مجتمعين حول

مأدبة عشاء فاخرة لم يلمسها أحدٌ منهم. كانت محطّات الأخبار تعيد بثّ حالة الذعر التي نجمت عن الهجمات في منطقة إيل دو فرانس وتكرّرها.

– كنّا جميعًا قلقين جدًّا، إذ إنّ الهجمات المخطّط لها داخل الملعب لم تقع. ولم يفهمْ الياس سبب إقدام مبعوثَينا الخاصّين (مرفقًا عبارته بحركة من أصابعه تدلّ على علامة اقتباس) على تفجير نفسيْهما خارج المجمّع. وبدا أنّ العملية تفشل بالكامل. حينذاك، دعانا الإمام صادق إلى الوضوء من جديد والصلاة لأجلك، فقد كنتَ ملاذنا الأخير. وكانت المشاهد التلفزيونية تنتقل من مسرح باتاكلان إلى الترّاسات المحيطة بساحة الجمهورية، وتعود إلى الهجمات الفاشلة في سان دونيس، إنّما لم تذكر وقوع أيّ حادثٍ مهمّ في قطار الضواحي السريع. بقي الأمر على ما هو عليه حتى الساعة الثانية فجرًا. لا أنباء تُذكر. بالنسبة إلى الياس، كان ثمّة احتمالان: إمّا أنّك تراجعت، أو أنّ الشرطة أوقفتك. وفي الحالتيْن، كنّا في خطر. فأمرنا الشيخ حينذاك بالافتراق فورًا، وذهب كلٌّ منّا في سبيله.

– اتّصلت بالسائق علي.

– أنسيتَ أنّ استخدام الهاتف ممنوعٌ. لم يكن باستطاعة علي أن يكلّمنا أو يعاود الاتّصال بك أنتَ... لقد هيمن التعتيم على الأيّام الأولى التي تلت الهجمات. فقد اختبأت مع الشيخ في مكان آمن في شارلروا. وبما أنّك لم ترسلْ أيّ إشارة تدلّ على أنّك بقيت في قيد الحياة، اقتنعنا بأنّك اعتُقِلت وأنّ الاستخبارات كانت تستجوبك سرًّا كي تقودها إلينا. ولم نعلمْ بعودتك إلى بروكسل إلّا بعد أن أحاطنا خبير المتفجّرات علمًا بزيارتك إيّاه. وبهذه الطريقة عرفنا سبب عدم وقوع أيّ هجمة داخل القطار، وأدركنا أنّ لا ذنب لك في الموضوع. لا أنكر أنّنا شعرنا جميعًا بالارتياح، لكن كان ينبغي أن نعثر عليك في أسرع وقتٍ ممكن. حينذاك انتُدِبتُ للبحث عنك، وتكلّلت مهمّتي بالنجاح. هذه هي القصّة من الألف إلى الياء.

– ظننتم أنّني تراجعت؟

– في البداية، نعم.

– هل أوحي إليكم بكلّ هذا الجبن؟

– لا تُسئ فهمنا يا خليل. ففي ظروف كهذه، لا بدّ من توقّع الأسوأ دائمًا. وإلّا كيف يمكن اتّخاذ الإجراءات الجذرية الضروريّة؟ ها أنتَ هنا الآن، بيننا، أكثر عزمًا من أيّ وقتٍ مضى. وأؤكّد لك أنّ الشيخ يرى فيك بدل الفخر فخريْن، أوّلًا لشجاعتك، وثانيًا لحفاظك على رباطة جأشك حين كنتَ غارقًا في وحدتك.

غمرني وطبع قبلةً على جبيني، في شهادة احترامٍ عادةً ما تكون حكرًا على أصحاب الشأن الرفيع دون سواهم داخل الجمعية.

شعرتُ أخيرًا بأنّني تطهّرتُ من السمّ الذي كان ينهش أمعائي وفكري. لكن إذا كان فشل مهمّتي في باريس يُعزى إلى خطأ مؤسف أصبح طيّ النسيان، فإنّ الشكوك المحيطة بقصّة السترة «التدريبية» بقيت تراودني. ولنفترض أنّ حزامي الناسف قد شكّل على الأرجح عيّنة اختبارية للمتدرّبين في عالم المتفجّرات، فكيف يمكن تبرير تحميل الحزام بشحنة متفجّرة حقيقية؟

انتهى الكرّ والفرّ بترحيل الإمام صادق إلى المغرب.

– سوف تلتهمه واوية الأطلس حيّا لحظة نزوله من الطائرة، توقّع هادي قائلًا.

– سوف نثأر له، وعد رمضان مجيبًا.

كنتُ أرتشف القهوة في أحد المقاهي، بالقرب من المحلّ. وكان مدمنو رهانات سباق الخيل يثرثرون هنا وهناك، في حين كانت فتاةٌ رخيصة تدخّن في الشارع وهي تتحدّث إلى رجل أسود بطول الرمح. وإلى المنضدة، عجوزان متقاعدان عن الاتّفاق على أداء أحد الأحصنة، فنصحهما الساقي بالرهان على فرسٍ تُدعى جامبر. كانت زوجته خلفه تغسل الأكواب بملامح كئيبة.

كانت إحدى المحطّات تعرض، في شاشة بلازما معلّقة على الحائط، تقريرًا حول سيرك، توالت خلاله مشاهد عن خيمةٍ متلاشية، وسنَّوريات نحيلة وراء قضبان أقفاصها، ومهرّج يشتكي من ظروف عمله مُحاطًا

بمجموعة من البهلوانيين يهزّون رؤوسهم توكيدًا لكلامه. ثمّ توقّف العرض، وخلت الشاشة لنشرة الأخبار. كانت المذيعة تعلن خبرًا عاجلًا.

– ارفع الصوت، صاح أحد الزبائن.

شغّل الساقي جهاز التحكّم عن بعد.

أعطت المذيعة الكلمة إلى أحد المراسلين، الذي التفت، وهو يمسك بالميكروفون، إلى تمثال مانيكن-بيس، المُطوّق بحزامٍ أمني والمُحاط بشاحنات بوليسية. وفي المشهد عينه، كان رجال شرطة مسلّحون يحاولون إبعاد الفضوليين.

– يبدو الأمر في الوهلة الأولى أنّه هجومٌ إرهابي لم يوقع لحسن الحظ أيّ ضحيّة، قال المراسل. فقد حاول رجلٌ طعن عنصريْن من القوى الأمنية. وبحسب شهود عيان، هتف الرجل الثلاثيني عاليًا «الله أكبر» قبل أن يلقي بنفسه على الشرطييْن، ملوّحًا بسكينٍ صوبهما، الأمر الذي أرغمهما على إطلاق النار. وفي التفاصيل، نُقِلَ المعتدي إلى أقرب مستشفى. وتفيد تقارير الشرطة بأنّ هذا الأخير أُصيب بجروح طفيفة ليس إلّا.

– الحقير، صاح الساقي. كيف تمكّن من الاعتداء على شرطييْن مدجّجيْن بالسلاح، ملوّحًا بسكّين وصارخًا. يا له من خبرٍ عجيب!

– سينقص عدد الحمقى على سطح الأرض واحدًا، صاح أحد المتقاعديْن.

عدتُ أدراجي إلى المحلّ.

في اليوم التالي، تصدّرت صورة الأخ الصحف اليومية، حيث عنونت صحيفة «لو سوار» صفحتها الأولى «انتحاري مانيكن-بيس». أكّد قائد الشرطة أنّ المعتدي، الذي كان مجهولًا للقوى الأمنية والذي قضى في سيّارة الإسعاف متأثّرًا بجروحه، كان يتزنّر بحزامٍ ناسفٍ مصطنعًا.

لم أعد أفقه شيئًا من شيء.

تلقّيت اتّصالًا من رمضان انتشلني من نومي عند منتصف الليل.

– أرجو ألّا أكون قد أيقظتك؟

– فات الأوان، لقد أيقظتني توًّا.
– متى تقفل محلّك؟
– عند الساعة السابعة مساءً.
– حسنًا. سأرسل أحدًا لاصطحابك غدًا عند السابعة تمامًا.
– لا ترسلْ علي لو سمحت. قد أهشّم له وجهه.
– ما عاد لديه وجهٌ لتهشّمه.

تجمّد الدم في عروقي، فثمّة ما أخافني في صوته. (لاحقًا سوف أعرف أنّ السائق علي لم يعد قطّ في ليلة الثالث عشر إلى الرابع عشر من نوفمبر إلى منزله. فقد عُثِرَ على سيّارته متفحّمة في أرض واسعة، من دون أيّ أثر لجثّته.)

في اليوم التالي، في الموعد المحدّد، أتت سيّارة أجرة إلى شارع هيفارت لتقلّني، يقودها برونو ليستن الملقّب بزكريا. أصبح وحش صفّ المرحلة المتوسّطة الثانية، الذي كان يرعبني أيّام المدرسة، شخصًا مختلفًا. تزوّج بفتاة مسلمة واعتنق ديننا. كان ذلك الرجل الفارع الطول، والأصهب كشعلة ملتهبة، من عداد أوّل البلجيكيين الأصليين الذين التحقوا بالجمعية. ولطالما كان يحمل مصحفًا، هو الذي لم يقف يومًا إلّا في الصفوف الأمامية لتأدية الصلاة في الجامع. كما أنّه اعتاد تلاوة بعض السور عن ظهر قلب، وباللغة العربية. كان قدره عاليًا في نظر الشيخ.

لم تربطنا أنا وزكريا علاقة وطيدة، بل كنّا نتعايش ضمن إطار الأخوية، ليس إلّا. ثمّة ما كان يثير انزعاجي في نظرته، وكنتُ أشعر بالاستياء حين نلتقي مصادفة. حتى أنّه بالكاد كان يردّ عليّ السلام. ولم أفهم يومًا سبب تقدير إدريس له. فبرونو لم يكن صاحب كاريزما ولا موهبة، بل كان مثيرًا للشبهات، ومتحفّظًا، ويعطي انطباعًا بالتلذّذ في مضايقة الناس حوله.

– برونو؟
– زكريا، صحّح لي.
– لم أتوقّع رؤيتك.

– ولا أنا، ردّ ببرود.
– متى عدتَ؟
– من أين؟
– تعرف.
– وما الذي يُفترض بي أن أعرفه؟
– ألم تكن في سوريا؟
اختلج وجهه فجأةً.
– لم أذهب يومًا إلى هناك.
– اعتقدتُ...
– هل أنتَ أصمّ أم ماذا؟ أقول لك أنّني أجهل حتى مكان ذلك البلد المشؤوم على الخريطة.
بيد أنّ اسمه اندرج على لائحة الفيلق الأوّل الذي شدّ رحاله لمحاربة بشّار الأسد. وعلى عكس رفاقه في السلاح، الذين كانوا يقحمون شبكة الإنترنت بصور وأشرطة تظهر انتصاراتهم الجهادية في ساحات المعركة، ملوّحين للبعض منهم برؤوس ضحاياهم المقطوعة، وجارّين للبعض الآخر جثث أعدائهم المعلّقة خلف شاحنات البيك أب، كان برونو يحرص على البقاء في الظلّ.
– من الذي أخبرك بهذا الهراء؟
– هذا ما أعتقد أنّني سمعته.
– سمعته ممّن؟ ليهتمّ كلّ واحدٍ بشؤونه، وإلّا فليتحمّل عواقب فعله. مفهوم؟
– لم أقصد أن أثير حفيظتك.
– ليس من مصلحتك أن تفعل ذلك. فإمّا أن ينطق المرء جمالًا أو ليتجمّل بالسكوت. وإذا كان طلبي هذا ثقيلًا، فسوف أُضطرّ إلى التعاطي مع الأمر على أنّه حالة طارئة. والحلّ واحد فقط لا غير في ما يتعلّق بإسكات الثرثارين، أضاف مهدّدًا. تعليقهم شنقًا بألسنتهم.
لم أصرّ.

حوّل المناول وشغّل السيّارة التي أقلعت مسرعةً. وإذا كان لقطّة أن تعبر الطريق أمامه وقتذاك، كان سيدوسها لمجرّد التعبير عن مدى سخطه من تطفّلي.

– إلى أين؟ سألته كي لا يرى في صمتي ارتدادًا.

– إلى كنوكه-هايست.

– لم يحلّ فصل الصيف بعد.

رمقني بنظرة فيها من الغضب ما فيها. لم يكن برونو يحبّذ المزاح ولا رفع الكلفة.

ربّما لهذا السبب كنتُ أحتاط منه. كان يجسّد حالة خطر كامن بعينيْن تنسفانك من دون سابق إنذار، وبفم يترقّب لينهش لحمك.

– هل يمكنك تشغيل التدفئة؟ الجوّ باردٌ هنا.

لم يشغّل التدفئة ولا الراديو.

سرنا حتى الساحل، عند الحدّ الشرقي من البلاد، من دون تبادل كلمة واحدة.

لدى وصولنا إلى كنوكه–هايست، ركن السيّارة خلف إحدى محطّات الوقود بانتظار الأوامر. أردتُ أن أشتري قهوة ساخنة لكلينا، لكنّ برونو منعني.

– ستجد كلّ ما تريد داخل لوحة السيّارة، قال.

بيد أنّني لم أجد غير سندويشٍ بائتٍ وبارد، إضافة إلى قنّينة مياه معدنية، وكيس بونبون حامض، ولا أثر للقهوة التي اشتهيت.

ألقى برونو نظرةً إلى ساعته قبل أن يتناول هاتفه ويجري اتّصالًا.

– نحن في المكان المحدّد، أخبر محاوره... أين أنتَ؟ (نظر في المرآة. اخترق وميض إشارتي الأضواء الأمامية العتمةَ من خلفنا...) حسنًا لكن لا تسرعْ، فبالكاد نستطيع الرؤية وسط هذا السديم المشؤوم.

تقدّمت سيّارةٌ عنّا. لحقها برونو ملتصقًا بها.

– من هذا؟

– كلّما قلّت معلوماتك، كان الأمر أفضل بالنسبة إلى الجميع...

– ليست هذه الطريق إلى كنوكه-هايست.

– تغيّرت الخطّة، نحن نتّجه الآن إلى زيبروغ.

بلغنا وجهتنا وسط ضباب كثيف. توقّفت السيّارة التي كانت تسبقنا أمام فيلّا فخمة، ثمّ شغّلت الضوء الخلفي الوامض يسارًا وتابعت سيرها. لفّ برونو في اتّجاه المكان المُحدّد. سُحب حاجز مشبك مطلّ على باحة يملأها الحصى، محدثًا بالتالي صريرًا. كان رجلان يحمل كل واحد منهما سلاح كلاشنيكوف يقفان بانتظارنا على عتبة الشرفة.

– لسنا على أرض تجّار مخدِّرات، وبّخهما برونو. خبّئا بندقيتيْكما أيّها الأحمقان. قد يراكما أحد الجيران.

من الواضح أنّ برونو التقيّ لم يتخلَّ كلّيًّا عن لغته القذرة.

قابله الرجلان بتجاهل. أدخلانا إلى ردهة الفيلّا، قبل أن يتركانا في أمانة عملاق أسود يرتدي ثيابًا رياضيةً، ويعودا أدراجهما إلى مركزهما.

استقبلنا الشيخ في صالون ضخمٍ مفروشٍ بأثاث مغربي الطراز. لقد بدت على إمامنا الموقّر علامات التقدّم في السنّ متجلّيةً بكلّ ما للكلمة من معنًى. لم يعانقنا بطريقته المعهودة، بل اكتفى بأن دلّنا على مقعد مبطّن.

كان الياس موجودًا هو أيضًا، جالسًا على بوفة.

الياس فقط، دون أحد سواه.

حلّت أجواء خانقة على الصالة، عكّرت صفوها.

بدا الشيخ في مزاج سيّئ، حيث صرف العملاق الأسود ببرود حين جاءنا هذا الأخير ليسأل عمّا إذا كنّا بحاجة إلى أيّ شيء. اتّكأ الإمام على وسادة، حاملًا سبّحته بيده، ورمقنا أنا وبرونو كأنّه أراد التأكّد من وجودنا.

– سُلّم الإمام صادق إلى قتلته، أحاطنا علمًا. وقد رُحِّلَ على متن طائرة خاصّة. بحسب مصادرنا، كان محتجزًا في مخبأ سرّي في الدار البيضاء قبل أن يُنقل إلى مكان آخر. لقد فقدنا أثره. وممّا لا شكّ فيه أنّ شبّيحة الملك سيعذّبونه حتى الموت بغية الحصول على معلومات بخصوص جمعيّتنا. إنّ الإمام صادق طاهرٌ، لكنّه ليس معصومًا، إنّه من

لحمٍ ودم. لا يمكن أن نستبق ردّ فعله على التعذيب. فالجلّادون طوّروا أساليب متقدّمة قادرة أحيانًا على النيل من أكثر المقاومين ثباتًا. لذا، لا بدّ أن نتوخّى المزيد من الحذر.

– اتُخِذَت التدابير كافّة، طمأنه الياس.

– لكلّ نظام، مهما بلغت قوّته، نقطة ضعف يا أمير.

ثمّ التفت إلينا قائلًا:

– لا يخفى على أحد أنّ الإمام صادق لن يخرج حيّا من عرين الأسد الذي رمته بلجيكا فيه. فنحن نعرف تمام المعرفة وحشية كلاب نظام المملكة الشريفة كي نأمل أن يبدي أيّ نوعٍ من أنواع الإنسانية. فقد سبق أن فقد إخوة كثر حياتهم داخل زنزانات الملك بعد أن تعرّضوا لشتّى أنواع الإهانة، حيث سُلِخَت جلودهم وفُرِّغَت أجسادهم من أمعائها وكان التخلّص منهم رميًا داخل جوَر الصرف الصحّي.

ثنى رقبته مسبّحًا، كأنّه أراد كبح دمعةٍ. أشعرنا تأثّره بالإحراج أنا وبرونو، في حين أرغم الياس نفسه على الحفاظ على سلوك مهيب.

مسح الشيخ دمعةً، لم يتسنَّ لي الوقت لكي ألمحها، وهزّ رأسه. كانت لحيته ترتعش جرّاء جهوده المبذولة لقمع الألم الذي كان يغمره.

وبعد أن ساد صمتٌ ثقيلٌ، عاد يسبّح قائلًا:

– سوف تفتقد قضيّتنا بشدّة الإمام صادق. لقد كان معلّمنا ومرشدنا. لا أكاد أحتمل أن أتصوّره ضحيّةً بين مخالب هؤلاء الوحوش. لديّ شعورٌ بأنّه ما عاد يتعذّب الآن، لكنّ كلاب الملك يملكون القدرة على إحياء الميت من قبره كي يمضوا قدمًا في مهمّتهم القذرة.

ضربَ فخذه بيدٍ حملت من الخيبة ما حملت، وتابع:

– قرّر المجلس الردّ بقوّة. يريد المغرب اللّعب بالنار، فلنسقط عليه لهيب جهنّم. دعوتكما أيّها الأخ زكريا والأخ خليل…

– أنا مستعدّ، قال برونو.

– لم أنهِ كلامي بعد.

– أعرف ما تنتظره منّي يا مولاي.

– لا أنتظر جوابًا الآن، لديكما الوقت للتفكير…

– الأمر محسومٌ، أكّد برونو.

– لا أشكّ بتاتًا في اندفاعك يا أخ زكريا، لكن من الضروري أن تفكّرا مليّا في الأمر أنتما الاثنان، كي لا نترك تفصيلًا فريسةً للمصادفة. يمسّني اندفاعك في الصميم، مثله مثل استعدادك الكلّي لإتمام المهمّة، إلّا أنّني لا أملك الحقّ في عدم منحكما وقتًا للتفكير. وبهذه الطريقة، لن أشعر بأنّني أخذتكما على حين غرّة أو وضعتكما أمام الأمر الواقع. لقد اختاركما المجلس لسبب بسيط. أنتَ يا زكريا، بسبب عائلة زوجتك التي تعيش هناك وسجلّك العدلي النظيف؛ وأنتَ يا خليل بسبب أصولك المغربية وعدم ورود اسمك في أيّ قضيّة. أعترف بأنّ قائمة المرشّحين لا تقتصر عليكما فقط. لذا، سيتّخذ المجلس قراره بناءً على خصوصية المهمّة.

– سوف ألوم نفسي إذا وقع الاختيار على أحدٍ غيري، أصرّ برونو. فبالكاد تقبّلت استبعادي عن عملية باريس في اللحظة الأخيرة. وأنا أنتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر منذ عودتي القصرية إلى بلجيكا. لم أفهم سبب ترحيلي، فلم أكن مستاءً من وجودي على الجبهة. مع كامل احترامي، يا مولاي، أطالب بتنفيذ المهمّة.

هزّ الياس رأسه موافقًا.

– كلّ شيء في أوانه، قال الشيخ. لم يحسم المجلس المسألة بعد.

– أودّ تولّي هذه المهمّة، كاد يصرخ برونو.

– وأنا أيضًا، قلتُ بدوري.

تبادل الشيخ والياس نظرات الرضا.

– أعدكما بنقل طلبكما إلى المجلس.

– لك منّي كلّ الامتنان، شكره برونو قائلًا.

وقف الشيخ لمعانقتنا.

– أنا شخصيّا أودّ أن توكل هذه المهمّة إليكما، اعترف لنا. يحتاج المغرب إلى عقاب صارم. إنّ لهيب حرقة قلبي على الإمام صادق

سيخمد بعض الشيء إذا وقع اختيار المجلس على رجالي لتنفيذ عملية الانتقام.

دعانا لمرافقته إلى صالة أخرى.

– أظنّ أنّكما لم تتناولا العشاء بعد.

– تناولنا وجبةً سريعة.

– ما كان من داعٍ، فقد أقمتُ مأدبةً لنا نحن الأربعة.

لم تكن مأدبةً، بل وليمة.

عدنا أنا وبرونو أدراجنا إلى بروكسل عشيّة اليوم ذاته. ومرّةً جديدة، لم نتبادل كلمةً واحدة.

لم يبدُ برونو مسرورًا. ففكرة مرافقتي إيّاه في عملية محتملة لم تشعره بالاطمئنان قطّ، إذ كان مقتنعًا بأنّ أيّ مؤمن يفشل فشلًا ذريعًا في إتمام أكثر المهمّات الموكلة إليه قدسيّةً، هو إنسانٌ ملعونٌ. ويعتبر كذلك أنّني سأكون مصدر شؤمٍ بالنسبة إلى أكثر المحاربين الأشاوس، وأنّ أنبل المهمّات ستبوء بالفشل إذا كان لي أيّ ضلوع فيها.

لم أبالِ بسلوكه، لا من قريبٍ ولا من بعيد، إذ إنّ برونو لم يكن أهلًا للعتب بقدر ما كان مثيرًا للشفقة.

11

قرع رمضان جرس شقّتي. بدت ملامحه مشحونة بقلق مقصود. أفسحتُ له المجال كي يدخل، لكنّه لوّح رافضًا بامتعاض.

– اتّصلت بك على جوّالك عشر مرّات.

– كان رصيدي خاليًا من الوحدات.

– عذرٌ أقبح من ذنبٍ يا خليل. لا بدّ أن نبقى جميعنا على السمع، ليلًا ونهارًا.

كانت قرابة الساعة الحادية عشرة ليلًا. كنتُ على وشك الخلود إلى النوم، بعد يومٍ حافلٍ. إذ قمتُ خلاله بتسليم خزانتيْن مزوّدتيْن بمرايا وتركيبهما، وكومودينو إضافة إلى سريرٍ طبقي صعّب عليّ مهمّتي.

– عاود ارتداء ملابسك، أمرني قائلًا. لديّ ما أقوله لك.

– ألا نستطيع التكلّم هنا؟

– لا. لنذهب في جولة.

ارتديْت سترةً فوق ثياب الرياضة التي اعتدتُ أن ألبسها للنوم، وانتعلتُ حذائي الرياضي ولحقت به.

كان ضوء البدر الفضّي يعانق الشارع السكني بغمرة ساطعة. وباستثناء طابور السيّارات المركونة على امتداد الأرصفة، كنّا نشعر بأنّنا موجودون داخل مجسّم بالحجم الطبيعي، حيث لا أثر لصوتٍ ولا لظلّ سَهِدٍ. فالناس كانوا يحبسون أنفسهم خلف جدران منازلهم، ويجلسون

أمام شاشات التلفاز، كأنّ لا وجود لهم. والحال أنّني مُذ انتقلتُ للعيش في هذا الحيّ القاتم الكئيب، لم أصادف أحدًا من جيراني.

فتح لي رمضان باب سيّارته القديمة، قبل أن يركب بدوره فيها. استفزّتني مراعاته المفرطة والمصطنعة. صدق من قال أنّ الطبع يغلب التطبّع، إذ كان كثير الفوضى ليبدي هذا الكمّ من التهذيب، وقمّةً في الخداع ليصدّقه أيّ شخص.

شغّل المحرّك، وتركه يهدر بعض الوقت.

– أتعرف مكانًا لطيفًا في الجوار؟

– ثمّة مخفرٌ قريبٌ من هنا.

عقد حاجبيْه، قبل أن ينفجر بالضحك، مستدركًا أنّها كانت نكتةً.

– يا لك من…

– ربّت فخذي، بحركة ودّيةٍ أثارت حفيظتي.

– ألا يوجد مطعمٌ صغيرٌ هادئ في الجوار؟

– نحن في حيٍّ سكني، ولا يوجد حتى محلّ واحدٌ لشراء مجرّد حبل قنّب أو كرسي بلا ظهر.

– أنتَ على حقّ، هذه الأماكن تثير الإحباط في النفوس، قل إنّها مهجعٌ يؤوي أشخاصًا شارفت حياتهم على الانتهاء. (بلع ريقه حين استدرك خطأه). أنا شخصيًّا، تابع على الفور، لا يغمض لي جفنٌ إن لم تكن مجموعة من الشبّان تدردش أسفل المبنى الذي أسكن فيه. وعندما أكون مسترخيًا في دفء سريري ويتناهى إلى مسمعي صوت سيّارةٍ تمرّ في الشارع، يتهيّأ لي أنّ نسمةً عليلةً أتت ودغدغتني برقّتها. أنا أبغض كثرة الهدوء. أتذكّر أنّني في مرّة من المرّات كنت أشارك في ورشةٍ تخصّ إحدى الحملات، أتذكّر أنّ الكوابيس لم تفارقني ليلةً بسبب الصمت المهيمن على المكان.

– هل أتيْت بي إلى هنا لتخبرني قصّة حياتك؟

رمقني بنظرات صاعقة.

– لمَ أنتَ فظٌّ يا خليل؟ كأنّك نسيت ابتسامتك عند أحد أسوأ أطبّاء

الأسنان. لطالما تصرّفت معك بلباقة وهدوء.

– أنا منهكٌ وبحاجة إلى الراحة.

حرّك الناقل، والتفّ حول مجمّعٍ من المساكن.

– أنا أيضًا منهكٌ. وإن كان الأمر يعود لي وحدي، لكنتُ الآن وفي هذه اللحظة موجودًا في سريري. لكنّ الحياة عبارة عن أولويات، وتولّي مسؤوليّة المرحلة الانتقالية ليس برحلة استجمامٍ. فأنا أشبه بالفرّان الذي يخبز خبزه بيده ويطحن القمح، وغالبًا ما يحضّر العجينة بذاته أيضًا. يترتّب عليّ أن أحلّ أمورًا عالقة هنا، وأنسّق نشاطات هناك في آنٍ واحدٍ. إنّ تولّي المسؤوليّة لحملٌ وليس امتيازًا. لذا من فضلك، لن يضرّك أن تبدي بعض الاحترام.

كان يتوقّع منّي اعتذارًا. لم أنبس ببنت شفة. تنحنح، وخفّف السرعة بحثًا عن طريقه قبل أن يندفع بالسيّارة على ممرٍّ موحلٍ يؤدّي إلى قطعة الأرض الشاغرة.

ركن السيّارة تحت شجرةٍ وأطفأ المحرّك.

– ماذا فعلتَ بحزامك الناسف؟ سألني من دون سابق إنذار.

لو أنّه صوّب سلاحه نحو جسدي وأطلق النار عليّ مباشرةً، لما كان دمّرني كما فعل توًّا. كان ردّه بهذه الطريقة آخر ما أتوقّعه.

استدرك رمضان على الفور أنّه ردّ لي الصاع صاعيْن. دقدق على عجلة القيادة، وكأنّه سيّد الموقف.

استغرقتُ بعض الوقت قبل أن أعود إلى وعيي.

– أتلفته.

هزّ رأسه، زامًّا شفتيْه إلى الأمام:

– أتلفته. حسنًا... وماذا فعلتَ بالشحنة؟

– ماذا تقصد رمضان؟

– كنتَ تحمل حزامًا ناسفًا، وأودّ أن أعرف ما فعلت به. إنّ ذلك لأضعف الإيمان، أليس كذلك؟ المسألة هي مسألة أمانة سُلّمت إليك ولم تُستخدم. عادةً، عندما ينهي الجندي مهمّته، يسلّم سلاحه إلى أمين

مخزن السلاح. وأنتَ لا تملك الحقّ في الاحتفاظ بدليل قد يودي بمجموعتنا إلى الهلاك.

– أكرّر لك أنّني أتلفته.

– من المحتمل أن تكون قد تخلّصت منه في باريس. وإذا ما عثرت القوى العدوّة لنا عليه، فلن تتأخّر في الكشف عن هويّتك، نتيجة البصمات وأثر الحمض النووي الصبغي التي لا شكّ في أنّك خلّفتها على الحزام.

كان يحاصرني من كلّ نحوٍ وصوب، حائلًا دون نفاذي الممكن إلى أيّ مخرج. لم أتوقّع أن أُضطرّ إلى إعادة أيّ شيءٍ إلى المجموعة. أمّا المشكلة الثانية، وهي مشكلة مهمّة: فهي أنّني لم أعد أتذكّر في أيّ حفرة طمرتُ الحزام. نعم، كانت لديّ فكرة مبهمة عن دوّار غريب وسط الحقول، وعن خطّ إسفلتي يمتدّ على ضفاف أحد الأنهر، لكنّه كان من المستحيل أن أتذكّر مخرج الطريق السريع الذي سلكه ريان على طريق العودة من مونس، أو حتى أيّ معلم قد يرشدني في بحثي.

كان رمضان يضيّق عليّ الخناق... والغريب في الأمر، أنّه هو من أخرجني بنفسه من المأزق، إذ قال بصوتٍ مطمئنٍ:

– إنّما المشكلة محلولة إذا أتلفته حقًّا.

شهقتُ معيدًا النفس إلى صدري المختنق.

– لا تملك القوى الأمنية أدنى فرصةً للعثور عليه، قلتُ له.

– الآن أثلجتَ قلبي... كنتُ في غاية القلق.

نظّف أنفه بمنديلٍ، ثمّ تأوّه فرجًا وفتح نافذته كي يتنشّق بعض الهواء المنعش.

– لقد أزحت توًّا ثقلًا هائلًا عن كاهلي يا خليل. جالت في خاطري السيناريوات على أنواعها. طبعًا لم أفاتح أحدًا بالموضوع، فهمومنا تكفينا. لكن لا يمكنك أن تنفي أنّني أملك الحقّ، بل كلّ الحقّ في القلق. فنظرًا إلى تطوّر تقنياتها، تستطيع أجهزة الاستخبارات تفكيك شبكة بأكملها انطلاقًا من شعر عانة... وأخيرًا بات باستطاعتي التفكير في أمورٍ أخرى.

عاود تربيت فخذي:

– كيف جرت الأمور في الأمس مع فضيلته؟

هكذا إذًا. لقد عرّضني رمضان للضغوط كي يوصلني إلى السؤال الحقيقي الذي يشغل باله، ألا وهو معرفة الأسباب الحقيقية وراء استدعائي إلى منزل الشيخ. لا شكّ في أنّ الشيطان كان يوسوس لهذه الحثالة. اضطُررتُ إلى ضبط أعصابي كي لا أقضي عليه بعد حالة الهلع التي أوقعني بها توًّا.

– بحسب علمي، أنتَ يده اليمنى، قلتُ له بنبرة ساخرة. ألم يخبرك بشيء؟

– انشغالاتي كثيرة للغاية في الآونة الأخيرة. إضافة إلى ذلك، أنا في بروكسل وهو في مكانٍ آخر... إذًا؟

– إذًا ماذا؟

– أقصد هذا اللقاء؟

بدا كوحش مفترس يسيل لعابه لرؤية جثّة فريسته.

– أتعدني بعدم البوح لأحد إن أخبرتك؟ سألته وسرورٌ عارمٌ ينتابني وأنا أعدّ له مصيدته.

– أعطيك كلمتي، كلمة الأمير بالوكالة.

تركته يحترق شوقًا دقيقةً كاملةً قبل أن أوجّه له الضربة القاضية:

– عرض عليّ الشيخ أن أستلم مهمّات الياس.

تيبّس كسلطعون مصعوق. وعلقت جوزة حلقه، التي كانت بارزة لديه، في حنجرته. بدا وجهه، تحت ضوء القمر الباهت، أشبه بقناع شمعٍ.

– لا تملك الخبرة اللازمة لتك المهمّات، تلعثم قائلًا. ولا الأقدمية. فأنتَ لم تتولّ يومًا القيادة. لمَ أنتَ بالتحديد؟ علمًا أنّ قائمة انتظار المرشّحين طويلة... وماذا عن الياس؟ هل أُقصِي؟

– بل رُقِّي، كذّبتُ عليه من أجل تأجيج نار الغيرة في قلبه. سوف يلتحق بعد شهرٍ أو اثنيْن بالمجلس، تابعتُ قائلًا.

– وأنا؟

– لم يأتِ على ذكرك...

– هكذا إذًا! اليوم أنا قائدك وغدًا سأتلقّى أوامري منك. هذا ليس عدلًا. بعد كلّ الجهود التي بذلتها وتحمّلي مسؤوليّة المرحلة الانتقالية بما لا تشوبه شائبة، أستحقّ أفضل من ذلك.

– اطمئنّ، لم أقبل العرض. فأنا لا أملك المؤهّلات اللازمة لتولّي مسؤولية كهذه. وأخبرت الشيخ بأنّك مؤهّل أكثر منّي لهذا المنصب.

– لقد طرحتَ اسمي بدلًا من اسمك؟

– لا أرى من أرشّحه غيرك. نظرًا إلى أقدميّتك في الجمعية وتفانيك لها، لك الحقّ وكلّ الحقّ في أن نعاهدك بيعة الأمير.

رُدّت لرمضان الروح. وانتقل بسرعة النيزك من البلاء إلى الابتهاج. عادت عيناه تلمعان.

– وما كان قرار الشيخ؟

– يجب أن يستشير المجلس أوّلًا، لكنّه لم يعارض الفكرة. وإذا ما بقيت متكتّمًا على السرّ الذي بحت لك به الآن، أعتقد أن الحظّ قد يحالفك. تعرف كيف هي العقلية في المجلس، أليس كذلك؟ مجرّد أن تطاول الشائعات اسم أحد المرشّحين، حتى يسقط عن اللائحة.

– في هذه الحالة، لم تنبس ببنت شفة أمامي.

– بل إنّنا لا يعرف أحدنا الآخر حتى.

مسح رمضان وجهه بمنديل مرتعشًا كمصابٍ بالحمّى. نزل من السيّارة كي يتنشّق من صميم أعماقه الهواء المنعش، ثمّ تلوّى في كلّ الاتّجاهات، وجلس على غطاء محرّك السيّارة، مستسلمًا لأحلامه. ها هو يرتقي سلّم المشرق قاصدًا الشمس.

محقٌّ كان إدريس: ثمّة من يقاتل، وثمّة من يتاجر.

بقيت ملازمًا مقعدي، أراقب رمضان من داخل السيّارة وهو يكدّس ألف مشروعٍ ومشروع في خياله المعتدّ. لا أذكر أنّني رأيته يومًا واحدًا يتطوّع ليشارك في عملية ارتجالية طارئة، أو ليحوم حول كنيسٍ. لم يكن سوى رجل مبتذل همّه كسب الامتيازات، مخطّط من الدرجة الأولى يقف في

المرصاد لانتهاز أيّ فرصةٍ يبني أمجاده على حسابها من دون تعريض نفسه لأدنى درجات الخطر...

كان يثير اشمئزازي.

وأنا الذي كنتُ مستعدًّا للتضحية بذاتي، روحًا وجسدًا، من أجل عالم نُظِّفَ من المجانين أمثاله! حتى في الجنّة، لكنتُ شعرتُ بالاستياء لترك حثالة من هذا النوع خلفي!

12

ضربت لي أختي التوأم موعدًا أمام مركز البريد. جميلًا كان الطقس في بروكسل التي بدت مستسلمةً للشمس من دون أيّ رادعٍ. كانت ترّاسات المقاهي تعجّ بالناس، وواجهات المحالّ تتلألأ تحت أشعّة شمس النهار. كانت الجادّات تعجّ بالمارّة. يكفي أن تنقشع سماء بروكسل حتى ترتدي شوارع المدينة حلّة العيد. ولكن، هل من يصدّق بعدُ أنّ الانفراجَ ذاك هو الخلاص؟ لطالما خدعتني تلك المدينة. منذ زمن بعيد وأنا ما عدتُ أتوقّع أن تفي لي بوعودها.

كانت زهرة تنتظرني على الرصيف، ملتفّةً بالمعطف الذي أهديتها إيّاه لمناسبة عيد ميلادها العشرين. لوّحت لي بيديها متحمّسةً وعبرت الطريق غير آبهةٍ بالسيّارات لشدّة لهفتها للقائي من جديد.

– إذًا كيف كانت رحلتك إلى أنتويرب؟

استغرقني الأمر ثواني قبل أن أستوعب معنى كلامها.

– روتينية.

– كان من المفترض ألّا تدوم أكثر من يوميْن أو ثلاثة.

– نعم، استغرقت وقتًا أطول... لكنّها كانت مثمرة. لقد حصلت على وظيفة الآن.

– حقًا؟ في أنتويرب؟

– هنا في بروكسل. أنا أعمل لحساب بائع أثاثٍ في غاية النزاهة. وإن جرت الأمور على خير، أنوي عقد شراكةٍ معه.

– ستعمل لحسابك الخاصّ؟ يا له من خبر رائع.
– لا يزال هذا الكلام سابقًا لأوانه، ولكنّني على الطريق الصحيح.
– أنا سعيدةٌ جدّا لأجلك. هذا يعني أنّنا سنتمكّن من رؤيتك أكثر من قبل.
أمسكت معصمي وجرّتني وراءها.
– تعالَ معي، أريدك أن تتعرّف إلى شخصٍ.
بدت في غاية الحماسة.
اصطحبتني إلى وكالة سفر على بعد قرابة المئة مترٍ من مركز البريد، حيث كانت آنسةٌ توضّب عددًا من الملفّات. كانت الشابّة ترتدي بدلةً ضيّقةً أشعرتني فورًا بالانزعاج.
عانقت الفتاتان بعضهما بعضًا بحرارة اعتبرتُها مفرطة. وقفت جانبًا كي لا أُضطرّ إلى مصافحة الشابّة الغريبة.
– كنتُ في الجوار وقد مررْت لإلقاء التحية، قالت شقيقتي.
– هذا لطفٌ منك.
– هل وصلتك رسالتي النصية؟
– طبعًا.
– موافقة؟
– يجب أوّلًا أن أستأذن مديري. فأنا لم آخذ إجازة منذ فترة.
– أتمنّى لو تشاركين في الاحتفال. نحن بحاجة إلى الفتيات جميعهنّ.
– سوف أرى ما يمكنني فعله.
– ممتاز... سنتكلّم في الموضوع الليلة، في منزل نوال... هل تعرفين أخي؟
رمقتني الفتاة لحظة قبل أن تهزّ رأسها بخجلٍ لتوحي بأنّها لا تعرفني.
– أقدّم لك خليل. سيعمل قريبًا لحسابه الخاصّ. إنّه نجّارٌ استثنائي...
انزعجت الفتاة وأدارت وجهها بعض الشيء.
– عليّ أن أذهب الآن. أمامك كومة من الملفّات تنتظر التوضيب... أراك في المساء إذًا يا ليلى...

– طبعًا زهرة. يجب أن أستعيد غرضًا من منزل نوال.
خرجنا إلى الشارع. كان وجه أختي لونه أحمر كالورد الجوري.
– أرأيت عينيْها؟ سألتني بصوتٍ ينبض بالمشاعر. لونهما أخضر نقي. تذكّراننني بالكرات الزجاجية التي كنّا نلعب بها سويًّا في صغرنا. شفّافتان لدرجة تمكّنك من قراءة أفكارها.
لم أكن أفهم قصدها.
أوقفتني في آخر الشارع، لاهثةً.
– أليست جميلة؟
– إنّها جميلة.
– إنّها فتاةٌ رائعة، وجدّية ولديها كلّ صفات الحسنة. سيرتها حسنة. والدها محاسب ووالدتها مدرّسة. لديها شقيقان في الجامعة. هي من عائلة محترمة...
– زهرة، ما الغرض من كلّ هذا الإطراء؟
شدّت بقوّة على معصمي.
– فكّرت بك في اللحظة التي رأيتها. قمتُ بتحرّياتي الخاصّة وأنا مقتنعة بأنّ ليلى هي الفتاة المناسبة لك. أتعي ذلك؟ قد تُرزق بأطفال عيونهم ملوّنة.
– ماذا؟
– لا بدّ أن تبني أسرة خليل.
– متأسّف ولكنّني مرتبط.
– لا تقل لي إنّك عدتَ إلى تلك المجنونة التي تُدعى منصورة.
– لا، ليس إلى تلك المجنونة.
– هل أعرفها؟
– لا أظنّ.
– ما الذي تملكه هي ولا تملكه ليلى؟
– النقاب.
شعرت زهرة بخيبة أملٍ. وهمد اندفاعها فجأةً، تاركًا المجال لارتباكٍ

وامتعاض.

– لا يدلّ النقاب على أيّ شيءٍ يا خليل. أعرف فتيات يرتدينه ليلًا ونهارًا من دون أن يردعهنّ عن الذهاب في نزهات مشكوكٍ في أمرها.

– لكن ليس فتاتي.

– عليك أن تعرّفني بها.

– سأفعل ما إن تأخذ الأمور مجراها الطبيعي.

نظرت حولها، محرجة.

– اسمعْ، لا أرغب في أن أضغط عليك. إنّ الزواج مسألةٌ جدّية. فلا تتّخذ أيّ قرارٍ قد تندم عليه. لو كنتُ مكانك، لفكّرتُ في الأمر مليًّا. إنّ ليلى فتاةٌ رائعة ومثقّفة ومؤمنة. لا تدع طريقة لبسها تخدعك. إنّ مديرها هو من يفرض عليها ذلك. أؤكّد لك أنّها فتاة طاهرة. نحن نؤدّي صلاة الجمعة معًا في الجامع كلّ أسبوع... ما رأيك بمرافقتي إلى أحد المقاهي للتحدّث بهدوءٍ عن الموضوع؟

– من الأفضل أن تتجنّبي المقاهي. فالفتاة التي تجالس الغرباء تسيء إلى سمعتها للغاية. إنّ المقاهي حكرٌ على الرجال دون سواهم.

– فلنذهب إلى البيت إذًا.

– تعلمين جيّدًا أنّه ليس ممكنًا يا زهرة.

– إنّ والدنا بحاجة إلينا. كشف التصوير بالرنين المغنطيسي الذي أجراه عن وجود ورم في البروستات. وقد طلب منه مختصّ المسالك البولية أن تؤخذ منه خزعة من أجل تحديد طبيعة الورم.

– إنّها مشيئة الله.

– طبعًا، ولكنّ الأمر يتعلّق بك. لا يمنعك الله من التصالح مع من أعطاك الحياة. بل على العكس، يدعو الإسلام إلى التسامح. ويُعدّ برّ الوالديْن من الإيمان ومقدّسًا في حدّ ذاته. علاوة على ذلك، ما مأخذك على والدنا؟ ألأنّه كان يوبّخك بين الحين والآخر؟ لا أجد مبرّرًا لكلّ هذا الحقد. ففي النهاية، يبقى والدك.

– يجب إذًا أن يتوقّف عن السكر كالخنزير.

– كالخنزير؟ ردّت وهي تختنق من السخط. أهكذا تتكلّم عن والدك يا خليل؟ تنعته بالخنزير؟ (امتلأت عيناها بالدموع) ليس من حقّك. وأنا أمنعك، أتفهم؟ اسأل كلّ أئمّة الكون إذا كان الله يقبل أن تنعت أيّ ذرّية في الدنيا والدها بالخنزير. إنّ القرآن حاسمٌ بهذا الخصوص. لا نملك حتى الحقّ في معارضة والدينا، ناهيك بنهرهما. أمّا مسألة بغضهما، فهي من المحرّمات.

كانت وجنتاها تنتفضان غضبًا.

– إذا كنتَ تهتمّ بأمري يا خليل، وتودّ رؤيتي من جديد، فاذهب إلى البيت واعتذرْ من أبيك. أريدك أن تقبّل رأسه، وأن تركع أمامه طالبًا السماح وإن كنتَ على يقين بأنّك لم تقترف ذنبًا. وإلّا لا تحاول الاتّصال بي، ولو هاتفيًّا.

مع هذه الكلمات، تركتني على الرصيف غير مباليةٍ بأمري، وسارعت إلى التوجّه نحو الباص الذي توقّف توًّا.

لم يراودني حينذاك أيّ شكٍّ في أنّني لن أعاود سماع صوتها أبدًا بعد ذلك.

في وقتٍ متأخّرٍ من الليلة ذاتها، رنّ جرس هاتف هادي، الذي كان يشاركني السكن.

جاء هذا الأخير وأنار الضوء في غرفة نومي.

– ارتدِ ملابسك. وصلتني تعليمات بأن أوصلك إلى مدينة غنت.

– الآن؟ تأفّفت قائلًا، وينتابني شعورٌ بالنعاس وإحساس بالانزعاج لإيقاظي في ساعة متأخّرة من الليل، مقتنعًا بأنّ الأمر يتعلّق هذه المرّة أيضًا باندفاع مفرطٍ من رمضان.

– على الفور. خُذ أغراضك معك، إضافة إلى أوراقك الثبوتية وجواز سفرك.

كانت سيّارةٌ في انتظارنا عند مدخل غنت. تبعناها حتى وصلنا أمام منزلٍ صغيرٍ من القرميد يطلّ على بستان خضار وفاكهة. خفّفت السيّارة التي كانت ترافقنا سرعتها عند وصولها أمام سياجٍ، ثمّ شغلت الضوء

الوامض وتابعت سيرها، لتعيد السيناريو الذي حصل في زيبروغ بكلّ حذافيره. الفرق أنّه في هذه المرّة، لم يكن رجلٌ أسود يرتدي ثيابًا رياضيةً في استقبالنا داخل الردهة، إنّما أميرنا الياس شخصيًّا. كان وحده. دعا هادي إلى الذهاب إلى المطبخ ليحضّر لنا القهوة، قبل أن يدخلني حجرة متواضعة الأثاث، تضمّ سريرًا، وطاولة قهوة، وخزانة عجفاء مرمية في إحدى الزوايا إضافة إلى سجّادة بالية على الأرض.

– أفترض أنّه مقرّي الجديد، قلتُ بخيبة أمل.

– هذه الليلة فقط، طمأنني الأمير. في الغد، سوف تُنقل إلى مكان أفضل.

– ولمَ لم ننتظر حتى يوم غد؟

– أخي خليل، متى ستتعلّم ألّا تطرح الكثير من الأسئلة؟... لن يكون سكنك الجديد جاهزًا قبل الغد. أتريد أن تعلم لمَا أخرجتك من سريرك في هذا الوقت المتأخّر من الليل؟

– لا.

– مع ذلك، سأقول لك. لأنّ المجلس حسم قراره، منذ أقلّ من ساعتيْن. وقد وقع الاختيار عليك لتنفيذ العملية. أراد الشيخ أن يهنّئك شخصيًّا وجهًا لوجه. وطلب أن يلتقي بك هنا. لسوء الحظّ، اتّصل بي توًّا كي يعتذر. حدث أمرٌ طارئ اضطرّه إلى الوجود في مكان آخر... أتريد أن تعلم لمَا غنت؟

– لا.

– مع ذلك، سأقول ك. لإبعادك عن بروكسل من أجل الحفاظ على سرّية خططنا قدر المستطاع. بدءًا من الآن، تقطع كلّ ما يصلك بالعالم الخارجي... أعطني هاتفك.

نفّذت الأمر.

زوّدني بجوّالٍ آخر.

– لا يوجد سوى رقميْن هنا: رقمي ورقم هادي، الذي سيكون في خدمتك حتى يحين وقت رحيلك. لا تتّصل بي مباشرةً. إذا احتجتَ إليّ،

فسيكون هادي صلة الوصل بيننا. سينقل لي رسالتك. ولا تجب إلّا في حال ظهور اسمي الحركي في شاشتك: لشبونة. لا تُجب إلّا إذا ظهر اسم لشبونة. أو هادي طبعًا. الخلاصة: لا تتّصل بأحد غير هادي ولا تردّ على أحد غيري. لا تحاول الاتّصال بعائلتك أو بأيّ شخص آخر. واضح؟

– جدًّا.

– لا أحد سوانا نحن الاثنيْن يعرف رقمك…

– أرجوك الياس، ما عدتُ طفلًا… متى موعد رحيلي؟

– لا أعلم، لكنّه بات وشيكًا.

– ما وجهتي؟

– المغرب طبعًا.

– وبرونو؟

– زكريا في طريقه الآن. سيصل قريبًا.

أتى هادي بالقهوة. شكره الياس قبل أن يطلب منه العودة إلى بروكسل فورًا.

– تبقى على السمع، أمره قائلًا.

بعد مغادرة الشابّ التونسي، دعاني الياس إلى تسليمه جواز سفري، وتأكّد من تاريخ صلاحيته، والأختام النادرة التي كانت تتوّج صفحاته الداخلية. عقد حاجبيْه.

– هل من مشكلة؟

– ليس بالضرورة. تعود المرّة الأخيرة التي زرت فيها المغرب إلى أكثر من ثلاث سنوات. بِمَ ستجيب في حال سألتك الشرطة عند الحدود عن سبب عودتك بعد كلّ هذا الوقت؟

– ولمَ تطرح عليّ هذا السؤال؟

رمقني بنظرة صارمة.

– عفوًا، خانتني كلماتي، اعتذرتُ… سأقول أنّ سبب زيارتي هو التعرّف إلى قريبةٍ لي بعد أن سمعت الكثير عن جمالها.

– وهل لدى قريبتك تلك اسمٌ؟

فكّرت.

– ميلودة.

– وهل لديك حقًّا قريبة بهذا الاسم.

– نعم.

– قد تكون تزوّجت منذ ذلك الوقت.

– إنّها في الخامسة عشرة من عمرها.

– أين تُقيم؟

– في الناظور.

– وما الذي أتى بك إلى مراكش؟

لم أعرف أيّ جوابٍ أرتجل.

– أرأيت؟ إنّها تلك التفاصيل الصغيرة التي قد تتسبّب في إخفاق خططٍ طُوِّرَت على نحوٍ ناضجٍ... قد تُطرَح عليك شتى أنواع الأسئلة في مطار مراكش. فالطاقم هناك أشبه بأفاعٍ حقيقية، ويتفوّق على الشيطان ذاته. ومن أجل النفاذ من شباكه، لا بدّ أن تحافظ على برود أعصابك وأن تملك أجوبة عن كلّ أسئلته. المشكلة لا تطرح نفسها بالنسبة إلى زكريا. فنسيبه يتولّى إدارة معمل خردوات في السويهلة غرب مراكش. أمّا أنتَ، فأتيت لزيارة أحد أقاربك الذي يُقيم في جليز. ستجد كلّ المعلومات المتعلّقة باسمه، وصلة القرابة بينكما، وعنوانه وصورته داخل الظرف الموجود هنا على الوسادة.

توقّفت سيّارةٌ في الخارج. ألقى الياس نظرة عبر النافذة.

– إنّه زكريا.

– كان بإمكانه أن يأتي معي. فالسيّارات التي تتوقّف في المكان ذاته في ساعات مشبوهة من الليل تثير انتباه الجيران.

– لم يكن زكريا في بروكسل، قال الياس قبل أن يذهب لفتح الباب.

في الردهة، عانقه برونو باندفاع واكتفى بالإشارة لي برأسه لإلقاء تحية بالكاد كانت ملحوظة.

– لقد تسابقنا مع الموت لشدّة السرعة التي قدنا بها.

– لا تزال ضمن المهلة المحدّدة. اطلبْ من السائق أن ينصرف.

بإشارة من يده، صرفَ برونو السائق الذي بقي داخل السيّارة، قبل أن يغلق الباب.

– إذًا؟ استعلم متوتّرًا. حبّذا لو لم تطلب منّي أن أعبر كلّ تلك المسافة لأتلقّى خبرًا سيّئًا.

– ستذهب.

رمى برونو نفسه على الأمير ليضمّه.

– الحمدلله... لم ينقطع دعائي طوال الرحلة. (التفت نحوي) هل سيشارك خليل في العملية؟

لم يبدُ برونو مسرورًا حين علم أنّني سأرافقه.

ربّت الياس كتفه مؤكّدًا:

– خليل موضع ثقة. بلغ عدد المرشحين ستّة، واتّسموا جميعهم بالعزم ذاته. لكنّ خيار المجلس وقع عليكما لأنّ مواصفاتكما هي الأكثر مطابقةً للظروف.

لم أكن أستلطف برونو، لكنّني كرهته في تلك الليلة.

جمعنا الياس حول طاولة القهوة كي يشرح لنا ما كان المجلس ينتظره منّا. بسطَ خريطة مراكش، حيث بدت نقطتان من المدينة وحولهما دائرتان مرسومتان باللون الأحمر.

– ها هما الهدفان: إمّا حديقة ماجوريل أو ساحة جامع الفنا. ستقرّران على الأرض. ستوضع جميع الوسائل الضرورية لتنفيذ العملية تحت تصرّفكما. لا يخفى على أحد أنّ الحديقة تحظى بمراقبة عن كثب، لكن من المتوقّع أن تشهد احتفالًا في الثالث والعشرين من مارس. وهو احتفالٌ سيشهد توافدًا غفيرًا لأفراد الطبقة الراقية، بمن فيهم الكثير من الأوروبيين ووجهاء المدينة وأعضاء السلطات المحلّية. سيعود القرار لكما. في حال شكّل جهاز الأمن، الذي سيعزّز بطبيعة الحال إجراءاته حول الحديقة، عائقًا أمامكما، تتّجهان إلى ساحة جامع الفنا. في التاريخ عينه، أي 23 مارس مساءً، حين تكون الحشود غفيرة... زكريا، لقد اختارك

المجلس لقيادة المجموعة. موعد رحيلك بعد يومَيْن، وستذهب بهدف وضع خطط الهجوم. لقد تمّ الاهتمام بالشقّ اللوجيستي من جميع النواحي. لن تُعنى سوى بالتحضيرات العملية. وفي السياق ذاته، سيكون فريقٌ اختيرَ بدقّة، في انتظارك في المكان المحدّد. أمّا أنتَ يا خليل فستركب الطائرة إلى مراكش قبل العملية بثلاثة أيّام.

– ولمَ لا أذهب مع برونو؟

هزّ الياس رأسه، بعد أن غلبه الواقع وأضحكه في آنٍ.

– عفوًا، قلتُ له.

– أعلم، خانتك كلماتك.

حكّ برونو رأسه من الخلف وأقرّ:

– سوف أختار من دون أيّ تردّدٍ ساحة جامع الفنا، فالوصول إليها أسهل. كما أنّ المكان يشهد وفود الكثير من السيّاح الذين يأتون إليه من كلّ بقاع الأرض…

– ستحدّدان الهدف على الأرض، قاطعه الياس قائلًا. أفضّل شخصيًا تفجير الحديقة، إذ إنّ الأمر سيثير عددًا أكبر من ردود الفعل على الصعيد الإعلامي. يوافقني الشيخ الرأي. لكنّنا قرّرنا أن نترك لكما هذا الهامش من الحرّية لأنّنا مصرّون على انتهاز جميع الفرص من دون استثناء لضمان نجاح العملية. لقد أعلنت مصادر موثوقة اغتيالَ الإمام صادق. ولا بدّ إذًا أن يكون المغرب، إمّا من خلال الحديقة أو الفنا، مثالًا للدول المسلمة كافّة التي قد تتجرّأ على تجنيب الغرب تلطيخ يديه بدماء إخواننا.

أمضينا ردحًا كبيرًا من الليل في صقل الخطط المتعلّقة بسفرنا، وإقامتنا وتنقّلنا في مراكش، وفي الدعاء كي يوفّقنا الله في خياراتنا وقراراتنا.

عند الساعة الرابعة صباحًا، وصلت سيّارةٌ لاصطحاب الياس وبرونو.

بقيت وحدي، في تلك الغرفة الباردة، أحاول عبثًا أن أنام.

وعند الساعة الثانية عشرة ظهرًا، أتى هادي ليجدني في سريري. طلب منّي أن أستحمّ وألحق به. اصطحبني إلى استوديو صغيرٍ رائع في

وسط المدينة، في الطابق الأخير من مبنًى يطلّ على ميناء جراسلي. على أحد الجدران، عُلّق تلفاز كبير، وفي المطبخ الكامل التجهيز، كان البرّاد مليئًا بالخيرات. كانت غرفتي جميلة للغاية، تزيّن نوافذها ستائر حريرية، يتوسّطها سرير يليق برجلٍ ثري ونافذ، وسجّادةً يتزاوج لونها مع لون السقف الأزرق.

– كأنّنا في فندق خمس نجوم، صحتُ فرحًا باستعادة شيءٍ من الراحة بعد أسابيع من الهروب وليال عمّها الاضطراب.

– كلّ هذا لا يُقارن بما ينتظرنا في الأعلى، أصرّ هادي على تذكيري.

– أخبرني الياس بأنّك تحت تصرّفي.

– كلّ ما عليك فعله هو فرك فانوسك السحري حتى أظهر أمامك لتحقيق أمنياتك.

– كلّ أمنياتي؟

– من دون استثناء.

– أودّ أن أذهب إلى شاطئ هادئ.

– الآن؟

– حالًا.

فتح هادي ذراعيْه وانحنى أمامي كأنّه عبد لي.

– شبّيك لبّيك عبدك بين يديْك... اطلبْ وتمنَّ يا صاحب الجلالة.

وفي أقلّ من ساعةٍ، كنّا في بلانكينبيرج، حيث استمتعنا بوجبة سمكٍ مشوي في مطعم «تيتانيك» المطلّ على البحر. وبما أنّ الشاطئ كان مكتظًّا بالعائلات التي تهافتت عليه لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، رجوت هادي أن يجد لي مكانًا أكثر هدوءًا.

هكذا اهتدينا إلى جون مهجورٍ مخفي بين صخرتيْن.

– أيزعجك أن تتركني بمفردي؟ سألت هادي.

– بتاتًا. أنتظرك في السيّارة.

– أفضّل أن ترحل.

– هل يزعجك وجودي إلى هذا الحدّ؟

– أنا بحاجة إلى الاختلاء بالبحر.

– أنتَ لا تنوي أن ترمي بنفسك في البحر، أليس كذلك؟ ستُصاب حتمًا برشحٍ قاسٍ، ما قد يعرقل خططنا.

– ارحل، لو سمحت. وعُد لاصطحابي بعد ساعةٍ تقريبًا.

شعر هادي بالإحراج.

– أمرني الياس بألّا أبتعد عنك خطوةً واحدة.

– لن أتبخّر من الوجود. ساعة فقط. أنا بحاجة إلى الاختلاء بالبحر.

تردّد هادي مطوّلًا قبل أن يحمل هاتفه، ليحيط على الأرجح الأمير علمًا بنزوتي ويحصل على إذنه.

– لا يستحقّ الأمر كلّ هذا العناء.

رضي أخيرًا، وعاد أدراجه إلى سيّارته قبل أن يسلك طريقه.

خلعت حذائي وجواربي، ثمّ رفعتُ سروالي إلى أعلى ربلتيّ وأخذت أمشي على الرمال الرطبة التي صرصرت تحت ثقل جسدي. كان البحر هائجًا. وكانت أمواجٌ هادرة ترتطم بالصخور متدفقةً من بين الصدوع، لتنسكب في فوّارات حارّة تنصبّ غضبًا. كان المشهد مهيبًا. وكان في تلك الهستيريا البيضاء، هستيريا الأمواج التي لا تنفكّ تتحطّم في نهاية متألّقة، شيء من المتعة، لذّة تذكّرني بنوبات الغضب التي كانت تنتابني كلّما رميتُ أرضًا عدوًّا لي أكنّ له كلّ ضغينة الدنيا.

جلست على تلٍّ من الرمل، محشورًا في سترتي كعصفور يرتعد بردًا، ورحت آخذ أنفاسًا عميقةً، معرّضًا وجهي للريح. كا صفير طيور النورس تُطرب تأمّلي. غمرتني سعادةٌ بدائية بشعورٍ مذهلٍ بالكمال.

تعود المرّة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى البحر للسباحة إلى ثلاث سنوات. وكان ذلك في مدينة السعيدية، التي تقع في أقاصي الشمال الشرقي من المغرب، حيث كان خطٌ نهري رفيع يفصلنا عن الشواطئ الجزائرية. كان صديقٌ لأبي قد أعارنا الشاليه الخشبي الصغير خاصّته. وكنتُ، في كلّ صباحٍ، أذهب للقاء أصدقاء لي تعرّفت إليهم في العطلة من أجل السباحة في أبعد نقطة ممكنة. وكان حرّاس الشاطئ يصفّرون

لنا كي نعود، بيد أنّنا كنّا نستمر في السباحة حتّى الإرهاق. حينذاك فقط، كنا نطفو على ظهورنا فوق الماء، ونطلق من أفواهنا الطافحة بالمياه، نوافيرَ في الهواء تمامًا كما تفعل حيتان العنبر. وما كنّا نخرج من المياه إلّا شبه مخدّرين، بفعل هبوط حرارة أجسادنا، فنرقد على الرمال الدافئة حتى أوقات متأخّرة من بعد الظهر.

بيني وبين البحر تيّارٌ مغنطيسي كان يشدّ بعضنا إلى بعض كي لا ألمح سوى الأمواج حين تهيج ولا أسمع إلّا هديرها المتعالي. بدا أنّ الشاطئ والتلّة والسماء تتلاشى من حولي. لم تكن عيناي تريان سوى اللوحة المائية الراقصة أمامي، ولم تكن أذناي تسمعان غير أنغامها. كان البحر يأسرني بألغازه، تمامًا كما كان الموت يأسرني بألغازه؛ كنت أعشقه لغموضه وتستّره على أسراره، تمامًا مثل الله. فلا أحد يعرف عمره؛ ولا علم يقيس قوّته. البحر الأزلي والمتوحّش والمفاجئ، لا يُقاس سوى بالوقت العابر، فيما يعيدنا إلى هشاشة أطيافنا المبكرة، فيمحو آثارنا على الرمال وحطامنا المنسي على العشب، وأثلام سفننا، وفظاعة حوادث الغرق التي شهدتها قصّتنا. في البحر خاصّتان تشيران إلى الله: التجانس والجبروت. وإذا ما ارتجّت الأرض جرّاء الكوارث، ومزّقت البراكين باطنها، وخرّبتها الأعاصير، فالبحر من جانبه يستوعب عواصفه كأنّ شيئًا لم يكن، ويستمرّ، هو الذي يحمل مخاوفنا في أعماقه، بالاعتناء بآفاقه مصرًّا على احترام سواحلنا، باقيًا دائمًا وأبدًا على عهده، لا يشبه إلّا نفسه، تمامًا كنبوّة لا يستوعبها المحلّلون وعامّة البشر على حدّ سواء.

كم تمنّيت يومذاك أن أكون قطرة ماء كي أذوب في ارتداد أمواجٍ هائجة، وتفصيل رذاذٍ في بياض الزبد، وجُزَيء بغشة مجهري على منقار نورس. كم تمنّيت أن أختفي فورًا، هكذا، على حين غرّة. لم أكن أخشى ألّا أرى غروب الشمس بعد الآن، لأنّني كنت سأشهد ما لا يُعدّ ولا يُحصى منها في رحاب الله. وما عدتُ أخاف أن أتسبّب في الألم لمن أحبّ لأنّهم سيلحقون بي إلى جنان الخلد. متى تحين الساعة، يتبدّد الخير والشرّ.

ولا يبقى سوى ما يجب فعله من دون أيّ تردّد. ومن دون أن نطرح على ذواتنا أيّ سؤال بعد ذلك. يبقى الجواب الوحيد الذي يفرض نفسه هو التالي: «أنا جاهز!»

13

نلعب أنا وزهرة على الشاطئ المهجور. ترتدي زهرة ثوبًا أبيض اللون، وأنا سروالًا فضفاضًا. حفرنا حفرةً عميقةً في الرمال. أدعو زهرة إلى النزول في الحفرة. تضحك وهي تُرجِعُ إلى الوراء ضفائر شعرها الطويل. ترفض بحركةٍ من رأسها. أهزّ بدوري كتفيّ، وأقرّر النزول بنفسي إلى الحفرة. تمسكني زهرة بكتفي وتنزل هي مكاني. أغمر جسدها بالرمال حتى عنقها. فجأةً، تنزل يزّة بسرعة من تلّ رملي وهي تصيح: «تسونامي، تسونامي!» ألتفت. يشلشل جبلٌ ضخمٌ من المياه المصبوغة بالحمرة في اتّجاه الشاطئ، مصحوبًا بسربٍ من الطيور الجارحة السوداء... تلحق يزّة بي، لاهثة الأنفاس، مضطربة النظرات... «أين زهرة؟» تصرخ... «إنّها...» أختنق. اختفت زهرة. «أين زهرة؟... – كانت هنا، منذ أقلّ من دقيقة... – جدها قبل أن تبتلعنا أمواج التسونامي...» أحفر في الرمل، أحفر كالمجنون. يداي تنزفان. محالٌ الوصول إلى زهرة... ألتقط أخيرًا طرفًا من ثوبها الأبيض الذي سرعان ما تمزّق خيوطًا تتصاعد دخانًا من بين أصابعي... مذعورة، ترميني يزّة على ظهري، وتدوسني بغضبٍ تحت قدميْها... «أنتَ السبب، أنتَ السبب...» قدما يزّة حدوتان تجعلانني أتقيّأ عند كلّ ضربةٍ على بطني...

استيقظت والعرق يتصبّب منّي، مصابًا بإسهالٍ شديدٍ. أهرع إلى الحمّام. بالكاد تسنّى لي الوقت كي أجلس على المرحاض. لم تسترح معدتي إلّا بعد أن تمزّقت، كأنّني أخليتُ أمعائي كلّها.

– على رسلك، صاح لي هادي من غرفة الجلوس. كأنّنا في فرقة إيقاع.

خرجت من الحمّام مستنزفًا، منعدم القوّة.

– أنتَ شاحبٌ كالشبح، قال لي هادي. ما الذي أكلته من ورائي؟ كأنّ الشقّة شهدت تسريبًا لغاز الشيست.

– لقد رأيت كابوسًا مخيفًا للغاية.

– لو أنّك استيقظت مع بزوغ الفجر لأداء صلاتك، لكنت جنّبت نفسك نومًا مضطربًا إلى هذا الحدّ... هل آتيك بدواء من الصيدلية؟

– لا داعي. سأتحسّن.

رميت نفسي على الكنبة. كان هادي يتابع برنامجًا ثقافيًّا في التلفاز، حيث كان كاتبٌ أسمر البشرة يجري حوارًا مع أحد صحافيي إذاعة «راديو وتلفزيون بلجيكا الناطق بالفرنسية» (أر تي بي أف) في الاستوديو: «إذا كنّا نحن الدول المسلمة متخلّفة عن الركب، فالسبب هو الأذى الذي نلحقه بالمرأة. يكفي أن أنزل إلى الشارع أو أتوجّه إلى إحدى الإدارات الرسمية كي أكتشف مدى الإساءة التي تتعرّض لها المرأة في بلادنا. مهما سطع نجم موهبتها، وذكائها، ونكران ذاتها، لا يرى الرجل فيها سوى صفتيْ التبعية وعدم النضج. يستحيل لأيّ أمّة أن تتطوّر من دون أن تمنح المرأة حرّيتها أوّلًا. لكن كيف نحثّ تلك المؤسَّسات الذكورية على الاعتراف بذلك؟» كان الكاتب يكرّر بلا كلل.

– من هذا المهرّج؟

– مجرّد مستوطن دنيء في الخدمة يتذلّل لأسياده. مقزّز فعلًا.

– ماذا تنتظر لتغيير المحطّة؟

غيّر هادي القناة بجهاز التحكّم عن بعد، واستقرّ على محطّة إخبارية. كانت مشاهد غير واضحة تظهر أشخاصًا يركضون في كلّ جهة، في حين كان آخرون يتدفّقون كالجرابيع من أحد مداخل المترو، مصدومين، وقد اسودّت وجوههم من الدخان. كانت فتيات يبكين، منهارات في أسفل أحد

المباني. كان المسعفون يجلون عددًا من الجرحى فيما يحاول رجالٌ من الشرطة تهدئة الوضع وسط فوضى عارمة.

– أين وقعت تلك الأحداث؟

– ليس لديّ أدنى فكرة، قال هادي. أنا أكتشف الخبر مثلك تمامًا.

– يبدو لي رجال الشرطة بلجيكيين.

ورد شريطٌ في أسفل الشاشة يقول: «خبر عاجل: اعتداء في مترو بروكسل.»

– سحقًا، صحتُ، سوف تعيق تلك الأحداث سفري إلى مراكش.

– وكيف ذلك؟

– لأنّ محطّات القطارات والمطارات ستعزّز عمليات التفتيش الأمني، منعًا لمرتكبي الاعتداء من مغادرة البلاد.

– لكنّك تملك سجلًّا نظيفًا.

– لا يروقني هذا بتاتًا. كان من المفترض أن تنتظر المجموعة أوّلًا مغادرتي إلى المغرب. فالأولوية لمهمّتي.

– لا أعتقد أنّ مجموعتنا هي التي تقف وراء هذه الضربة، أو أنّها على علمٍ بها حتى. قد لا يكون اعتداء أصلًا. فوسائل الإعلام تميل إلى الاستعجال في ردود أفعالها والتلويح عاليًا بعنوان الجهاد كلّما ظهر دخان مشتبهٌ به أينما كان.

أمضينا الفترة الصباحية بأكملها أمام شاشة التلفاز، لمعرفة ملابسات الموضوع. لقد حصل اعتداء فعلًا، وما لبث أن تبنّاه تنظيم «داعش». وبحسب التقديرات الأولى، كانت الحصيلة خمسة قتلى وما يُقارب العشرة جرحى.

لم تتوقّف معدتي عن الهيجان، ما اضطرّني إلى استعمال الحمّام كلّ عشر دقائق. كان ألمٌ فظيعٌ يمزّق أحشائي. وما عدتُ أخرِج سوى كتلٍ رغوية.

– متأكّدٌ أنّه التهاب معدي ومعوي، أكّد هادي في تشخيصٍ لحالتي.

– تناولنا الطعام ذاته في الأمس.

– قد يكون نتيجة التوتّر.

– أتظنّني خائفًا؟ صرختُ في وجهه، مستاءً. أعي تمامًا الغرض من ذهابي إلى مراكش. ولي كلّ الفخر. لست جبانًا، أتسمعني؟ لم أتراجع في باريس. لولا تلك السترة المشؤومة، لما كنتُ هنا الآن أمتنع عن إبراحك ضربًا. انتقِ كلماتك جيّدًا وأنتَ تخاطبني، مفهوم؟ وإلّا طردتك من هنا مشوّهًا لدرجة أنّ أمّك التي ولدتك قد لا تتمكّن من التعرّف إليك.

– أمّي ميتة يا خليل. ولم يكن في نيّتي الإساءة إليك.

– فلتفكّر مليًّا إذًا قبل التفوّه بحماقات.

فضّل هادي الانسحاب إلى غرفته.

سكنت التشنّجات في معدتي بعض الشيء خلال فترة بعد الظهر، إلّا أنّها لم تختفِ كلّيًّا. وللتكفير عن ذنبه، عرض عليّ هادي أن نذهب في نزهة على الأرصفة المطلّة على ميناء جراسلي. رفضت دعوته. في مساء اليوم ذاته، دعاني إلى مأدبة عشاءٍ سخي في مطعم حقيقي، تكلّل بعقد الصلحة بيننا.

كان من المفترض أن أقابل الياس في اليوم التالي. لم يحضر.

– أعتقد أنّ السبب هو الاعتداء، افترض هادي.

– أتظنّ أنّه متورّط؟

– في هذه الحالة، سيكون ضربًا من الغباء. فلدينا عملية أكبر تنتظر التنفيذ في مراكش.

– ألم يتّصل بك؟

– لا.

ذهبنا أنا وهادي مساءً في نزهة على ضفاف نهر ليس لاستكشاف وسط المدينة. كان الجوّ لطيفًا. كانت مجموعات من الشبّان تلهو أمام الحانات ذات الأجواء الحماسية. تناولنا العشاء في مطعم بيتزا، حيث فتح هادي حديثًا مع فتاتيْن كانتا جالستيْن إلى طاولةٍ محاذيةٍ لطاولتنا. بدا واضحًا أنّ الفتاتيْن لم تستطيعا مقاومة جاذبية الشابّ التونسي. كانتا تضحكان بأعلى صوتيهما كلّما ذكر لهما طرفة جديدة. كان هادي يتمتّع

بقدرة مخيفة على سحر الجنس اللطيف. كان مؤدّبًا، وذكيًّا، ولا يتردّد في عرض إبحاره الواسع في عالم المعرفة. بعد نصف ساعة، كانت الفتاتان تستمعان إليه باهتمام شديد؛ تومئان برأسيهما وهما ترتشفان كلمات شريكي في السكن، بتلذّذ لم تبدياه وهما تشربان مشروب الكوكا الذي طلبتاه.

– لمَ لا ينطق صديقك بكلمة؟ سألت أكثر الفتاتيْن جاذبيةً، في سياق الحديث الجاري.

– إنّه خجولٌ جدًّا، أجابها هادي.

– وهل لديه اسمٌ؟

– لديه شيءٌ آخر أيضًا، أجبتها، لكنّني لست مهتمًّا.

– إنّه متزوّج، سارع هادي إلى التدخّل، في محاولةٍ منه لتكفير غلطتي في حقّ الفتاة التي ازدريتها توًّا.

أخيرًا، غادر هادي برفقة الفتاتيْن. تساءلتُ، وأنا أنظر إليه يبتعد وسط القلبين اللذين اصطادهما، عن مدى صدقية الشابّ التونسي. فمن لا يقاوم الانصياع إلى رغباته، لا يمكن أن يدّعي الإيمان تمامًا كما يُفترض ممارسته. تعلّمت أن أميّز الذين يؤمنون حقًّا من الذين يظنّون أنفسهم مؤمنين. يعتقد هؤلاء الآخرين أنّ الله مسّهم بنعمته، لكنّهم على خطأ. فالنعمة لا تطاول إلّا الأقوياء، وأصحاب الإرادة، وصعاب المراس، الأصوليين الحقيقيين الذين لا يغرّهم شيءٌ على الإطلاق من هذه الحياة الدنيا. وإذا كان هادي يستسلم بهذه السهولة لرغبات الجسد، فهذا يعني أنّ أفراح هذه الحياة الدنيا الزائفة لا زالت تعني له الكثير. لم أكن أتصوّره متزنّرًا بحزام ناسف حول خصره. فحين تدقّ ساعة الحقيقة، لا يستطيع أن يتخلّى عن تعلّقه برذائل هذا العالم، ولن يستطيع بالتالي أن يجد الشجاعة لضغط الزرّ. ما كنتُ أنا شخصيًّا لأراهن عليه، وكنت سأرفض علنًا المشاركة في عملية انتحارية أُوكِلَت إليّ في حال اختارته المجموعة لمشاركتي فيها.

يمكن تشذيب الأشجار، واقتلاعها من جذورها، وتحويلها إلى ورقٍ، أو

أثاثٍ، أو هياكل خشبية، أو حتى ركامًا من الحطب، لكن يستحيل تغيير قناعات المؤمن الحقيقي قيد أنملة. ما كنتُ لأدع نظرة امرأة تخطف بصيرتي. ما كنتُ لأستسلم أمام المغريات وأسمح لإغراءات الدنيا أن تلهيني عن صلاتي. كنتُ أصلًا في مكانٍ آخر، منيعًا داخل برجي العائم؛ كنتُ حيث يعجز وهم بصري عن التشويش على ثوابتي كمسلم. كنتُ قد طوّرت علاقةً كونية بحت مع الكائنات والأشياء. أكان تدجين الموت هو الذي ارتقى بحواسّي وأعاد رسم ملامح قدراتي؟ ربّما. في الأمس، كنتُ أمضي قدمًا من دون التوقّف عند ما يحيط بي، لكن منذ تاريخ 13 نوفمبر ، باتت كلّ واحدة من خطواتي تأخذ شكل وقفةٍ في حدّ ذاتها. كأنّني كنتُ أكتشف ناحيةً أخرى لما اعتقدت أنّني أعرفه. فالسماء ما عادت سماء، بل واحة؛ والأرض ما عادت أرضًا، بل سراب – وأنا كنتُ أجول بين حبالهما، ليّن الخطوة، مرفوع الهامة، حاملًا أجنحة خلّابة على ظهري. وكانت أكثر الأمور عاديةً تكتسي فرادةً تتجاوز كلّ الشبهات؛ وتتحوّل تفاهات الأمس فجأةً إلى أساسيات؛ كنّا سنتوق إلى مدّ أيدينا وخطف كلّ ما كان يهرب، لكنّني لن أمدّ يدي لأنّ لا شيء كان يهمّني أكثر من تلك الحقيقة الراسخة: كلّ ما عليها فانٍ، ووهمي، وزائل... ويبقى وجه الله، فوق كلّ غيابٍ وتناهٍ.

عاد هادي عند طلوع الضوء وغرق في النوم حتى الظهيرة.

عاود الياس الظهور أخيرًا، قرابة ساعة الغروب. أتى برفقة رمضان. تناولنا العشاء نحن الأربعة في مطعم متواضع يديره رجلٌ مغربي. لدى عودتنا إلى الاستوديو، أحاطني الياس علمًا بأنّ موعد مغادرتي إلى مراكش سيحين قبل أوانه.

– متى؟

– بعد ثلاثة أيّامٍ... أخبرني هادي بأنّك مريض.

– أعاني إسهالًا.

– يرفض تناول أيّ دواء، اشتكى هادي.

– تناولت شرابًا ساخنًا مرّات عدّة، ذكّرته.

– لم تتحسّن قطّ.

عبس الياس.

– لا بدّ أن تتعالج يا خليل. لنفترض أنّك وصلت إلى مراكش ولا تزال تعاني الإسهال، سوف تعطي انطباعًا بأنّ لديك ما تخفيه وقد تصطدم بمشاكل في المطار. تخلّص من هذا الغمّ، مفهوم؟

– سأشتري بعض الأدوية حالما أستيقظ غدًا.

رمقني بنظرات غريبة قبل أن يسألني عمّا إذا كنت حاولت الاتّصال بعائلتي أو بمقرّبين لي.

– ألم تمنعني، بالله عليك.

– حسنًا. لا اتّصال مع العالم الخارجي. أتشعر بأنّك مستعدّ؟

– إنّ النفس توّاقة.

– ممتاز.

قبل مغادرته، أخذ هادي على حدة وهمس في أذنيْه. وافق الشابّ التونسي. رافقنا الأمير إلى سيّارته. جلس رمضان وراء عجلة القيادة. لم ينظر إليّ نظرة واحدة قطّ خلال السهرة. انتظرنا أنا وهادي أن تختفي السيّارة في آخر الشارع، قبل أن نعود أدراجنا إلى الشقّة.

سارع التونسي إلى الخلود إلى النوم، وأطفأ الأنوار في غرفته.

أمضيتُ ردحًا كبيرًا من الليلة أمام التلفاز، أعاني اضطرابًا في المعدة.

ازدادت حالتي سوءًا.

قرابة الساعة العاشرة، توجّهت إلى المدينة كي أشتري بعض الأدوية.

وأنا أخرج من الصيدلية، شاءت المصادفة أن ألتقي بسيرج، الذي كان يسكن في حيي القديم في مولنبيك. نادرًا ما شعرت بالكره تجاه أحد كما شعرت به تجاه سيرج. كان شخصًا وضيعًا من الدرجة الأولى. في الثانية عشرة من عمره، وعلى الرغم من وجهه الملائكي الطفولي وصغر حجمه، كان يعشق الشجار ونهب الأسواق. غالبًا ما كان يأتي، على رأس شلّة مدجّجة بالهراوات وسلاسل الدرّاجات، بغرض إفساد مباريات

كرة القدم التي كنّا نجريها في ملاعب مرتجلة، سارقًا في طريقه كرتنا وأغراضنا المبعثرة هنا وهناك. كان يحدث له أحيانًا أن يطاردنا حتى مداخل المباني التي نسكنها. كان التجّار يسمّونه «عفريت شارع أوسيغيم»، وهو لقبٌ اعتزّ سيرج بحمله. في المرّة الأخيرة التي التقينا فيها، وقع شجارٌ مهيبٌ بيننا. حدث ذلك منذ ثلاث سنوات أو أربع من اليوم. حينذاك، كنتُ أبيع السجائر المهرّبة سعيًا إلى تدبير أحوالي المعيشية. كان سيرج أتى ليبلغني بأنّني أعمل على أراضيه الخاصّة، وقد أوجب عليّ ألّا أعاود دخولها. لولا تدخّل سيّدةٍ متقدّمة في السنّ فرّقتنا عن بعضنا بعضًا بضربات من مظلّتها، لكان أحدنا سيبقى طريح الأرض. خرج سيرج من هذا العراك بكسور في أنفه وفكّه؛ أمّا حصيلتي منه، فكانت كسور في ثلاثةٍ من ضلوعي، وكسرٌ في ساقي وسبع قطبٍ في رأسي.

وقبل أن تتسنّى لي معاودة دخول الصيدلية في محاولةٍ منّي لتجنّبه، لوّح لي بإشارة صغيرةٍ من يده وسألني:

– كيف حال أختك يا خليل؟

في تلك اللحظة، شعرتُ بانفجارٍ في داخلي.

أمسكت بعنقه ودفعته بقوّة إلى الجدار:

– من أين تعرف أختي؟

صُدم بدايةً بردّ فعلي، إلّا أنّه استطاع الإفلات من قبضتي:

– ما خطبك يا رجل؟ هل أنتَ مريضٌ عقليًّا أم ماذا؟

– في المرّة المقبلة التي تتجرّأ فيها وتأتي على ذكر أختي، سوف أقتلع لسانك من محلّه.

رمقني وهلة، مدهوشًا، ثمّ ابتعد.

سارعت إلى اللحاق به:

– لم أنتهِ منك بعد.

– أنصحك بعدم التقدّم خطوة إضافية. إذا تجرّأت ووضعت مرّة أخرى يدك القذرة عليّ، أعدك بأنّك لن تتمكّن من استخدامها بعد ذلك للملمة أسنانك.

– هل أسألك أنا عن أختك؟ وتأتي أنتَ هكذا من دون سابق إنذار، لتسألني عن أختي في الشارع، كأنّ بيننا صلة قرابة. ماذا فعلت بالحرمة، باحترام العائلة؟

– أنصحك باستشارة طبيب نفسي.

– فعلًا؟

– نعم. من الضروري أن تهدأ قليلًا، أيّها الحشرة. ما شأن الحرمة في كلّ هذا؟ لقد فقدت أحد أصدقائي في الهجوم الذي استهدف مترو بروكسل. وإذا كانت أختك قد نجت، فهذا لا يعني أنّ غيرها لم يخسر حياته.

حصل تحوّل في الموقف. ما عدتُ متأكّدًا من الكلمات التي أسمعها.

– عمّ تتحدّث؟

لا شكّ في أنّ ما قرأه سيرج من تعابير على وجهي، أخمد لهيب غضبه على الفور. استفسر:

– ألم تكن تعلم؟

أمسكت بياقة قميصه، لاإراديًّا. لم يردّني عنه هذه المرّة. نظر إليّ كأنّني سقطت توًّا من كوكبٍ آخر.

– ألم يخبرك أحد؟

أحسست بجسدي يتصلّب:

– هل كانت أختي في المترو؟

– آسف على إخبارك بما حصل بهذه الطريقة.

– هل ماتت؟

– ما كنتُ لأطمئنّ على حالتها لو ماتت. لقد أُصيبت فقط، بحسب علم أمّي.

دارت بي الدنيا وفي لحظة قلبت كياني رأسًا على عقب. انقبضت معدتي تمامًا كما حصل صباح وقوع الهجمات في مترو بروكسل. ركضت لأتقيّأ عند أحد عواميد الإنارة.

14

ركبت أوّل قطارٍ إلى بروكسل. كنتُ في حالة ذهول، فاقد الإدراك. كنتُ أدعو في أعماق قلبي أن تكون المصابة يزّة، لا زهرة. كنتُ متأكّدًا أنّ الله لن يسامحني لأنّني أدعو على واحدةٍ دون الأخرى، ولكن، لم أكن آبه بمعرفة الصحّ من الخطأ. وإذا كان لا بدّ للقدر أن يختار عائلتي ليبتليها بمصيبة، فكنتُ أفضّل أن يسدي لي خدمةً صغيرةً في الأقلّ، خدمة تافهة: أن تكون المصابة يزّة وليس زهرة.

بيد أنّ يزّة هي من فتحت الباب لي.

كدتُ أنهار.

– ماذا جئت تفعل في بيتنا؟ صاحت وهي تدفعني.

اجتاح إعصارٌ كياني. بالكاد كنتُ أسمع قلبي يدقّ؛ كانت نبضاته في داخلي أشبه بصدى رياح عاصفة تدهَم خنادق.

كانت نسوةٌ يواسين أمّي، وهنّ جالسات على فرشٍ موضوعةٍ على الأرض. بدت حالة أمّي أشبه بحالة هذيانٍ. كانت تتّكئ على حائط، ملفوفةً بوشاحٍ أسود اللون، كي لا تتهاوى غبارًا. كانت قد خدشت وجهها؛ وعيناها أشبع ببقعتي دمٍ. خانتها القوّة، فلم تقدر حتى على أن تومئ لي. كانت ترمقني بعينيْن غائبتيْن، كأنّني أذكّرها بمسألة لم تتمكّن بعد من استيعابها.

سارعتُ إلى غرفة أختي التوأم. لم أجد زهرة.

دفعتني يزّة إلى الغرفة المجاورة:

– هل جئت تتأمّل تحفة إخوانك؟
– أين هي؟
– ليس لديك ما تفعله هنا. فهذا البيت يتبرّأ منك. سنحتاج إلى كمّ هائلٍ من البخور لتطهيره من رائحتك.
– أين زهرة؟
– اخرج من بيتنا يا خليل. ارحل. لا أحد هنا يودّ رؤيتك.
– أسألك مرّة أخيرة، أين هي زهرة؟ في أيّ مستشفى؟
– اختفِ، وإلّا أقسم لك إنني سأنادي سكّان الحيّ كلّهم وأكشف حقيقة الوحش في داخلك أمام الجميع.
أمسكتُ عنقها بيديّ الاثنتين، ورحتُ أضغط على رقبتها بنية واضحة أن أرغمها على سحب كلماتها واحدةً واحدة.
– يمكنك أن تخبري العالم بأسره إذا أردت. لا أخشى أحدًا. وإذا كنتِ مصرّة، نذهب معًا إلى المخفر وسترين بعينيك كيف أقرّ أمام الأراذل في الشرطة برأيي في هذه الحياة الحقيرة التي يعشقونها إلى هذا الحدّ. لذا، قولي لي أين هي زهرة، إن لم تريدي أن أقتلع عينيْك من محجريهما أيّتها المشعوذة.
ركلت أسفل بطني بركبتها.
لم أفلتها من قبضتي.
– اخرجْ من منزلي، دوّى صوتٌ خلفي.
كان أبي – أو ما تبقّى منه – يترنّح على عصاه، شاحب اللون، ومتقبّض المحيّا. كان الشبح سيتجلّى أكثر منه. كانت كلّ أطرافه ترتعش، إلّا أنّ عينيْه حافظتا على تلك الحدّة التي كانت تجعله إنسانًا بغيضًا ومروّعًا على حدٍّ سواء في نظري.
– لا أريد رؤيتك بعد الآن. أتبرّأ منك إلى يوم الدّين، وألعن اليوم الذي وُلدت فيه. ارحل الآن. اذهب إلى جماعة شياطينك وهنّئهم على الأذى الذي ألحقوه بك، أنتَ، أخوهم أمام المشعوذ الذي نصّب نفسه بديلًا من نبيّ المسلمين. (أجهش فجأةً بالبكاء) زهرة حبيبتي، طفلتي، السعادة

الوحيدة التي كانت تزيّن حياتي ترقد الآن مع آخر ذرّة عاطفة كنتُ أكنّها لكَ، حيث تنتهي أفراح هذه الدنيا.

عندما استعدتُ وعيي، كان الليل قد أسدل ستار ظلمته على الأرض. كنتُ أجهل أين أنا، وكيف انتهى بي الحال في تلك الحديقة العامّة الصغيرة العارية الأشجار. لم تعلم الروح ما إذا كان الجسد قد تاه مشيًا ساعات. كان صوت أبي المرتعش لا يزال يدوّي في رأسي، صوتُ أبي الذي كان انتحابه ينسال نفسًا تلوَ آخر في حزني كما يتسرّب الماء من الصنبور في الظلمة.

لم تكن المباني التي أراها أمامي توحي لي بشيء. لا أذكر أنّ قدميّ وطأتا تلك الناحية من المدينة مرّةً. هل كنتُ في بروكسل؟ أم في غنت؟ في جهنّم أم في كابوس؟ كنتُ تائهًا بكلّ ما للكلمة من معنى. كان حذائي طافحًا بالماء والوحل. تُرى، أين مررتُ؟ خانتني الذاكرة. أوحت لي النفس بأنّني عبرتُ وادي الظلام.

توقّفت سيّارةُ شرطة أمامي. سمعت صرير أبوابٍ تُغلق. ووقع أقدام تقترب منّي قبل أن يبهرني ضوء مصباح يدوي.

– سيّدي، هل لنا أن نعرف سبب وجودك هنا؟

– …

– هل أنت على ما يُرام؟

– …

مرّر الرجل ضوء المصباح على جسدي مرورًا سريعًا.

– هل تحمل أوراقك الثبوتية؟

كان الصوت يرتطم بصدغيّ فيمسي ألف صدًى غائرٍ وصدًى. بدت الأرض تتموّج تحت قدميّ. انتابني شعورٌ بالغثيان.

– قفْ لو سمحت.

لمستني أيادٍ. شرهةٌ كالقضمات.

– يحمل أوراقه.

– أرِني إياها.

بالكاد استطعتُ تمييز الظلّيْن المبهميْن اللذين كانا يتحرّكان حولي.
– مكانك. سنتّصل بالقيادة من أجل تحقيق روتيني.
تناهى إلى مسمعي صوتٌ يهجّئ اسمي الكامل، وينقل مكان ولادتي وتاريخه، إضافة إلى عنوان سكني في كيوكيلبيرغ.
عاودت الجلوس، وأمسكت رأسي بيديّ.
استعدت أوراقي.
– عُد إلى منزلك سيّدي. إنّها الثالثة فجرًا.
ابتعدت الخطوات.
– أتعتقد أنّه تحت تأثير المخدِّرات؟
– ليس ثملًا حتى.
– ما الذي يفعله خارج منزله في ساعةٍ مماثلة؟
– بحسب علمي، لم يُفرض حظر التجوّل بعد هنا.
– وإن يكن.
– وإن يكن ماذا؟ نحن في بلجيكا. يملك الناس مطلق الحرّية في تمضية لياليهم أينما يروق لهم.
أُغلقت الأبواب. خفتت أضواء صفّارة الإنذار، التي كانت تدور وتدور، في الظلمة. على المقعد، انغلقت على ذاتي، وأقحمت يديّ الباردتيْن بين فخذيّ، وأغمضت عينيّ.
كان الإخوان يجولون في الشقّة التي أتقاسمها وهادي. لم يتردّد بعضهم في المجيء بعباءة حريرية، مبرزين لحاهم بتفاخر. تفاديًا لإقدام أحد الجيران على إبلاغ الشرطة عن توافد جماعات قد تثير الشكوك إلى المبنى الذي أسكنه، عمد رمضان إلى إحاطة سكّان المجمّع علمًا بأنّ أختي التوأم كانت من بين الضحايا الذين قضوا نحبهم في هجوم مترو بروكسل. ولم يطل الوقت قبل أن يأتي عددٌ من الجيران، الذين لم يسبق لي أن تعرّفت إليهم، لأجل مواساتي. كانوا في غالبيتهم من غير المسلمين. لم يمكثوا طويلًا، إذ أبعدتهم على الأرجح رائحة عيدان البخور

المنبعثة من كلّ زاوية من زوايا الصالون، وتلاوة الآيات القرآنية التي لم ينفكّ جهاز الستيريو الصغير، الذي أجهل من أتى به، عن بثّها طوال اليوم.

في الليلة التالية، شرّفني الشيخ شخصيًّا بلقاءٍ خاصّ، استقبلني خلاله في المسكن الثانوي الذي يملكه عيسى الفرّان. قبّل رأسي، وغمر يديّ بيديْه المقدّستيْن، ثمّ دعاني إلى الجلوس وجهًا لوجهٍ أمامه.

قال لي:

– يمتحننا الله جميعًا، أخ خليل. ولا يعرف أحدٌ متى، وأين، وكيف ستحين ساعته. فتلك الأمور تبقى من شأن الله وحده. له ما أخذ وله ما أعطى. والملك له وحده، وليس لنا نحن. لا المال، ولا البنون. من يرضَ بقضاء الله وقدره يكُن قد فهم هدف وجوده على الأرض. يقول «الله مرجعي أوّلًا وأخيرًا مهما اشتدّت الظروف»، وسيعطيه الله القوّة والشجاعة لتجاوز ما لم يستطع ردّه. أمّا الذي يتسخّط ويعترض على مصيبةٍ أصابته، فسيعيش في شقاء أكبر، ولن يمنّ عليه الله بأيّ لطفٍ. فلنحمد الله في السرّاء والضرّاء كي نزداد نورًا. تحثّنا المعاناة على استدراك هشاشتنا، كما يحثّنا زوال أفراحنا على استدراك وهن ما نعجز عن إبقائه. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام، فوق كلّ فناء وكلّ هلاك.

هل سمعته؟ أشكّ.

كنتُ أرى شفتيْه تتحرّكان في وجه الشيخ الجميل، وأعي تمامًا معنى كلّ كلمة من كلماته من دون أن يلقى أيّ صدًى في داخلي. عادةً، كانت عيناي تترقرق بالدموع عندما يخاطبنا بهذه النبرة المطبوعة بالأسى والترفُّع عن الدنايا. كان وقع كلماته الصحيحة يحدث اضطرابًا في دواخلنا لأنّه لم يكن هو نفسه سوى كتلة عواطف. كان يعرف كيف يخاطب الأرواح والقلوب. لكنّ هذه الليلة، كانت كلماته تخترقني من دون أن تؤثّر فيّ. في الحقيقة، ما كان شيءٌ يؤثّر فيّ. غصت في نوعٍ من الشلَل الإرادي، كأنّني ما عُدتُ أريد أن أقوى على الحركة. كنتُ أرى ظلالًا تموج حولي، وتتناهى أصواتها إلى مسمعي من دون أن تستوقفني –

كان جدارٌ خفيّ يفرّق عالمي عن عالمهم. وكانوا كلّما أتوا لتخفيف حزني، رفضت الاعتراف بأنّني في حالة حداد – كنتُ في حالة نكران مطلقة.

كان الياس قد «علّق مهمّة أساسية» ليكون إلى جانبي. كان يعرف أختي التوأم. فمنذ أربع سنوات، تحمّل شخصيًّا نفقات الصالة التي أحيينا فيها زفاف زهرة.

بقي معي أوّل يومَيْن. يساندني ويصلّي لراحة نفس أختي. وفي المساء، كان ينتظر مغادرة الجميع كي يدعوني إلى قراءة القرآن. كان يختار سورةً ونقرأها معًا بصوتٍ خافتٍ. كان هادي ينضمّ إلينا أحيانًا. وقد أنعم الله على الشابّ التونسي بصوتٍ رائعٍ، رقيقٍ يدخل القلب لدرجة أنّنا كنّا نسكت أنا والياس لنستمع إليه يتلو سورًا بأكملها.

– يجب أن تذهب لزيارة قبر أختك، كان ينصحني بلا كلل.

بالنسبة إلى الياس، كان من الضروري أن أذهب إلى المقبرة كي أعي بنفسي أنّ زهرة رحلت عن عالمنا.

– سيساعدك ذلك على استيعاب رحيلها.

أوكل هادي مهمّة مرافقتي.

وحالما رأيت تلك الأرض المشؤومة الملأى بالقبور، هربت.

وقبل أن يعود إلى «مهمّته»، دعاني الياس إلى العشاء عند أخته التي كانت تقيم في الضواحي، في منزلٍ صغيرٍ منخفض العلو وقبيح، تنبعث منه رائحة الخشب المسوّس والغسيل. كانت أخت الياس قد أنهت كلّ التحضيرات كي تخلي لنا المكان. بدت المائدة عامرة بالأطباق الملوّنة المطيَّبة بألف نوعٍ ونوع من التوابل؛ طاجين بموزات الغنم والمشمش، وكُسكُس بالخضار الطازجة، وسلطة الفليفلة الحلوة، وكبدة ودجاج مشويَيْن، أي باختصار، لوحة غنية تعرض فنّ الطبخ المغربي.

لم أستطع تناول لقمة منها.

شعر الياس بالخيبة:

– بذلت سمرة مجهودًا هائلًا لأجلك. قصدت السوق باكرًا صباح اليوم

وأمضت النهار في المطبخ. ما الذي ستظنّه إن لم تأكل؟

– ستتفهّم.

ساد صمتٌ بدا لي أبديًّا. كنتُ أرى يدي الياس تتأرجحان بين الشوكة والملعقة، بين السكّينة والكوب، من دون أن تلمسا أيًّا منها.

– خليل...

– نعم.

– خليل...

– نعم، الياس، أسمعك.

– ولكنّني لا أسمعك.

– ما الذي تودّ سماعه؟

– ما تردّده لنفسك الآن.

– وما الذي أردّده لنفسي في رأيك؟

– أتساءل. أنا أميرك. من واجبي معرفة ما يثقل قلبك ويشغل بالك، ماذا حلّ بعهودك، هل غيّرت رأيك، وإلام ستؤول.

– أتظنّني تغيّرت؟

– الجواب عندك.

حنيتُ رأسي؛ فإذا به يمسك ذقني ويرغمني على النظر إلى عينيه:

– يجب أن تستعيد رشدك يا خليل. رحلت زهرة إلى جوار خالقها... وكنتَ قد اخترت أنت الرحيل قبلها.

– الأمر مختلف.

– ليس مختلفًا. أن نرحل اليوم أو غدًا لا يغيّر في الموضوع شيئًا. لسنا سوى ظلالٍ فانية. اليوم، نحن هنا، وفي الغد لا نعود. لهذا السبب يتوجّب علينا أن نتهيّأ لفراق من نحبّ. لكنّنا محظوظون لأنّنا نعرف يا خليل أنّ عالمًا من النور والجمال في انتظارنا بعد الظلام. ولبلوغه، لا بدّ أن نجتاز ظلمات كثيرة، كالحزن، والأسى، والحداد، وكلّ المعاناة التي يمتحن الله إيماننا من خلالها. أتعتقد أنّ الله قاسٍ يا خليل؟

– ...

– لا حدود لرحمة الله. يحبّنا بقدر ما يحبّ الأنباء والقدّيسين. لقد صعّب علينا حياتنا كيّ يثبّتنا في قناعاتنا. وهو يحكم علينا ويرانا من خلال صبرنا. إنّ الحياة مجرّد امتحان ليس إلّا. طوبى لمن أسكنه الله المراعي الخضراء.

كنتُ مشتّت الذهن. كنتُ بعيدًا، حيث يعجز أيّ بلسمٍ عن تخفيف آلامي.

– أجّلت موعد رحيلك إلى مراكش. لا يمكنني إرسالك وأنت في هذه الحالة. انظر إلى نفسك، بالكاد تستطيع رفع رأسك. كلّ الأمور على أتمّ الاستعداد هناك. ولا ينتظر زكريّا أحدًا سواك. فهل يجب إلغاء كلّ شيء؟

– لمَ الإلغاء؟

– خليل، أنتَ محور العملية. إذا كنتَ لا تشعر...

– لا أشعر بماذا؟ إنّ مهمّتي في كفّة، والحزن الذي يصيبني في كفّة أخرى.

– إنّ المجلس ليس مستعدًّا للمجازفة على الإطلاق.

– هل عرّضتك لأدنى درجات الخطر في باريس؟

– لم تكن في الوضع النفسي الذي أنتَ عليه اليوم.

– أتظنّ ذلك فعلًا؟ أتعتقد أنّني تغيّرت منذ ذلك الحين؟

– أصدّق ما تراه عيناي يا خليل، ولا تبدو مستعدًّا للمهمّة. لك مطلق الحرّية في الانسحاب. أعدك بأنّ قرارك سيحظى بالاحترام. إذا قرّرت عدم الذهاب إلى مراكش، فهذا من حقّك. ستُؤجَّل العملية ليس إلّا. طبعًا، سيعرقل قرارك استعداداتنا، لكنّ تأجيل العملية خيرٌ من إخفاقها.

– أنتَ مخطئ تمامًا يا أميري. ففي الأمس، كان لديّ سببٌ واحدٌ لأموت، أمّا اليوم، فلديّ اثنان.

– متأكّد؟

– بقدر ما أنا متأكدٌ أنّني ما عدت أملك سببًا واحدًا للبقاء في هذا العالم.

افترقنا على وقع هذه الكلمات. كان عناق الياس لي أطول من العادة، إنّما أقلّ حرارةً. وبدلًا من أن يمدّني بالقوّة، أجّج طعم المرارة في داخلي.

انتابني شعورٌ بأنّ الياس كان يعلم منذ اليوم الأوّل للهجمات أنّ أختي لقيت حتفها، وقد أخفى عنّي الحقيقة، وبأنّه قدّم موعد رحيلي إلى مراكش كي لا أشكّ في شيءٍ بتاتًا.

غداة لقائنا، وفي الأيّام الثلاثة التي تلته، كنت آخذ سيّارة أجرة، حالما أستيقظ، وأذهب إلى زهرة في المقبرة. كنتُ أمضي ساعات طويلة في جوارها، أؤنس وحشتها، أفكّر وأدعو غير مبالٍ بالبرد والشتاء.

بعد ظهر أحد الأيّام، وفيما كانت أشعّة الشمس تشقّ طريقها وسط سماءٍ ملبّدة بغيومٍ في مشهد لم أر مثله من قبل، سمعتُ قرقعة الحصى خلفي. كان ريان، ملفوفًا في معطفٍ رمادي داكن. كان يحمل وردةً بيضاء اللّون في يده. أشعرني وجوده، وسط تلك المقبرة الخالية من السكينة الحقيقية، بالارتياح.

– كانت حبّي الكبير عندما كنتُ في الثانية عشرة من عمري، قال.

جثا، ثمّ مرّر أصابعه على الجرح الأمغر الذي غمّد جثمان أختي، ووضع الوردة عليه. انتظرتُ أن يرفع عينيْه عليّ؛ لكنّه أبقاهما في الأرض، تائهًا في ذكرياته:

– في ليلةٍ من الليالي، أرسلتها أمّك لتشتري بعض الخبز. وكنتُ أنا في المخبز. في الخارج، كان المطر يهطل بغزارة، وكنتُ أحمل شمسيّتي معي. اقترحت على زهرة مرافقتها. وعندما وصلنا إلى الدرج، دفعتها إلى الحائط وقبّلت شفتيْها. صفعتني وهربت. لم أتجرّأ بعد ذلك على النظر إلى عينيْها.

– أخبرتني.

– حقًّا؟

– لم تكن هناك أسرارٌ بيننا... طلبت أن أبرحك ضربًا.

– لكنّك لم تفعل.

– لم يوافق إدريس. خشي ألّا تسمح لنا باللعب بالبلاي ستيشن التي كنت تملكها.

ابتسم ريان ابتسامة حزينة.

قلتُ له:
– اعتقدتُ أنّك لم تعد تريد رؤيتي.
– نعتقد أحيانًا أمورًا تتخطّى قدرتنا يا خليل.
– لِمَ غيّرت رأيك؟
– حسن الظنّ.
– إذًا، لست متأكّدًا بعد؟
– ليس المكان المناسب لنقاشٍ مثل هذا.
– ليس هذا المكان المناسب لأحد يا ريان. لكنّ النقاش يُفتح أينما كان.
– جئتُ كي أكون إلى جانبك. توقّعت أن تطردني، ولم تفعل. هذا يعني أنّك لست شخصًا سيّئًا.
– كيف يمكنك أن تعرف؟
– أثق في حدسي.
– كنتُ أفضّل أن تثق في منطق تفكيرك.
عضّ ريان على شفتيْه.
– يؤلمني حزنك يا خليل.
– إنّها الحياة.
– كم أودّ أن أخفّف عنك، لكنّ الكلمات تفقد معناها أمام الموت.
– ربّما لهذا السبب يبقى الصمت سيّد الموقف في المقابر.
وقف ريان، وفتح ذراعيْه. رميتُ نفسي على صدره.
– ستكون الأمور بخير، همس في رقبتي.
خان ارتعاش صوته الدمعة التي حاول جاهدًا أن يكبتها.
مشينا بين الأموات. كانت عائلة تدعو لراحة فقيدٍ لها، واجتمعت حول قبره نسوةٌ يرتدين مناديل بيضاء ورجالٌ أقلّ ما يُقال عنهم أنّ الفاجعة حطّمتهم.
كان ريان يمسكني بذراعي.
– ذهبتُ إلى كامبريه منذ أسبوعيْن. ووصلتُ صباح اليوم. لم تشأ أمّي

أن تخبرني بشيءٍ قبل عودتي. لو علمتُ بالأمر قبل ذلك، لكنتُ جئت إلى الدفن.

– لم أحضر الدفن. لم أعلم بما حصل لأختي إلّا بعد أربعة أيّام من الحادثة. في الشارع. من أحد الجيران. لم يحاول فردٌ من عائلتي الاتّصال بي. كان الجميع على علمٍ، إلّا أنا.

هزّ رأسه، متعاطفًا.

– كانت زهرة غاضبة جدًّا منّي آخر مرّةٍ التقينا فيها.

– لا يمكن أحدًا أن يتوقّع نهاية الأمور يا خليل، وإلّا لكنّا سنحرص جميعًا على عدم إيذاء من نحبّ.

– لمَ كان ينبغي أن نودّع بعضنا بعضًا بهذه الطريقة أنا وأختي؟ لم نتشاجرْ يومًا قبل ذلك. إنّه لأمرٌ صعب، صعبٌ جدًّا. كم ألوم نفسي.

وضع يديْه على كتفيّ، كما كان إدريس يفعل معنا في الماضي حين يودّ إقناعنا بإحدى أفكاره.

– ما رأيك أن نذهب إلى مكانٍ ما للتحدّث بكلّ هذا؟ أعرف مطعمًا جيدًا في الجوار. والشيف أكثر من بارع.

قبل أن يأتيه جوابي، دفعني إلى سيّارته المركونة في آخر الممرّ. لحظة جلوسي على المقعد، انهار السدّ الذي كان يحبس دموعي منذ أربعة أيّامٍ وأربع ليالٍ، فأجهشتُ في البكاء.

وضع ريان ذراعه فوق كتفي.

– هيّا، لا تكبت ما في داخلك. ابكِ، سترتاح.

استمرّ في مخاطبتي، حتى خفت صوته مع كلّ شهقةٍ منّي كانت تهزّ وجداني من رأسي حتى أخمص قدمي. لم أكن أسمع سوى نواح ينهال على الأرض جمعاء.

– ... خليل، هيّا انهض الآن. سنقوم بجولةٍ قصيرة أوّلًا، موافق؟ يمكننا حتى مغادرة المدينة ساعة أو ساعتيْن إذا أردت. ما رأيك يا خليل؟ وبعد ذلك، نذهب إلى مطعم لنأكل ونتكلّم في الموضوع بكلّ هدوء.

– صباح الهجوم، أتاني كابوسٌ نادرًا ما رأيت بعنفه، وأمضيتُ باقي

اليوم في الحمّام، أشعر في معدتي بسكرات الموت التي كانت تخطف أختي.

– طبيعي، أنتما توأمان.

– نعم، لكنّني لم أربط بين الأمرين يومذاك. ففيما كنتُ أنا أُفرغ أمعائي، كانت أختي تنزف دمها، وأنا غير دارٍ بذلك. ظننتني أُصبت بالتهاب في المعدة. أتعي ذلك يا ريان؟ التهاب في المعدة. كان أغلى إنسانٍ على قلبي في هذه الدنيا يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكان وجعه ينهش أحشائي، ولم يراودني أدنى شكٍّ ولو وهلة... لا تعرف كم ألوم نفسي لأنّني لم أفهم. كانت أختي التوأم تموت، وأنا؟ ما الذي كنتُ أفعله في هذا الوقت؟ كنتُ أحضّر لنفسي مشروبًا ساخنًا بالبابونج، البابونج، البابونج، صحتُ وأنا ألكم لوحة القيادة حتى كدت أكسر معصمي.

– خليل توقّف... لا داعي للشعور بالذنب.

ألقيت رأسي على مسند مقعدي، سائل الأنف، مخدوش الحنجرة. شعرتُ بذراعيّ تنمّلان وبتشنّجات تمزّق معدتي من جديد.

– أرجوك يا ريان، خذني بعيدًا عن هذه المقبرة المشؤومة.

كان المطعم جنوب الحديقة، محصورًا بين محلٍّ مقفلٍ للخردوات ومتجرٍ للأدوات الكهربائية المنزلية. كان ضيّقًا للغاية، ويضمّ منضدةً صغيرة إضافة إلى عددٍ من الطاولات التي تتّسع لما يقارب عشرة أشخاصٍ ليس إلّا. كان ثلاثة زبائن ينهون غداءهم على طاولة قريبةٍ من المدخل. عرضت علينا النادلة الجلوس في آخر القاعة، لكنّ ريان اختار الجلوس مقابل الواجهة الزجاجية.

– يقدّمون هنا سمك السول على الطريقة المغربية. أنصحك به.

وافقتُ.

– إذا أردت شيئًا آخر، يمكنك الاختيار من القائمة.

– لستُ جائعًا، أؤكّد لك.

– أنا بلى. أتيْت مباشرةً إلى المقبرة، آملًا أن أجدك هناك.

– ماذا لو لم تجدني؟

– ما عدتُ مضطرًّا لأن أسأل نفسي. أنتَ هنا الآن، وأنا أيضًا، لقد التمّ شملنا من جديد. اشتقت لك كثيرًا، أتعرف؟

– لديك ماري الآن.

– الصداقة مهمّة أيضًا.

نفدت توًّا الكلمات التي أردنا تبادلها. التكلّم في الموضوع بكلّ هدوء. التكلّم بماذا؟ بدا ريان منزعجًا. علمتُ أنّه كان يبحث عن موضوع ممتع نتكلّم فيه من أجل ترطيب الأجواء؛ لكنّني لم أشجّعه. كان الصمت يروقني. وكان ريان هنا، فما عدتُ بحاجةٍ إلى أكثر. لقد سجّل نقطةً توًّا. ما كنتُ لأزور قبر أمّه. ما كنت لأملك الشجاعة.

جلبت لنا النادلة سمك السول على الطريقة المغربية، كما طلبناه.

أكلنا بصمت.

ومن ثمّ، طلب ريان فنجانَيْ قهوة.

– أما زلت تعمل لدى التركي؟

– نعم.

– وهل تسير الأمور على ما يُرام؟

– ليس لدي ما أشكو منه.

– إنّه بخيل بعض الشيء، إنّما صادق.

هززت كتفيّ.

أتت النادلة بالقهوة.

– وأنتَ، كيف حالك؟

– حصلت على ترقية بسيطة.

– مبروك.

– ليست ترقية مهمّة، لكنّها فرّحت قلب أمّي.

– هذا الأهم.

نظر إلى الرسومات التي تزيّن فنجانه، وعلت ابتسامةٌ مودّة شفتيْه:

– أتذكر يوم اصطحبتماني أنتَ وإدريس إلى مدام لويز كي أفقد عذريّتي؟

– احتفالًا بعيد ميلادك السابع عشر.
– كنتُ على وشك أن أبلّل سروالي.
– لكنّك أبليت حسنًا.
– غير صحيح... كذبت عليكما. حاولت مدام لويز جهدها لتساعدني على الاسترخاء، لم تنجح في إيقاظ أدنى إحساسٍ في داخلي. كنتُ مستلقيًا على سريرها، رخوًا كطرف خيطٍ ليس أكثر. وفي النهاية، خيّرتني بين الشروع في المهمّة أو المغادرة. رجوتها ألّا تذكر الموضوع أمام أحد. وافقت، بشرط أن أدفع لها ضعفيْ الأجر، تعويضًا على وقتها الضائع وحفاظًا على السرّ.
– ودفعت؟
– انتزعت منّي كلّ النقود التي كنت أحملها.
أدار الفنجان بأصابعه، ثاني الجبين، التقط أنفاسه كأنّه يستعدّ للغوص الحرّ، قبل أن يطلق العنان لكلماته في تنهيدة:
– تلك كانت الأيّام الخوالي، أليس كذلك؟ لمَ ينبغي أن تصل اللحظات الجميلة دائمًا إلى نهايتها؟
التقط أنفاسه من جديد، وبدا أنّه يبحث في أعماق أعماقه عن القوّة التي تمكّنه من إطلاق سراح ما كان يبذل قصارى جهده لاحتوائه.
وأخيرًا قالها.
تحقّق بصوتٍ متردّد:
– هل انتهى الأمر مع تلك... الجماعة؟
ترقّب ردّ فعلي كما يترقّب متّهمٌ صدور الحكم في حقّه.
– ألم تصدّقني حين قلتُ لك أنّني لم أكن أنوي قتل أحد في باريس؟
– لما كنتُ هنا الآن أجالسك. أعترف بأنّني استغرقت بعض الوقت، ولكنّني في النهاية اقتنعت.
التفت نحو الشارع. شجّعه ردّ فعلي، الذي كان يخشاه على غير حقّ، على البوح بما تبقّى من مكنونات نفسه التي صعب عليه كتمانها:
– كيف يقدر هؤلاء الأئمّة المزعومون على إقناع شبابٍ بالتخلّي عن

أحلامهم، وأفراحهم، ونسائهم وأطفالهم؟ لا أظنّ أنّ الخطب الواعظة تكفي. فهؤلاء الأشخاص الذين يظهرون في كاميرات المراقبة قبيْل وقوع الهجمات لا يبدون في حالة قلق أو تحت تأثير أيّ نوعٍ من المخدِّرات. بل على العكس، يبدون في غاية العزم. من أين لهم تلك الثقة الراسخة؟ هل أتتهم رؤيةٌ ما؟ هل أتاح لهم قادتهم الروحيون استشفاف أحد أوجه الوحي، أو ملاكٍ أو أبواب السماء؟ وإلّا، كيف يمكن تبرير تلك الغبطة التي يظهرونها قبل تفجير أنفسهم؟

لم أجبْ.

– أحاول فقط أن أفهم يا خليل.

– ليس هناك ما يمكن تفسيره. اطلبْ الحساب لو سمحت. حان الوقت لأعود إلى منزلي.

– أغضبتك.

– لا يهمّ.

بإشارةٍ منه، طلب ريان من النادلة أن تأتيه بالحساب.

خرجت إلى الشارع قبل أن ينتهي من دفع الفاتورة.

رقّطت بضع قطرات المطر الرصيفَ. لففتُ سترتي حول جسدي، واضعًا يديّ تحت ذراعيّ. بدأت حافلةٌ التزمير داعيةً مجموعة من السيّاح الصينيين إلى الركوب. لحق ريان بي.

– ذهبت لأهنّئ الشيف. يا له من ساحرٍ. أنوي دعوة ماري إلى هذا المطعم. إنّها تعشق المطبخ الأمازيغي.

وصلنا إلى الموقف الصغير، حيث ركن ريان سيّارته.

– أتريدني أن أوصلك؟

– لا، شكرًا، أحتاج إلى أن أمشي.

– ستمطر.

– لا بأس. أشعر بحاجةٍ إلى المشي والتفكير.

– أنلتقي قريبًا؟

– لِمَ لا؟

– ونذهب للاطمئنان على مدام لويز؟
– أتفعل ذلك بخطيبتك؟
– لست مضطرًّا. سأنتظرك في الحانة، كالعادة.
– لقد تخلّيت عن تلك الممارسات منذ زمن.
– يا للأسف. عليك أن تستأنفها بين الحين والآخر، كي تشعر بملذّات الحياة.
ضمّني إلى صدره، مبعثرًا شعري بحركة جنونية، كما يفعل الأخ بأخيه الأصغر.
– أيّها المعتوه. كنتَ أكثرنا تمرّدًا نحن الثلاثة، مدرّعًا كالخزنة، غيورًا على استقلاليتك. كنتَ تقفز من سرير إلى آخر، مستعدًّا للرحيل عند أيّ عارضٍ من عوارض العادة، لشدّة تعلّقك بحرّيتك. كيف سمحت لهؤلاء المشعوذين بخداعك؟
– إنّها أمورٌ تحدث.
لم يكن بإمكان ريان أن يفهم. ما كان بحاجةٍ هو إلى تلك الأمور. فكانت أمّه تعوّضه عنها كلّها. سهرت على كلّ خطوةٍ من خطواته، وحضنت كلّ حلمٍ من أحلامه، لطالما بقيت إلى جانبه متطلّعةً في الوقت ذاته إلى الأمام. كانت تراه، يوم كان بالكاد يقف على قدميْه، مدرّعًا بالشهادات، يصعد السلالم درجةً تلوَ أخرى، وفي خدمته سائقٌ ومساعدة خاصّة. لم تدّخر وسعًا ليصبح مهندسًا، عبقريًّا، ولم تفقد الأمل برؤيته يعمل لحسابه الخاصّ يومًا ما.
لم يكن الأمر سيّان بالنسبة إليّ.
أمّا أنا فكنت أشقى، يشتدّ عنائي وأنا أضحك بأعلى صوتي لصرف الانتباه عن حالي. ما كنتُ ألوم أحدًا. إنّها سنّة الحياة؛ ثمّة من يولد وفي فمه ملعقةٌ من ذهب، وآخر يشقى لتوفير لقمة عيشه، وثمّة من يليق به أيّ شيء، وآخر فاشل مهما حاول. طبعًا، في البداية، كنتُ أريد أن أفهم لما يرفض الحظّ أن يحالفني. كنتُ أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة، غير أنّ الأجوبة عنها كانت تفلت منّي. ومع الوقت، أخرجتُ نفسي من

تلك الدوّامة. ما عدت آبه بمعرفة الفرق بين القدر وأخطاء الغفلة. فما الفرق بين السماء إن كانت حمراء أو زرقاء، بالنسبة إلى شخصٍ يتحسّس طريقه في الظلمة؟ كنتُ أعيش حياتي كلّ يومٍ بيومه، آملًا بغدٍ أفضل، حالي من حال غيري. لكن بلا جدوى. مع مرور الأيّام، توقّفت عن انتظار المعجزة – ما عدتُ أؤمن بها، وقرّرت الاكتفاء بقسمتي من فتات القدر...

ثمّ، يحصل ما حصل! إنّها أمورٌ تحدث. لا تعلم كيف تعترض طريقك، تأتيك بلا موعد: مشادّة تأخذ منحًى سيّئًا، تعليق عنصري، شعور بالعجز أمام موقف ظالم – لا أحد يعرف بالضبط متى تبدأ براعم رفض مجتمع بأسره الظهورَ في باطنك، وأيّ شكل تأخذ. تصبر على وجعك وتنتظر، فيما تؤجّج مشاعرك المرهفة حساسيتك. تظنّ نفسك في مواجهةٍ مع المشاكل التي اعترضتك في الماضي، بيد أنّ تلك الأمور تبقى، وتستوطن جسدك كباقي أعضائك، تُمسي سمومًا تتغلغل في خلاياك العصبية. ومن ثمّ تبدأ جملٌ، بسيطة عمومًا، تتراكم داخل عقلك الباطن. أنتَ تشاهد فيلمًا عن الحرب، وتتناول الفشار مع شلّة من أصدقائك في آخر صالة عرضٍ، حين يتناهى إلى مسمعك: «لأجل من يموت هؤلاء العساكر الحمقى؟ من أجل شركات متعدّدة الجنسية؟ ما الذي ستقدمه لهم إن فعلوا؟ دقيقة صمت عن راحة أنفسهم، ميدالية، نصبًا تذكاريًّا ستغطّيه طيور الحمام بفضلاتها؟» لا تعير تلك الأحاديث اهتمامًا وتعاود غرز يدك في فشارك وأنتَ تهزّ كتفيْك. بيد أنّ تلك الأحاديث تترسّخ فيك خلسةً من خلال أحد أبواب عقلك. قليلًا ما عرفت حينذاك أنّك آويت توًّا خلايا نائمة رهيبة. حالك حال الكثيرين من الموقوفين هنا وهناك. إلى أن يأتي اليوم الذي تسمع فيه، خلال مشاهدتك تقريرًا عن الجهاد: «يموت المرتزقة ليحيا أسيادهم. والجنود لأجل مصالح لا تفيدهم بشيء. وقطّاع الطرق لأجل أسبابٍ تافهة... لكنّ الشهيد، هو، حيٌّ يُرزق عند ربّه؛ يتّكئ على فرشٍ في جنان الخلد، محاطًا بالحور العين وألوان الطيف الضوئي الباهرة.» بدايةً، لا تبالي. تعتبر أنّ لديك أمورًا أخرى تقوم بها بدلًا من

الإصغاء إلى تلك الأساطير. ثمّ، في يومٍ من الأيّام، يأتيك أحد الجيران، أو الأصدقاء أو شخصٌ ما بالكاد تعرفه، ويبدأ الإطراء بخطب إمام جامع الحيّ. تستمع كي لا تجرح مشاعره ليس إلّا، فأنت لا تبالي على الإطلاق بالكلم الطيّب. بيد أنّ الأخ يستأنف مهمّاته كلّما صادف طريقه طريقك. وغالبًا ما يكون في استقبالك عند النزول من الترامواي. ينجح في إقناعك باللحاق به إلى المأزق حيث يحاضر الإمام. لكنّه في الحقيقة، لم يقنعك. تلحق به كي يتوقّف عن مضايقتك. هذا ما حدث لي. كان الياس يضايقني: «يجب أن تستمع إلى هذا الكلام يا خليل. أخبره يا إدريس، أخبره بما يفوته.» وإذا بإدريس يقول: «الياس على حقّ. يجب أن تحضر اللقاءات مع إمامنا. لقد غيّرت حياتي.» «هيا تعالَ يا خليل. لا يُلزمك الأمر بشيءٍ. ولن يأخذ الكثير من وقتك. ماذا ستخسر؟ وظيفتك؟ ليس لديك وظيفة. وقتك؟ لا قيمة له بالنسبة إليك. أسدِ لي معروفًا لو سمحت.» إنّ الحشرية هي الأمّ الراعية لكلّ الإغراءات، والإغراءات بطبعها خائنة. وفي النهاية، ماذا سنخسر في الاستماع إلى إمام؟ يبقى أفضل من الاستماع إلى أنفسنا ونحن نتكلّم. وها أنتَ، بالكاد تعير ما يُقال اهتمامًا، وتشعر بمللٍ فظيع وسط الرعية. يوكزك الشابّ الجالس في جوارك بضربةٍ من كوعه في جنبك، كي يحثّك على إظهار انضباط أكبر، وانتباه أكبر. وشيئًا فشيئًا، تبدأ الخلايا النائمة التي كنتَ قد خزّنتها من دون إدراكك، المساس بالوتر الحسّاس. أمّا الإمام، فهو يملك الأجوبة عن جميع الأسئلة التي كانت تجول في خاطرك في الأمس من دون أن تزوّدك بمؤّشر واحدٍ قادر على إنارة أفكارك؛ كما أنّه يعيدك إلى الهزائم التي تكبّدتها، وخيبات الأمل التي اعتقدت أنّك تجاوزتها، وجروحك التي لم تلتئم يومًا – ويمسي البائس شبيهك، والثائر توأمك الملتصق، والعظات متنفّسك الوحيد، والعنف مشروعيتك. اللعنة على العنصريين، الموت للداعين إلى رهاب الإسلام، لن تدير خدّك الأيسر بعد الآن. مجرّد أن تستدرك ما يحدث لك، تجد نفسك إنسانًا آخر، كائنًا جديدًا تمامًا، شخصًا لم تشكّ في وجوده بتاتًا. بتّ محترمًا، مسموعًا بدورك، محبوبًا؛ تكتشف

أنّ لديك عائلةً حقيقية، ومشاريع ومثالًا أعلى. تصبح الأخ، وتمشي مرفوع الهامة بين البشر، تمشي كما يمشي السلطان في أرضه. وداعًا لفضلات المواطن الذي اعتاد المشي جانب الحائط؛ أصبحت محور الكون وتشعر بالندم لأنّك أضعت كلّ ذلك الوقت قبل الانضمام إلى الجمعية... ويومًا ما، في يومٍ مباركٍ، فيما تتمتّع بكلّ الاعتبارات، تنال أعلى درجات الامتياز: يدعوك الشيخ الموقّر إلى منزله، ليلتقي بك تحت سقف بيته! يأخذك على حدة، ويدعوك إلى الجلوس على مقعدٍ من صنع أحد الحرفيين في البلاد، بين وسائد مطرّزة وسجّادة يفوح منها عبير البخور؛ يقدّم لك الشاي والبسكويت الذي انتهت توًّا من تحضيره نساء ساحرات بأناملهنّ المطليّة بالحناء. وعندما تروي عطشك بارتشاف شرابك، ينظر الشيخ إلى عينيْك، يضع يديْه الجليلتيْن على كتفيك، ويسألك بصوتٍ خارقٍ كبلسمٍ يداوي قلبك: «ما الحقيقة بالنسبة إليك أخ خليل؟» تجيبه على الفور، بما أنّ السؤال يتعلّق بأكثر الحقائق جليّةً: «إنّه الله عزّ وجلّ، إمامي العزيز.» فيأتي ردّ الشيخ، الذي هزّ رأسه رفضًا، بمثابة مفاجأة صادمة، ثمّ يعترف لك تحت القسم: «لا، أخ خليل، أنتَ الحقيقة على الأرض. إذ إنّك ستُسأل يوم الحساب: كيف حمدت من خلقك من حبّ ونور؟» حينئذ، فإنّ كلّ المنطق الذي كنت تظنّ نفسك تملكه بخصوص الكائنات والأشياء، علاوةً على طبيعتها المعقدة، وكلّ القيم الخاطئة التي تعلّمتها في المدرسة، ومفاهيم الخير والشر، وتلك المتعلّقة بالأذى والتوبة، ووظيفة الشرف، والفضيلة، والواجب، والوفاء، والنقاء، بمعنى آخر كلّ ما كنت تظنّ أنّك فهمته، أو تعلّمته أو عشته، كلّ ذلك ينسدل حولك كستائر من غبار، فتجد نفسك أمام الحقيقة الوحيدة المهمّة: أنتَ، فإمّا تكون جنديًّا من جنود الله أو تابعًا من أتباع الشيطان.

إثر بلوغ هذه الدرجة من الترفّع، بات محالًا الرجوع إلى الوراء. يكفي أن تُسحب صامولة واحدة حتى ينهار الهيكل برمّته – ومن منّا يودّ رؤية سقالة ضريحه تتضعضع؟

15

افترقنا عند الموقف.

كان ريان قد لوّح لي بيده مرّةً أخيرة قبل أن يسلك طريقه.

شعرتُ ببعض الحزن لأنّني مجبر على ألّا أراه أبدًا بعد اليوم.

مشيت حتى ما عدتُ أشعر بقدميّ. أندى رذاذٌ خجولٌ المدينة، مرغمًا المارّة على فتح شمسيّاتهم. كانت الحانات مزدحمة؛ وكانت شاشات التلفاز تبثّ مباراةً لكرة القدم يتابعها المدخّنون عبر الواجهة الزجاجية، وهم يمصّون أعقاب سجائرهم بكثيرٍ من التوتّر. وكان بعض الأهالي ينتظرون أولادهم عند مخرج أحد المعاهد الموسيقية. أمامي، سارعت أمٌّ الخطى إلى اللحاق بابنتها؛ طفلةٌ بالكاد أطول من كمانها بنيّفٍ، تُزيّن ضفائرها أشرطة معقودة على شكل أزهار. كانت الصغيرة تقفز على الرصيف كما لو أنّها تلعب لعبة المربّعات. «قالت المعلّمة في المدرسة هذا الصباح عندما نجمع عددًا من الفتيات بصبيٍّ واحدٍ، نخاطبهم بصيغة المذكّر، وليس المؤنّث. – إنّها قواعد اللغة يا حبيبتي. – لكنّ ذلك غير منصف في رأيي.»

غير منصف... طعنني الملاك الذي كان يُفترض أن يحرسني في الظهر. أين أخطأتُ كي أُجازى بعقاب كهذا؟ كي أستحقّ أن أكون وحيدًا وتائهًا في هذه الجادّة حيث لا أحد يشعر، وإن قليلًا، بلهيب الغضب الذي كان يوقد داخلي؟ غير منصف... أكنتُ بحاجةٍ إلى حزنٍ آخر يحثّني على الموت؟ ذهبت إلى باريس، خفيف القلب كدوري يحلّق في العلالي. لم

أتردّد ثانية في ضغط الزرّ. هل خفتُ؟ قَطّ. لمَ هذه المصيبة الأخرى إذًا؟ لم أفهم الجدوى منها ولا حتّى الهدف. غير منصف... اعتقدتُ أنّ تفانيّ المطلق يعفيني من بعض التجارب، وأنّني كنتُ أعلى شأنًا من غيري لأنّني قبلت بكلّ رحابة صدرٍ أن أضحّيَ بنفسي لخير الذين سيعيشون من بعدي، وأنّه باستطاعتي أن أمشي على الجمر كما لو كان القوس مخمليًّا لطيفًا ضوئيًّا. وها أنا أترنّح تحت المطر، يضيق بي سنائي... لم يكن منصفًا، لا، ما كنتُ أستحقّ أن أسمع إهانة كهذه.

كان ظلٌّ يرافق خطواتي. رأيتُ انتحاري مانيكن-بيس. كان هو الذي طاولته اللعنة، يجرّ سلسلة العبوديّة خلفه، منخفض الهامة، وفي عينيْه حكاية ظلامٍ لا تنتهي.

لم يفارق تفكيري منذ أن تبرّأ أبي منّي.

انتحاري مانيكن–بيس، كان يشبه وجعي.

وجدتُ نفسي واقفًا أمام واجهة تعرض تشكيلةً من السكاكين. تشكيلة تلبّي الاحتياجات كافّة. سكاكين سويسرية، سكاكين صيد، سكاكين الفراشة الصينية، قاطعات سيجار، خناجر، سكاكين مسنّنة، سكاكين صنع لاغيول، سكاكين لتقطيع الستيك، قطع ثمينة أصلية ذات شفرات لامعة ومقابض مصنوعة من خشب الورد أو العاج الحقيقي، من قرون الجواميس... كانت شابّة تراقبني من وراء منضدة؛ انتابها شعورٌ مفاجئٌ بالاستياء لأنّها وحدها في المحلّ.

لم يكن هادي في البيت. نسي إغلاق نوافذ الصالون. كان الطقس قارسًا في الشقّة تمامًا كما هو في غرفة مبرّدة. رفعت حرارة التدفئة. رأيتُ المتسكّعين يتشاجرون في الأرض الواسعة قبالة الشقّة. كما هي حالهم دائمًا. كنت أراهم يومئون، يصدّ بعضهم بعضًا، يبتعدون ثمّ يستأنفون خناقهم. كانت إحدى المارّة تراقبهم، ومعها كلبٌ تجرّه برسن. خلت السماء متّشحة بطيف الغروب من شهاب يحمل أمنيتي إلى السماء، ولم تبعث لي إشارةً واحدةً تحثّني على تقبّل واقعي.

أغلقت المصاريع على مشهدٍ ما عاد يعنيني بشيء.

تمدّدتُ على سريري، وكنتُ أستمع إلى نبضي يدوّي في كلّ كياني.

كان نور الثريّا الساطع ينخر عينيّ.

أطفأته.

أشعرتني الظلمة ببعض الراحة. فكّرت بإدريس وريان، وسنواتنا في مولنبيك، الحافلة بالمغامرات. متى بدّل الإخوان مراجعي؟ وهل حقًّا كان لي مراجع؟ لا أعتقد. كنتُ على دربهم، تائهًا، فلملموني واحتفظوا بي بما أنّه لم يطالب بي أحد. ماذا كنتُ قبل ذلك؟ ورقة سائبة أرجحتها الرياح المعاكسة. على تلك الورقة البيضاء، تعهّدوا بصوغ ملحمة من بطولتي. هل كنتُ سعيدًا بينهم؟ طبعًا. كنتُ سعيدًا وفخورًا؛ كانت لي مكانتي في المجتمع، وهيبة، ومثال أعلى، أنا الذي كنتُ أمضي وقتي متسكّعًا بين مكانٍ مشبوهٍ وآخر، قبل أن أعود أدراجي إلى منزلي، ماشيًا كمن يهرب خلسةً، يدًا تسبقني والثانية تلحقني، مؤجّجًا استياء أبي منّي. طفيلي، هذا ما كنتُ عليه في الماضي، يرقة، مجرّدةً من أدنى أحاسيس الحياء، تعيش على حساب أبٍ بخيلٍ وأمّ بائسة.

كنتُ مدركًا مدى تفاهتي، إنّما غير قادر على تغيير وضعي.

لم يكن طموحي يتعدّى طموح كلبٍ ضالّ.

ما العمل الآن؟

بعد أيّامٍ، سأسافر إلى مراكش.

في الماضي، عندما كنتُ أسمع عن «منتهى الوحدة»، لم أتخيّلها لامتناهية كالفراغ. وها أنا الآن وحدي، وحدي بكلّ ما للكلمة من معنى أمام مسؤولياتي، أشبه بذرّة غبار ثابتة في الفضاء الخارجي. لم تكن لجاذبية الأرض، ولا لانعدامها، أيّ أثرٍ عليّ. بتُّ مجرّدًا أمام ضميري، أقف أمام مرآةٍ معتمة. هل كان ذلك منتهى الوحدة؟ أن يُضطرّ المرء إلى اتّخاذ قرارٍ مصيري من دون أن يعلم كيفية النفاذ إليه؟ لم تكن تلك حالتي النفسية، يوم الجمعة 13 نوفمبر 2015 ذلك في باريس. يومذاك، كنتُ أصلًا قد بلغت العالم الآخر.

لكنّ هذا المساء، هذه الليلة، دعا الشكّ نفسه إلى مائدتي وكنتُ

أستعدّ لنهش لحمي بنفسي...

– عُد إلى أرض الواقع قليلًا يا خليل.

كان هادي في غرفتي. لم أسمعه يدخل. لم أكن أتنبّه إلى كلّ ما حولي في الآونة الأخيرة. كنتُ أخترق الجموع والشوارع كأنّني في نفقٍ لا صدًى له، حيث أمسيتُ مجرّد انعكاسٍ عابرٍ على إحدى الواجهات، مروبصًا في الليل، مستغورًا في عمق الهاوية. في الأمس، ركبت سيّارة أجرة من دون أن أعي ذلك.

– أنا أكلّمك منذ دقيقتيْن كاملتيْن.

– عفوًا كنتُ غارقًا في أفكاري.

سحب كرسيًا، وجلس عليه منفرج الساقيْن، مكتوف اليدين على المسند. لم ترقني الطريقة التي حدّق إليّ فيها. شعرتُ بأنّه ينتهك خصوصيتي.

– بمَ كنتَ تفكّر؟

– بانتحاري مانيكن-بيس...

رفع حاجبًا مستغربًا:

– ما الذي يربكك في الموضوع يا خليل؟

– يبدو لي المشهد أشبه بانتحارٍ منه بإنجاز، ألا تظنّ ذلك؟

– لا، لست من رأيك.

– ما أقدم عليه ليس مقبولًا. التهجّم في وضح النهار ووسط الشارع على عناصر من الشرطة مدجّجين بالأسلحة، بوساطة مطواة صغيرة وحزام ناسف بدائي... أمضيت فترة قبل الظهر بكاملها وأنا أحاول فهم مهزلة هذا الشابّ المسكين والتمست فيها اليأس أكثر من القناعة. أتساءل عمّا إذا كان يفضّل إنهاء حياته على خطف حياة غيره.

قفز هادي على قدميْه، وأزاح الكرسي كي يزيل أيّ عقبة بيننا. رسمت تعابير وجهه المريعة ابتسامةً زائفةً على شفتيْه فيها كثير من الغضب.

قال، بفكّيْه المرتعشيْن:

– كلامك صادم.

– إنّها مجرّد تساؤلات أطرحها على نفسي.

– عذرٌ أقبح من ذنب. أوّلًا صفة «الشابّ المسكين» لا تنطبق على الشهيد. وأنتَ تعرف أكثر من غيرك أهميّة ما فعل. أهي وفاة أختك في الهجوم التي تشوّش منطق تفكيرك؟ هذا الألم الذي تشعر به جرّاء وفاتها، هو نفسه الذي كنت ستنزله كمن ينزل حكم إعدام على عشرات العائلات لو تكلّلت مهمّتك في باريس بالنجاح. هل كنتَ ستشعر بالندم؟ طبعًا لا. كلّ الحروب تخلّف أضرارًا جانبية. لا تدع الحزن يلوّث روحك. ما الهمّ من ألمنا إذا كان سينبثق منه عالمٌ أفضل، وأنقى، وأكثر عدلًا. أنسيتَ أنّه بالإيمان فقط نتخلّص من مآسينا الماضية؟ لا يمكنك أن تتخيّل مدى الدمار الذي عشته قبل أن تطأ قدماي عتبة جامع. لم أكن أجد كلمة واحدة أبني عليها حياتي من دون أن تنسف حياتي معناها. وانظر ماذا أصبح عليه تائه الأمس: أصبح منقذًا. لقد حصلت المعجزة، وبتنا أدواتٍ لها.

– أما عاد بإمكاننا أن نطرح على أنفسنا مجرّد أسئلة؟

– ليس أيّ أسئلة.

غادر الغرفة بغضب.

سمعته يخرج من الشقّة متذمّرًا.

وقفت بدوري، واقتربت من النافذة. لم أرَ أحدًا على الرصيف المقابل.

عاد «انتحاري» مانيكن-بيس يشغل تفكيري. ما كانت رسالته؟ هل سعى إلى إنقاذ روحه من خلال تجنيب الآخرين سكرات الموت؟ وضعت نفسي مكانه في محاولةٍ لفكّ شيفرة دوافعه الحقيقية، والغريب أنّني لم أشعر بالغربة في عالمه بقدر ما كنت أشعر بالغربة في عالمي أنا.

ما الذي ذهبت لإثباته في باريس؟ وما الذي سأذهب لتصحيحه في مراكش؟ إذا كان الأنبياء أنفسهم لم ينجحوا في هدايتنا، فهذا دليلٌ على أنّ شعور الإحباط إنساني بحت، وخير الناس من يحاول تجاوزه. إنّ الغضب هروبٌ إلى الأمام، ورفضٌ قاطعٌ لعجزنا عن الفصل بين الأمور، فشلٌ ذريعٌ للمنطق. إنّ كلّ ما يخرج عن سيطرتنا يبخّ السمّ في العقول ويؤجّج

الظلمة المحيطة بمعالم هلاكنا ليس إلّا. ليست الحروب سوى قضيّة خاسرة، والمحسنون الملعونون سوى شركاء متواطئين في التعاسة التي ألمّت بهم. أين كانت تكمن تعاستي، أنا الذي وقفت على قدم المساواة مع كلّ أوجه الغضب والنكران، مع كلّ حالات اليقين وخيبات الأمل؟ ماذا سيقدّم انتحاري؟ إفساد أحلام غيري لمجرّد أنّني بغضت أحلامي؟...

كنتُ قد بلغت نهاية الطريق، منهكًا، مثيرًا للشفقة وحاقدًا. ما عدتُ أملك القوّة لأفرض أيّ شيءٍ، لا على نفسي ولا على أيّ شخصٍ آخر. وبعد أن فرغت دائرتي الشخصية من أقرب الناس إليّ، حُرمت من أيّ رأي آخر قد يساعدني على تثبيت خطواتي. فالشخصان الأحبّ إلى قلبي غادرا هذه الدنيا. خلّف موت إدريس حفرةً في أعماقي، وترك موت زهرة الظلمات التي تؤويها.

تأتي القضايا الكبرى أحيانًا بمثابة تحقيق أمنيات نبيلة؛ ترى النور على منعطف بصيص أمل، وتتناهى في نواح مظلومٍ، وتترسّخ في وعدٍ بأيّام أفضل. ومن المفارقة أنّه عندما ترصّ صفوفها، تبدأ بالإخفاق والمزايدة إلى حدّ البحث عن النشوة في متعة جَلد الذات. ويُمسي ما كان مباركًا في بادئ الأمر، ملعونًا في نهاية المطاف؛ فيغرق ما كان يُشاد به في رمال التبرّؤ. تأخذ أقسام الأمس حلّة الإخطار، ويجد من كان يبحث عن الخلاص نفسه يمشي بقدميْه إلى هلاكه. أين كان ينبغي أن أقف في وجه كلّ هذا؟ ما كنت أرى نفسي بتاتًا في خانة المصائب. ولا في لهيب حرق جثّتي ولا في ضوء المتنوّرين الباهر. مذنبٌ أم ضحيةٌ، متواطئٌ أم مجرّد أداة، مهما اختلفت الحال، كنت أستحقّ الشفقة أكثر من الإدانة. وإن أُعطي مُدانٌ فرصةً واحدة من أصل ألف لينعم بالخلاص بعد أن انتهى من قضاء عقوبته، فالذي يثير الشفقة لن يتمكّن يومًا من إصلاح حاله بسبب الاحتقار الذي سيوحي به حتى آخر يومٍ في حياته.

في الغد سأقصد المخفر وأحوم حوله لجذب الانتباه. من ثمّ، سأقف على الرصيف المقابل ولن أتحرّك حتى يشكّك الشرطي المناوب في

سلوكي. وحين يبدأ طرحَ الأسئلة على ذاته، سأفتح سترتي كي يلحظ السكّين تحت حزامي. في اللحظة التي سيضع فيها يده على سلاحه، سألوّح بدوري بسلاحي مكبّرًا بأعلى صوتي «الله أكبر» وسأرمي بنفسي عليه كي أرغمه على إطلاق النار. أتمنّى أن يقتلني قبل أن أصل إلى الأرض. لا تهمّني تحليلات وسائل الإعلام فعلتي ولا الفكرة التي سيكوّنها الياس وجماعته بشيء. ففي جميع الأحوال، لن أُضطرّ بعد ذلك إلى تحمّل احتقار البعض ولا لعنات البعض الآخر. وفي النهاية، عندما نفشل في عيش حياتنا، لا يحقّ لنا أن نشتكي ممّا سيزول وإلى الأبد.

شعرتُ فجأةً برغبةٍ في سماع صوتٍ غير الذي كان يولول في رأسي. حملتُ هاتفي. ارتجفت يدي عند ملامسة لوحة المفاتيح. انتظرت، انتظرت. ما إن تعرّفت يزّة إلى صوتي، حتى أقفلت السمّاعة. عاودت الاتّصال بها. خمس مرّات على التوالي. عازمًا على تمضية الليل في معاودة الاتّصال، إن اضطرّني الأمر.

– ما الذي تريده بعد؟ صاحت أخيرًا.

– يجب أن نتكلّم.

– ليس لدينا ما نقوله لبعضنا بعضًا.

– أنا لديّ ما أقوله لك.

– لا أريد سماع شيءٍ.

– غير صحيح، تعرفين ذلك. وإلّا، لكنتِ فصلت خطّك الثابت.

ساد صمتٌ، ثمّ بدأت تنوح:

– لمَ حصل ذلك لها وليس لي أنا؟ لمَ أرادها الله في جواره، هي الجميلة التي كانت في ريعان شبابها، وليس أنا العانس الخائبة؟ أنا من أصلّي لكي تنتهي حياتي المشؤومة هذه.

– إنّه القدر يا يزّة.

– سحقًا للقدر. ما نحن بالضبط؟ أرقامٌ في لعبة حظّ؟ ماذا عسانا نفعل في الدنيا، ماذا؟ إلحاق الأذى بمن نحبّ. أكره الحياة، وأكره ما تمثّل وأكره

ما تخفي. أنا حاقدة على العالم بأسره.
– ليس ذنبه. هذه هي الدنيا، نقطة.
سمعتها تتنفّس بقوّة.
– ما الذي تنتظره منّي؟
– لم أقتل أحدًا.
– هذه مشكلتك ولا تهمّني على الإطلاق. إن غمست يديْك في حليب الأميرة للا مريم وأخرجتهما ملطختيْن بالدماء. أكرهك. أكرهك بكلّ جوارحي. لا تعرف مدى كرهي لك. كان ينبغي أن أسلّم حزامك القذر إلى الشرطة. نعم، هذا ما كان ينبغي أن أفعله فور اكتشافي إيّاه. كم ألوم نفسي لأنني لم أفعل ذلك. مكانك في مصحّ. فالسجن ليس للمجانين.
– أريدك أن تقولي لأمّنا أنّني أحبّها.
– فلتقل لها بنفسك. أشكّ أصلًا في أنّ لديك قلبًا. لست سوى وحشٍ، مثلك مثل هؤلاء المختلّين الذين يدّعون أنّهم إخوانك.
– قولي لها أنّني نادمٌ على…
أقفلت في وجهي.
– مع من تتكلّم؟
كان هادي في الردهة، قبضتاه على مستوى وركيه. كأنّه يخترق الجدران.
– لا يحقّ لك التكلّم مع أحد.
– هذا ليس من شأنك!
– بل من شأني أنا بالتحديد، شئت أم أبيت. الأوامر واضحة. إنّ وظيفة هذا الهاتف هي تلقّي الاتّصالات فقط. وقائمتك تخلو إلّا من اسميْن: أنا والياس. نحن فقط لا غير. هل تودّ إحباط خططنا أم ماذا؟
انحنى صوبي.
– عيناك حمراوان. أكنتَ تبكي؟
– ابتعد عن طريقي.
أمسك معصمي بشراسة.

– عن أيّ ندمٍ كنتَ تتكلّم؟ ومع من؟ إذا أردت التنحّي عن هذه المهمّة، تسلّم مهمّاتك إلى غيرك. ليس هناك من لا غنى عنه. فعدد المتطوّعين الراغبين في تنفيذ العملية لا يُعدّ ولا يُحصى.

– لا تتجرّأ على وضع يدك عليّ مرّةً أخرى إن لم ترد أن أقطعها يا هادي.

– واو! ثمّة ما يثير الشكوك في تصرّفاتك يا صاح.

– أفلت ذراعي أقول لك.

دفعني إلى الحائط. كانت حركته مشحونةً بعدائية باردة.

– سأعاود الخروج لتنشّق الهواء النقي. الجوّ موبوء في هذا المكان المقرف.

– هيّا اخرج.

رمقني بنظرةٍ اخترقت كياني، نظرةٍ أشبه بطعنة، ثمّ مسح أنفه بأسفل كمّه، أراد أن يضيف شيئًا، لكنّه غيّر رأيه وغادر الشقّة بعد أن أوشك على تحطيم الباب إربًا وراءه.

كان الياس يقبض على سكّيني بقوّة. عاقد الحاجبيْن ومشنّج الفكّيْن، كان يحاول عبثًا احتواء الغضب المنبعث داخله. كانت أنفاسه تذكّر بأنفاس مصابٍ بالربو وسط الصمت السائد في الغرفة.

كان هادي يقف إلى يمينه. كشاهد إثبات.

كنّا في مزرعةٍ، تقع على بعد ثلاثين كيلومترًا شمال بروكسل. كنتُ أرى الحقول عبر الزجاج تتّشح بالسديم. كانت السماء رماديةً كالصلب. وبدت غيومٌ كثيفةٌ تتهيّأ لصبّ جامّ غضبها على الريف النائم في دخانه.

– أنتَ تخيّب أملي يا خليل. ينتابني حزنٌ كبيرٌ. لقد ناقشنا مطوّلًا مسألة المصيبة التي ألمّت بك. وقد حذّرتك. لا تدع الشكّ يتغلغل في قناعاتك، فالشيطان قد يستغلّ أيّ خللٍ يشوب تفكيرك كي يقودك إلى الانحراف…

– لا أرى إلى أين تريد الوصول يا الياس.

– مع أنّ المسألة واضحة وضوح الشمس.

– ليس بالنسبة إليّ.
– بمن كنتَ تتّصل؟ هاجمني هادي.
– ما مشكلتك؟
– أنت لا تجيب عن السؤال، نبّهني الياس قائلًا.
– شقيقتي الكبرى ليست على ما يُرام منذ وفاة أختي التوأم. حاولت إنهاء حياتها مرّتيْن. اتّصلت بها كي أرفع معنويّاتها.
– زهرة لم تمت. هي تنعم بجنان الخلد وسط المفلحين. وعلى عائلتك أن تسعد بذلك.
– كان يبكي، أصرّ هادي. هو من ليس على ما يُرام أبدًا. كان يقول أنّه نادم...
– أكنتَ تتوقّع أن أهنّئ نفسي؟ ماذا كنتَ ستفعل مكاني؟
– ما أُمرت به حرفيًّا. وتوجيهات أميرنا واضحة. ما كان من حقّك الاتّصال بأيّ شخص.
صباح ذلك اليوم، اعترضني شخصان لدى خروجي من المبنى. فتّشاني لمصادرة سكّيني – كانا على علمٍ بأنّني أحمل سكّينًا – قبل أن يدفعاني داخل سيّارةٍ. لم يبديا أيّ عدوانية، إنّما كانا صارميْن كجنديْن مدرّبيْن تدريبًا منهجيًّا. لم أشعر بضرورة مقاومتهما. جلس أوّلهما وراء عجلة القيادة، وثانيهما ورائي، على المقعد الخلفي. لم أسألهما إلى أين كانا يأخذانني. فما كانا مضطرّيْن إلى أن يجيباني. إضافة إلى ذلك، ما النفع من معرفة وجهتي. كنت قد تناولت حبوبًا تساعدني على النوم؛ شعرتُ بالدوران ولم أبالِ بما كان ينتظرني.
لم ينبس الرجلان ببنت شفة على الطريق. كانا ينظران إلى الأمام كأنّ شيئًا ما يبهرهما. بيد أنّ الأفق كان مائلًا إلى الرماد ومغطًّى بالضباب. كما بدا السهل مكتئبًا في ذلك اليوم المحروم من طيف فرح وشعاع شمس.
– هل ضغط عليك أحدٌ يا خليل؟ عرضت عليك مهمّةً وقبلت بها. سألتك عمّا إذا كانت تناسبك فقلتَ نعم. أنتَ تعرف تمام المعرفة أنّك

تملك الحقّ في رفض العمليات التي لا تقنعك. محاربونا متطوّعون يا خليل. لهم مطلق الحرّية في اتّخاذ القرارات وهم يتحمّلون مسؤولية خياراتهم. إنّما، متى التزموا، فلن يتراجعوا.

– ما علاقة هذا بالاتّصال الياس؟ ما موضوع كلامنا؟

– أتكلّم عنك.

أراد لصرخته أن تكون بلا رحمة، كطلقة نار.

حافظت على رباطة جأشي. كي أفكّر بسرعة وبصواب. كان لا بدّ أن أجد الطريقة المناسبة للخروج من المأزق بأقلّ قدرٍ ممكن من الأضرار. نظرت إلى هادي، بطريقةٍ أردتها خائبة وصارمة في آنٍ، ثمّ التفتُّ إلى الأمير، مرتعشًا من شدّة سخطي، مصوّبًا سبّابتي نحو شريكي في السكن:

– ما الذي أخبرك به تحديدًا، ذلك التونسي؟ من أين أتى، هو؟ منذ بضعة أشهرٍ، لم يكن أحد يعلم بوجوده في الجماعة. وها هو الآن يقتحم وسطنا ويعلّمك من أنا. أين نحن بالضبط يا الياس؟ كان يكفي أن يأتي دخيلٌ كي يجعلني غريبًا وسط جماعتي الخاصّة، أنا الذي نشأت معك في المزراب عينه.

– لا نكفّ عن التعلّم يومًا، قال الأمير، ولا يكفي ذلك بتاتًا كي نتأكّد ممّا نظنّ أنّنا نعرفه أصلًا.

– أهو حكمٌ، الياس؟

– لم نبلغ هذا الحدّ بعد.

– إذًا لمَ أنا هنا؟

– لأجل هذه، قال ثائرًا وهو يلوّح بمطواتي.

– أهذا هو دليلك القاطع؟

بدا أنّ برود أعصابي أوقعه وهلةً عن صهوة جواده، بيد أنّ الياس كان يتقن فنّ معاودة الإمساك بزمام الأمور، بأسلوب وحده يملك مفتاحه. أحكم قبضته على مقبض السكّين.

– أيمكن أن تقول لي ماذا كنت تنوي أن تفعل به؟

– ماذا في رأيك؟

– التهجّم على جندي أو شرطي في الشارع... سيخلّص عليك كالكلب لتموت سدًى.

أعطاني السكّين.

– هيّا اضربني إن كانت تلك خطّتك.

– لمَ تريدني أن أضربك؟

– كي تقضي عليّ. ألم تكسر قلبي توًّا؟

– أنتَ من كسرت قلبي توًّا يا الياس. ظننتُك تقدّرني، اعتقدت أنّه ما عاد لديّ ما أثبته وأنّك تثق فيّ بقدر ما تثق في نفسك، وها أنتَ هنا تستجوبني بحقارة كأنّني مجرّد مشتبه به...

– لمَ هذا السكّين إذًا؟

– لطالما حملت سكّينًا. لا أرى مشكلة في ذلك، اليوم بالتحديد.

ساد صمتٌ خانق.

خفض هادي عينيه.

وبقيت عينا الياس مصوّبتيْن نحو عينيّ. لم يرفّ لي جفنٌ. كان من الضروري ألّا يرفّ لي جفنٌ. فأيّ ضعفٍ منّي ستكون له تداعيات رهيبة. انصهر ألف عنصرٍ وعنصر بيني وبين الياس، لتذوب كلّها في اصطدام أزلي. لمست في نظرته الثابتة التساؤلات التي كانت تجول في خاطره بسرعةٍ جنونية، لكن محالًا كان أسر واحدٍ منها. ما كان وجهه يعكس أيًّا منها. انتظرت أن يرتخي تعبيرٌ من تعابيره، أن تخون شائبةٌ ما كان يدور في فكره بلا كلل؛ حافظ الياس على تحجّرٍ يحاكي صلابة كتلة رخام.

ثمّ، وبعد لحظات أبدية، ارتعشت شفته، مخلّصةً باقي ملامحه من التشنّج الذي كان يجمّده.

قال، فجأةً، بنبرةٍ مسترضيةٍ:

– ماذا فعلت بتوجيهاتي يا خليل؟ منعتكم من حمل سلاحٍ، بغضّ النظر عمّا إذا كان أبيض أم لا. تخيّل أن تخضع لتفتيش دقيق، وسط كلّ تلك التدابير الأمنية على أساس الملامح. قد تجد نفسك في مخفرٍ لأسباب

سخيفة تختم سجلًّا ببصماتك. أهذا ما تريد؟ أن يُدرج اسمك على إحدى اللوائح كأنّك عيّنة نباتية تُعتبر سامّة؟

لم أقل شيئًا. فبالنسبة إليّ، لم تنتهِ المحاسبة بعد. كان الياس يرخي لي الحبل كي يعزّز فرصه بالوقوع بي.

فتح ذراعيْه. راوحت مكاني. انتظر أن آتي إليه، وأحتمي تحت جناحيْه. بقيت ثابتًا على موقفي. رمقني ورمقني، هزّ رأسه، قبل أن يأتي بنفسه إليّ. ضمّني بشدّة إلى صدره الضخم. كانت أنفاسه الحارقة تنتشر على رقبتي.

– أعتذر منك أخي خليل. جميعنا في حالة توتّر مؤخّرًا.

لم أربح المعركة حينذاك، إذ لم يكن تراجع الياس سوى فخٍّ مموّهٍ بحنكة. كان الأمير يتعامل معي بكلّ حسن نيّة إنّما من دون أن يتنازل عن شكوكه. كنتُ أعرفه تمام المعرفة كي آخذ اعتذاره على محمل الجدّ. فلم يكن التسامح أو ترك الأمور رهينةً للمصادفة يشبه الياس، وأقل ما يُقال عنه أنّه لم يكن من النوع الذي يعمد إلى تبرئة تائبٍ أو متّهم باطلًا. فعندما كان يتظاهر بطيّ صفحة، سرعان ما كان يفتح واحدةً أخرى معاودًا الوقوف عند التفاصيل ذاتها التي شُدِّدَ عليها مسبقًا. وعندما يضع أحدًا في مرصاده، يعمد إلى إخراج سلاحه ووضع إصبعه على الزناد، متأكّدًا أنّه سيضغطه في النهاية. ما كنتُ بحاجة إلى أن أنعم بقدرٍ عالٍ من الذكاء كي أعي أنّني خطوت توًّا على درب المجهول. بدءًا من تلك اللحظة، واعتبارًا من ذلك العناق الذي كان يسحقني أكثر ممّا كان يطبطب عليّ، بات من الحيوي أن أنظر مرّتيْن تحت سريري قبل أن أخلد إليه لأنام قرير العين.

أمّا هادي، فاختفى من أمام وجهي. بات من المستحيل أن أتقاسم شقّتي معه أو أن يعترض طريقي.

أتساءل عمّا إذا كان أُكِلَ إليه حينذاك التجسّس عليّ والتفتيش في أغراضي حالما كنتُ أدير ظهري.

16

بدأ تلامذةٌ التصفيق والهتاف عندما هبطت الطائرة على مدرج مطار مراكش المنارة الدولي. وهدأ أخيرًا مسافرٌ بدينٌ كان يجلس في محاذاتي، لم يتوقّف عن تلاوة الأدعية في كلّ مرةٍ نمرّ فيها بمطبّات هوائية. أهداني ابتسامةً عريضةً فيها كلّ امتنان الدنيا، كأنّني أنا من أوصله بسلامة إلى برّ الأمان. أدرتُ وجهي إلى النافذة كي لا أردّ له الابتسامة. كان وشاحٌ رملي يلفّ المدينة.

بدت سلسلةٌ بشريةٌ تحيط بشبابيك الشرطة عند الحدود. انتظرت دوري، بكلّ هدوء. لم أكن في عجلةٍ من أمري. كان سيّاحٌ يملأون استمارات هنا وهناك، متوتّرين بعض الشيء. بدت سيّدةٌ مسنّةٌ مذعورةً وهي تفتش عبثًا في حقيبتها؛ تنفّست الصعداء عندما وضعت أخيرًا يدها على جواز سفرها.

رمقني الشرطي الموجود في المقصورة، عبث بلوحة مفاتيح، واستغرق وقتًا أبديًّا للتأكّد من أمرٍ ما كنتُ أجهله قبل أن يختم جواز سفري. أفرج عنّي وأشار إلى من كان يخلفني في الصفّ بالتقدّم.

اقتصرت أمتعتي على حقيبة رياضية واحدة. كنتُ أتوجّه إلى المخرج عندما طلب منّي أحد موظّفي الجمارك أن أفتحها؛ فتّشها بأسلوبٍ منهجي من الداخل وشعر بالأسف لعدم وجود ما يصطاده.

أرغمتني الحرارة العالية الرطوبة في الخارج إلى خلع سترتي. كان شابٌّ يرتدي سروال جينز ممزّقًا عند ركبتيْه وقميصًا بألوان فريق باريس

سان جيرمان لكرة القدم، في انتظاري في الموقف. نظر أوّلًا إلى شاشة هاتفه، ثمّ توجّه نحوي.

– أنا ناظم.

قبّل وجنتيّ، ورمى حقيبتي في صندوق سيّارته، ثمّ دعاني إلى الركوب جانبه.

– كيف كانت رحلتك؟

– نمتُ في الطائرة.

– أنا أموت رعبًا من الطائرات. أفضّل السفر إلى أوروبا بحرًا.

– لم أركب سفينةً من قبل.

شغّل المحرّك، وربّت كتفي بقوّة:

– أهلًا وسهلًا بك بين ذويك يا أخي. كلّ الأمور جاهزة. لم نكن ننتظر سواك.

– هل هذه صورتي في جوّالك؟

– نعم.

– امحُها.

– حسنًا.

– فورًا.

رفع حاجبيْه، آخذًا جدّيتي على محمل الضحك.

– ألا تثق فيّ؟

– من فضلك.

نفّذ الطلب، باستخفاف.

– هل لديك صورٌ أخرى؟

– لا.

– كيف حصلت عليها؟

– أُرسِلَت إليّ من بروكسل عبر واتساب. أنا طلبتها. ما كنتُ لأنتظرك داخل المطار مع لافتةٍ تحمل اسمك. كاميرات المراقبة في كلّ زاوية.

– لأنّ ما من كاميرات هنا في الموقف، صح؟

– هنا في الأقلّ لست مضطرًّا إلى حمل لافتة.

كانت أجوبته فورية، هجومًا فردًّا، كأنّنا في ميدان رماية.

– أخ خليل، أضاف بسكينة، أفهم أن تكون على أعصابك، لكن صدّقني، أنتَ بين يدي شبكةٍ سبق أن أثبتت جدارتها. كلّ شيءٍ تحت السيطرة.

أومأت برأسي موافقًا.

– أعتذر منك. أنا أقف عند أدقّ التفاصيل. هذا بطبعي.

– ما عاد هناك داعٍ أخ خليل... أيمكننا الانطلاق الآن؟

– على بركة الله.

غادرنا المطار.

كان ذلك يوم الجمعة، يوم الصلاة الجماعية. كانت سيّاراتٌ قليلةٌ تمرّ بسرعة فائقة على الطريق المؤدّي إلى مراكش. فجأةً، بدأت حافلةٌ تميل إلى الجانب الأسفل، جرّاء ثقب في أحد إطاراتها. ضغط ناظم البوق بجنون بغية تفاديها، ثمّ استعاد وضعيته الطبيعية وتابع طريقه كأنّ شيئًا لم يكن.

أطلقتُ العنان لنظري كي يتنقّل بين مشهد وآخر. لطالما اقترنت عودتي إلى البلد بحرقةٍ في قلبي. فالصورة الأولى التي كانت تتبادر إلى ذاكرتي، كانت لجدّي الأكبر با شريف، الذي لم أجرؤ يومًا على مقاربته لشدّة ما كنت أراه إنسانًا يعيش في عالمٍ موازٍ وليس في عالمنا. كان جدّي، ذلك الرجل الذي تخطّى المئة عام من العمر، كأنّه آتٍ من قصص الخيال، يمضي أيّامه داخل غرفته، جالسًا القرفصاء على الأرض أمام مصحف مفتوحٍ على مسند صغير. وعند المساء، حين يخلو الجوّ من موجة الحرّ الصيفية الحارقة، كان يخرج لتنشق الهواء العليل ويجلس على كرسيٍّ من غصون الصفصاف يكون في انتظاره تحت شجرة خرّوب. كان يجلس عليه كأنّه يتربّع على عرشٍ، ويتوه في النظر إلى الأفق حتى حلول الليل. لم يكن يسمح لأحد بمقاطعة خلوته هذه. في نظر الجميع، كان با شريف يتواصل مع من غابوا عن دنياه. وكان الانضمام إليه بمثابة تدنيسٍ لحرمته. لم يكن ينبس ببنت شفة. كان يرتدي عباءة كُوِيَت ألف

مرّة ومرّة، ويعتمر عمامةً لا تشوبها طيّةٌ في غير مكانها، ويتّكئ على عصا أشبه بالصولجان. ما كان بحاجةٍ إلى قول أيّ شيءٍ؛ وحده وجوده كان يكفي. كنتُ أمضي ساعاتٍ في مراقبته عن بعد لشدّة ما كان يرعبني ويبهرني في آنٍ. وفي الحقيقة، لم يكن في المشهد ما يدعو إلى التأمّل. فبا شريف كان ينصهر وكرسيّه، ولا يحرّك ذراعه إلّا لطرد الحشرات. كانت عيناه فاتحتيْن، تنحني أمامهما كلّ النظرات، ويرخي لحيةً بيضاء تعانق رقبته كالطوق، لحيةً وددت مداعبتها بأناملي الصغيرة كما نداعب ريش الصيصان. وكانت يداه الورديتان المرقّطتان بالبقع تغفوان على ركبتيْه في مشهدٍ يذكّر بتقديم القرابين. كان أشبه بتمثال مقدّسٍ تركه لنا أحد الآلهة كي يحثّنا على التفكير. كان با شريف كتابًا مفتوحًا، ويجسّد وحده قصّة الريف بأكملها. كلّ تجعيدة من تجاعيد جبينه كانت تقصّ ملحمةً. وبعد أن عرف كلّ ما يُمكن أن يُعرف، واستحقّ كلّ ما يمكن أن يُستحقّ وأعطى كلّ ما يمكن أن يُعطى، كان ينتظر ساعته في طمأنينة، راضيًا عن إتمام كلّ واجباته. وإن كان قليل الكلام ونادر الحركة، فلأنّه أراد إقناع نفسه بأنّه ما عاد أصلًا من هذه الدنيا. كان يختلي بنفسه عند قدم شجرة الخرّوب، في ظلّ صلاته، حيث لم يكن أحدٌ يجرؤ على اقتحام زهده، وحيث توقّف الوقت بذاته. كان با شريف ملك نفسه. كان الله موجودًا في داخله، والجنّة حوله. أغمض عينيْه يوم أطفأت شمعاتي السبع، ثابتًا على كرسيّه. رحل راسمًا ابتسامة رضا على محيّاه، قابضًا على مسبحته...

أفاقتني من غوص الذكريات رائحةُ مخبوزات في الفرن كأنّها فاحت من أيّام الطفولة. رأيت نفسي من جديد مرتديًا سروالًا قصيرًا، أركض لإحضار الكعك الساخن من فرن عمّي براهيم، الذي كان آخر زقاق غير نافذ. كنّا أنا وأختي التوأم نتسابق كي يحصل الفائز منّا على أكثر الأرغفة قرمشةً. كنتُ أعشق الكعك المحمّص المقرمش الذي يذوب في الفم كما تذوب الزبدة. كانت زهرة سريعةً في الركض كالغزال. بضع قفزات كانت تكفي كي أمسي وراءها. ومهما حاولت عبور الحقول، كان اللحاق بها محالًا.

كانت تنتظرني على عتبة الفرن، مكتوفة اليديْن بكلّ فخرٍ، مرفوعةَ الرأس، فيما كنتُ أنا أرفض الاعتراف بفوزها، رغم انحناء قامتي، وجفاف حلقي، وسيلان أنفي.

«غشاشة. – كيف؟ – لم تعدّ حتى الثلاثة. – أنتَ فقط لا تتقبّل الهزيمة. مع أنّني تركتُ لك بعض المجال.» لكن، وبعد أن يرقّ قلبها للحزن البادي على وجهي، هي التي كانت تعرف تمام المعرفة أنّني أُصبت في صميم نفسي الذكورية الطفولية، كانت تدعني أختار الكعكة التي أريد... كانت مزرعة القبيلة تبعد عن القرية. وكانت تطلّ على أرض الأجداد المنسدلة على المنحدر الشمالي لسلسلة جبال كبدانة. كنتُ أعشق لحظة استيقاظي صباحًا، التأمّل عبر النافذة إلى البساتين المنبسطة على مدّ البصر؛ وفي الليل، كنتُ أمضي ساعات وأنا أحاول رؤية الواوية التي كانت تأتي لتحوم حول خنّ الدواجن في مزرعتنا. كانت أختي التوأم تدخل غرفتي أحيانًا، مختبئةً تحت شرشفٍ أبيض لتخيفني... «هووووو، أنا الساحرة الميتة وعدتُ لأنتقم... – توقّفي عن إخافتي زهرة... – هووووو، هيّا ارتعش أيّها الجرو، لن يأتي أحدٌ لإنقاذك...» رغم أنّني كنتُ أعرف أنّها هي، لكنّني كنتُ أموت من الخوف...

– إذا كنتَ عطشانَ، فثمّة زجاجة مياه معدنية داخل لوحة السيّارة.

– لست عطشان، شكرًا.

رأيتُ فتًى يصعد طلعةً، على ظهر حمارٍ. وكانت معازٌ تنطّ بالقرب من حيٍّ فقيرٍ بيوته من زنك وطوب، محاطة بكلب كان يحرسها عن كثب... كنّا نملك معازًا ودوابّ في المزرعة. في المرّة الأولى التي حاولت أن أمتطي حمارًا صغيرًا، أسقطني هذا الأخير بفعل رفسةٍ عنيفة. وبقي راعي مزرعتنا خيزو، ذلك الفتى الأعجف الشقي كالقرد، يهزأ منّي طوال الصيف. «الدرّاجة شيء، والحمار شيء آخر»، كان يقول لي بازدراء.

وحين كان يخلد الكلُّ إلى قيلولته، وسط نغمات صرير الزيزان، كنّا أنا وخيزو وقريبي علّال نذهب لاصطياد الأفعى في الأحراش. كان خيزو يعرف مخابئها. في يومٍ من الأيّام، انقضّ ثعبانٌ أسود ضخمٌ ومريعٌ علينا. وما إن

قفز إلى الوراء، حتى تعثّر علّال بجذرٍ فتدحرج هاويًا إلى الوادي. أصبنا أنا وخيزو بفالجٍ. لم يكن يملك علّال أدنى فرصة للخروج سالمًا من سقوط كهذا. لم نجرؤ حتى على التقدّم من حافة الهاوية للتأكّد من الأضرار. وكم تفاجأنا في رؤية علّال، على انخفاض خمسة أمتارٍ، قد انتفض من بين الصخور ولوّح لنا بذراعيْه ليطمئننا على حاله. يومذاك، كان من المفترض أن أعي أنّ المعجزة لم تكن حكرًا على الأنبياء. لربّما كان ذلك ليفتح عينيّ على الجانب الإيجابي للأمور. بيد أنّ للأمور جوانب مختلفة، ولم أكن أتمتّع بالبعد الكافي لاحتواء كلّ منها.

– منذ متى لم تزر البلد؟

– لا أذكر.

– في أيّ حال، لم يفتك شيءٌ. فالقصّة هي هي هنا: الأثرياء من جهة، والشرطة من جهةٍ أخرى والفقراء عالقون ما بين بين…

في هذه اللحظة بالتحديد، تجاوزت سيّارتنا مجموعةُ شبّان كانوا يركبون سيّارة بورش لمّاعة، والموسيقى تعصف من الستيريو. شابّان في الأمام، وفتاتان بشوشان إلى جانبهما شابّ أهيف تملأ البثور وجهه، في الخلف. رفع السائق راحة يده إلى أنفه وتمايلت أصابعه في حركةٍ أراد بها الاستهزاء من حنطورنا، ثمّ ضغط دوّاسة الوقود. أسرع ناظم محاولًا اللّحاق بالسيّارة المكشوفة. إلّا أنّه لم يجلب لنفسه سوى المهزلة.

شعرتُ برغبة في الالتفاف كي أرى مرّةً أخيرةً ما كنتُ أتركه ورائي. لم ألتفت… فورائي، كان الدربُ يتّسع للندم دون سواه.

تلقّى ريان اتّصالًا من أمّه.

– أين أنت؟

– في البيت.

– شغّل التلفاز وابحث عن محطّةٍ إخبارية.

شغّل ريان التلفاز بجهاز التحكّم.

ظهر في الشاشة مروّض أفاعٍ يخيف صبيةً. وكان رجلٌ يرتدي زيّ

راقصةٍ شرقيةٍ يرفّه الحضور. كان المكان مكتظًّا. عرف ريان ساحة جامع الفنا، في مراكش. رفع الصوت. كان تعليق المراسل الصوتي يشير إلى إجهاض قوى الأمن التابعة للمملكة الشريفة، هجومًا. «عُطِّلَت الأسلحة وفُكِّكَت المتفجّرات التي كانت في حوزة الإرهابيين الخمسة، ومن بينهم بلجيكيان (كاد ريان يفقد وعيه عندما تعرّف إلى خليل في الصورة المعروضة إلى يمين الشاشة، إلى جانب صورة رجل أصهب)، عند الساعة الرابعة فجرًا. وكان هؤلاء يعتزمون تفجير أنفسهم في ساحة جامع الفنا وقت الذروة بغية إيقاع أكبر عددٍ ممكن من الضحايا. وقد تمّ تفادي المجزرة بفضل بلاغٍ قدّمه شخصٌ مجهول الهوية. وضُبِطَت أحزمة ناسفة، وأسلحة من نوع كلاشنيكوف إضافة إلى قنابل يدوية الصنع. وفي هذه الأثناء بالتحديد، تُداهَم ضواحي المدينة.» وقد ظهر في الشاشة مشهد لرياضٍ جُرِّدَ فيه، بحسب الصحافي، الإرهابيون الخمسة الأسلحة والمتفجّرات. وبدت فصيلةٌ من جنود المغاوير، الذين كانوا يرتدون سترات واقية من الرصاص ويحملون البنادق، منهمكة حول ثلاث شاحنات حجزٍ تابعة لوحداتها وسيارتيْ إسعاف. «خلال الاشتباك الذي حصل بين الانتحاريين ووحدات مكافحة الإرهاب، أُصيب اثنان من الجهاديين. وبحسب السلطات المحلّية، فلم تسقط أيّ ضحية في صفوف المدنيين أو القوى الأمنية.» كما أظهر شريطٌ مصوّر لأحد الشهود العيان نهاية العملية: توقيف الشرطة أشخاصًا كانوا يحاولون إخفاء وجوههم.

– معقول، صاحت والدة ريان في الهاتف.

لم يكن ريان يسمعها.

انهار على الكنبة خلفه وأمسك رأسه بيديه.

بعد أسابيع قليلة، ولدى عودته من دورةٍ تدريبيةٍ في جنيف، وجد ريان ظرفًا في علبة بريده، يحمل طابعًا عليه صورة الملك محمّد السادس. فتحه على الفور، ليجد داخله بطاقة بريدية عليها أشجار نخيلٍ. خلف البطاقة، ثلاثة سطورٍ مكتوبةٍ بقلم عريض أسود:

لم يكن موكا مخطئًا. الواجب الحقيقي هو أن تدع غيرك يعيش. وأنا قررتُ «انتظار الربيع».

خليل

لفتت انتباه ريان عبارة «الوقت المتبقي: يومٌ واحد» المكتوبة بخطٍّ غامق والمُسطّرة بثلاثة خطوطٍ. جلس أمام حاسوبه، وطبع «هجوم مراكش». برزت لائحة لامتناهية من المقالات في الشاشة. نقر ريان على الرابط الأوّل. كان هذا ما يبحث عنه بالضبط. كانت صور الإرهابيين الخمسة تحتلّ نصف الصفحة. تأكّد ريان من تاريخ عملية قوى الأمن التابعة للمملكة الشريفة، التي أحبطت الهجوم الذي استهدف ساحة جامع الفنا: 23 مارس. قلب الظرف. كان ختم بريد مراكش يشير إلى لصق الطابع في تاريخ 22 مارس.

شبك ريان أصابعه ببعضها بعضًا تحت ذقنه، ورمق شاشة حاسوبه مطوّلًا.

– كان باستطاعتك تجنيب نفسك كلّ هذا العناء، همس لذاته.